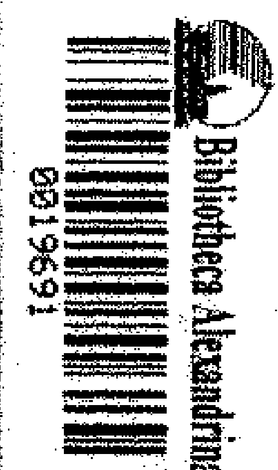
إسرائيل

التوراة.. التاريخ التضليل




دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

إسرائيل

التوراة.. التاريخ
التضليل

إسرائيل

التوراة.. التاريخ التضليل

سيد القمني

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

الكتـــــــاب : إســـرائيل

التوراة ... التاريخ ... التضليل

المـؤلـــــــف : سيد القمنى

ت و ف : ٣٨٦٧٨٧٦ الجيزة

تاريخ النشـــــر : ١٩٩٨م

الناشـــــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابــــــــع المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التـــــوزيـــــــع : ١٠ ش كامل صدقى (الفجالة) ـ القاهرة

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقـم الإيــــــداع : ٩٧/١١٧٦٠

الترقيـم الدولـــى : ISBN

977-5810-779

الإهداء

إلى مجد ومحمود :

لازلت أنتظركما فرسانا

فى ساحة البحث العلمى

فلا تتأخرا

تمهيد

في التجزبة المستمرة للتعامل مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، المؤسسة على أعمدة تاريخية ودينية قدسية، كنت على يقين دوماً بمدى تهافت كثير من أعمالنا الفكرية وترنحها إزاء تلك الطروحات، رغم كم الشعارات والجمل الساخنة، والإطالة المفرطة، حيث كانت تلك الأعمال تلقي بنا في النهاية على حجر الفكر الصهيوني وقبضة منظومته الفكرية، بعد الإقرار لها بكل تأسيساتها التاريخية والقدسية، برداء إسلامي يعيد إنتاج عناصر الأيديولوجيا الصهيونية، وهو ناتج ضروري، ولزوم حتمي عن التسليم الإيماني بقدسية التاريخ الإسرائيلي، كمادة أولى وأساس في النص المقدس، وكمادة أولى في قانون الإيمان (بالله وملائكته ورسله وكتبه)، وكان الواضح أن أولئك الرسل جميعاً من بني إسرائيل نسباً وشرفاً وعقيدة، وإن تم سحب المصداقية عن مقدسهم المتداول بين الأيدي الآن بعد وصمه بالتحريف، بعد اكتشاف يهود يثرب والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، اختلاف توجهاتهم على البعد الاستراتيجي، ومن ثم تغير التكتيك المرحلي زمن الدعوة، بالنسخ القدسي، ليتم الكشف عن الإسلام كبعد تاريخي قديم، وأن الإسلام كان مستبطناً باليهودية التاريخية، ومن ثم تمت إعادة التاريخ دورة كاملة إلى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحول جميع أنبياء وملوك دولة

إسرائيل القديمة إلى أنبياء مسلمين، كانوا يدعون بدعوة الإسلام، وإن ظلت الشهادات المنسوخة متواجدة بالمقدس الإسلامي، بكل تفاصيلها التاريخية الإسرائيلية كما هي في المنظومة التوراتية، وظلت التوارة بصفتها الحاملة للهدى والنور، وظلت الآيات التي تذكر بهم كشعب مختار متميز فضلهم الله على العالمين، وغير ذلك لاتجد سوى تنويعات عروبية نادرة ويتيمة، عن القرى العربية البائدة، وأنبياء مثل هود وصالح، أما النسب الإسلامي والعربي، فقد ظل بدوره اسرائيلياً، بإعلان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، أنه الحفيد النبوي الأخير لسلسلة إسرائيلية استعربت بعد إبراهيم، باستعراب ولده إسماعيل، واكتسابه الجنسية العربية بسكناه بلاد الحجاز، عبوراً على عمومة مؤكدة لإسحق شقيق إسماعيل، الذي أنجب اسرائيل (يعقوب) وبنيه وسلساله الطويل من أنبياء، توارثوا النبوة خلفاً عن سلف.

هذا ناهيك عن تطابق المنمنمات الدقيقة حول الإله وقدراته، وقصص الأولين الأولى بدءاً من قصة الخليقة وآدم مروراً بنوح والطوفان، حتى قيام مملكة شعب الرب (مملكة إسرائيل القديمة) في فلسطين، ومالحق ذلك من قصص الأنبياء والمرسلين، وكلهم من ذات النسل المبارك، ثم ما أضيف في عصر التدوين الإسلامي للسير والتاريخ، تلك المدونات التي عملت مستضيئة بحديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، والتزاماً

بقانون الإيمان، وما فرضه كل ذاك من سيادة المأثور الإسرائيلى على العقل العربى وروحه، بعد أن غص مأثوره بالإسرائيليات.

أما الشق الثانى من عناصر الأمة، والذى يمثله المسيحيون العرب، فمعلوم منذ البدء أنهم قد سلموا لإسرائيل وتوراتها، عبر إسرائيلية المسيح وتلامذته جميعاً، نسباً، بل وبالشق الأعظم من العقيدة المسيحية، وذلك اتباعاً لأمر إيمانى، يطلب الإيمان بالمقدس الإسرائيلى القديم، والتاريخ الإسرائيلى، إعمالاً لتوجيهات يسوعية بدأت بالإعلان: « ما جئت لأنقض الناموس، بل جئت لأكمل»، ولهذا ركز المسيح تعاليمه على الجانب الأخلاقى التشريعى، وترك مادون ذلك للمؤمن يبحث عنه في المقدس الإسرائيلى، لذلك تم ضم الكتاب اليهودى المقدس (التوراة ومجموعة الأسفار القديمة) إلى الكتاب المسيحي المقدس (الأناجيل ومجموعة رسائل التلاميذ) فى كتاب واحد مقرر على المسيحى المؤمن، يحمل عنوان (الكتاب المقدس) بشقيه (العهد القديم) و(العهد الجديد).

وإعمالا لذلك سلم المسيحيون بتاريخ إسرائيل وقدسيته وحتميته القدرية، ونهايته المرسوم في التقدير الإلهى لقيام مجد إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بل أصبح المسيحيون هم مادة التطور الكبرى، لقيام مملكة داود وسليمان في فلسطين بزعامة الرب يسوع صاحب الملكوت، لأنه امتداد لملوك إسرائيل القديمة، باعتباره من نسل

سليمان وأبيه داود، فهو إن إلا حفيد ملوك، تجرى فى عروقه دماء إسرائيلية ملكية، ارتفع فى المسيحية من كرسى النجارة الأرضية فى مدينة الجليل، حيث كان يمارس حرفته، إلى كرسى الألوهية فى السماء، لكن ليظل وفياً لرحمه وعشيرته، بمركز كل الحقوق التاريخية والدينية لإسرائيل فى فلسطين، لأنه هو ذاته إله اليهود، (يهوه) القائد الربانى المظفر الذى قاد شعب إسرائيل من مصر ليقيم مملكة فى فلسطين، نعم هو (يهوه) ولكن بعد أن تجلى لخرافه الضالة فى صيغة بشرية.

ومن ثم تنافس العربان، عتاة العقيدة العاضون بالنواجز على الإيمان، مسيحية وإسلام، فى تشريف تاريخ إسرائيل وتكريمه، وبينما باتت عودة المسيح لإقامة مملكة أبيه داود، والجلوس على عرش سلفه سليمان فى فلسطين، مشروعاً مسيحياً، فلا زال المسلمون ينتظرون المسيح ليقتل الدجال، ويقيم ذات المملكة، وبعدها يقف اسرافيل ينفخ فى البوق من صخرة بيت المقدس، لقيام مملكة الحق الإسلامية الخالدة، مشروعاً إسلامياً.

والأمر بهذا الشكل مشكلة إيمانية، وأزمة فكرية طاحنة، يتغافل عنها الجميع وفق صيغهم السياسية، وتكتيكاتهم المرحلية، وأهدافهم الاستراتيجية، لكن المأساة الحقيقة أنها تتجاوز ذلك الإطار إلى مستوى الأزمة الوطنية والقومية والاجتماعية، بحالة تبدو مستعصية

علـى الحـل تماماً، اللهـم إلا فـى عـالم الحلـم الثـورى الآتـى، وهو ـ بالركون إليه ـ يعـادل تماماً انتظـار المسيح قاتل الدجال ثم دخول الجنـات فـى المشروع الإسـلامى، كما يعادل انتظـار عـودة المسيح الإله وقيام المملكة المجيدة فى المشروع المسيحى واليهودى، علـى حد سـواء، والمـدرك لأبعاد تلك الأزمـة المروعـة فـى الفكـر والسلوك العربي، سيجد كماً من الإحباط الفكرى والنفسـى، والواقعى (فى التعايش مع ذلك الفكر السائد)، كفيل وحده بإلجائه إلـى إهمـال الأمر برمته، ونفض يديه منـه، بيأس كـامل ومطبق، لـولا بقيـة مـن روح قتالية تتشبث بالمحاولة، لوضـع لبنة حقيقية فى بناء الأمل الآتى، ضمـن لبنـات أخـرى نتمناهـا ونرجوهـا ونسـتحثها، مـن الباحثين المخلصين.

وضمن تلك المحاولات يأتى كتابنا هذا، الذى جهدنا عليه بالمعنى السالف، ولا نعلم مدى ما حققناه فيه، الأمر متروك فـى النهاية للجدل القائم الآن علـى مستوى التعامل مـع التراث لتحديد الهوية، فقط نريد الآن لفت نظر القارئ إلـى أن لـب هذا الكتـاب وعمدته الأساس، هو بابه الثالث، الذى هو هدف الكتاب الرئيسى لأنه معنى بالرد على تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، المعتمدة رسمياً وقدسياً من المؤسسة الصهيونية.

وقد رأينا أن نمهد لذلك الباب الأخير، بالبابين الأولين: التوراة، والتاريخ، لنضع بيد القارئ المفاتيح والأدوات اللازمة للتعامل مع الباب الأخير (التضليل)، بأقل قدر لازم من المشقة، وبحيث يمتلك القارئ قدراً من المعرفة المبسطة بالكتاب اليهودي المقدس، ومايكفيه من مؤونة للعلم بالمرحلة الزمنية من تاريخ اسرائيل، التي ركزت عليها تنظيرة بني اسرائيل عملها، وسعيها.

ومن ثم، فقد تعرضنا في الباب الأول (التوراة)، لمجموعة من الشروح حول ذلك المقدس وأهميته التاريخية، ومتى تمت صياغته بشكله الحالي، وبأي الأدوات، ولتحقيق أي أغراض؟ مع محاولة متعجلة لوضعه على محك المصداقية التاريخية، ثم أردفناه بالباب الثاني (التاريخ)، لعرض الفترة الزمنية المتعلقة برحلة الدخول الاسرائيلي إلى مصر، ثم رحلة الخروج منها إلى فلسطين، حيث تم تأسيس مملكة إسرائيل القديمة.

وعليه، أضع هذا الجهد، الذي ربما كان متعجلاً في بعض مواضعه، كناتج محاولة المسارعة بالخروج إلى الساحة، بعد تأخر طويل، راجياً أن أكون بذلك قد وضعت بين يدي القارئ مساهمة على طريق التعامل العلمي مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، مع

قناعة خاصة، أو اعتقاد، أنى أقدم به واحدة من الأدوات اللازمة، فى الصراع القومى والحضارى، الملتبس دوماً بالاجتماعى، والذى تخوضه فصائل أمتنا الواعية اليوم.

سيد القمنى

الباب الأول

التوراة

تأسيس

على الصفحة الأولى للكتاب المقدس

(النسخة العربية)

نقرأ إعلاناً أفتتاحياً يقول :

الكتاب المقدس : أى كتاب العهد القديم والعهد الجديد وقد ترجم من اللغات الأصلية وهى؛ اللغة العبرانية، واللغة الكلدانية، واللغة اليونانية.

والعهد القديم يشمل مجموعة الكتب اليهودية المقدسة، التى يشار إليها في مجموعها ـ مجازاً ـ باسم التوراة، وهو الاصطلاح الذى استخدمناه فى عنونة كتابنا هذا للدلالة على مجموعة كتب العهد القديم، رغم أن التوراة تقتصر على الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، لكن الاصطلاح صار دارجاً للدلالة على مجموع الكتب اليهودية التى يشملها ذلك العهد بكامله، وهو المختص فى صفحة عنوان الكتاب المقدس، بالترجمة عن اللغة العبرانية واللغة الكلدانية، أما العهد الجديد فيشمل مجموعة الكتب المقدس للعقيدة المسيحية، وهو فقط من بين مجموع كتب الكتاب المقدس، المترجم عن اللغة اليونانية.

ويطلق على كتب العهدين اصطلاحاً لفظة (أسفار) جمع (سفر) أو كتاب، وتعنى السور أو المحيط بالمحتوى، و (سفر) هى المقابل العبرى لكلمة (سورة) فى اللغة العربية، حيث يتبادل الحرفان (ف) و(و) بين العبرية والعربية، كما فى (ليفى) العبرية، ومقابلها (لاوى) فى العربية، وقد اعتبرت تلك السور أو الأسفار عند أصحابها كتباً مقدسة، أى موحى بها، أما كلمة العهد فى التسميتين (العهد القديم) و (العهد الجديد) فتعنى الميثاق، بمعنى أن كلا المجموعتين من الكتابات عبارة عن ميثاق أخذه الله على البشر، وارتبطوا به مع الله، فكان العهد القديم ميثاق العقيدة اليهودية، بينما أصبح العهد الجديد ميثاق العقيدة المسيحية.

وكتب العهد الجديد تمثل مجموعة الأناجيل وعددها أربعة أناجيل هى على الترتيب : إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا، هذا اضافة إلى سفر أعمال الرسل، ومجموعة رسائل تخص تلامذة المسيح والتى بشروا بها الأمم، وهى :

- رسائل بولس الرسول : رسالة إلى رومية، ورسالتين إلى كورنثوس، ورسالة إلى غيلاطية، ورسالة إلى إفسيس، ورسالة إلى فيلبى، ورسالة إلى كولوسى، ورسالتين إلى تسالونيكى، ورسالتين إلى تيموثاوس، ورسالة إلى تيطس، ورسالة إلى فيلمون، ورسالة إلى العبرانيين.

- رسالة يعقوب الرسول.
- رسالتين لبطرس الرسول.
- ثلاثة رسائل ليوحنا الرسول.
- رسالة ليهوذا.
- سفر الرؤيا، وهو سفر خاص نبائي يخص رؤيا ليوحنا اللاهوتي.

وتلك الأسفار والرسائل في مجموعها إضافة إلى الأناجيل تشكل سبعة وعشرين كتاباً أو سفراً، تكوّن منظومة المقدس المسيحي أناجيل ورسائل مقدسة.

لكن الأهم، والذي يعنينا هنا، هو القسم الأول من الكتاب المقدس، وهو القسم الأكبر والأضخم (العهد القديم) أو التوراة، ويتضمن تسعة وثلاثين سفراً ضخماً هي على الترتيب :

سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، سفر يشوع، سفر القضاة، سفر راعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثاني، سفر أعمال الملوك الأول، سفر أعمال الملوك

الثاني، سفر أخبار الايام الأول، سفر أخبار الأيام الثاني، سفر عزراء، سفر نحمياء، سفر إستير، سفر أيوب، سفر مزامير النبي داود (المعروف إسلامياً باسم الزبور لاختلاط حرفي الباء والميم بين اللسان العبراني واللسان العربي)، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر نشيد الانشاد الذي لسليمان، وسفر إشعيا (وهو مجموعة نبوات)، وسفر دانيال، وسفر هوشع، وسفر يوئيل، وسفر عاموس، وسفر عوبيديا، وسفر يونان، وسفر ميخاء، وسفر ناحوم، وسفر حبقوق، وسفر صفيناء، وسفر حجي، وسفر زكريا، وسفر ملاخي.

وعادة ما يتم تقسيم هذه المجموعة من الأسفار إلى أربعة أقسام هي على الترتيب:

القسم الأول : المعروف باسم التورة، أو كتب موسى الخمسة، أو البانتاتك Pentateuque ويشمل خمسة أسفار هي : التكوين Cenesis والخروج Exodus واللاويين Leviticus والعدد Nambers والتثنية Deuteronomy. وتعد تلك الأسفار الخمسة أهم أجزاء العهد القديم، وتنسب بجملتها إلى النبي موسى بوحي من الله.

ويحكي السفر الأول منها (التكوين) تاريخ العالم من لحظة البدء بخلق السماوات والأرض، ثم آدم ونسله، ويسير مع ذلك النسل

حتى يصل إلى أولاد يعقوب المعروف بإسرائيل، وهم إثنى عشر ولداً يعرفون بالأسباط أو بنـى إسرائيل، وينتهى السفر باستقرار هؤلاء ضيوفاً علـى أرض مصـر، فـى زمـن حلت بـه المجاعـة بالمنطقـة بكاملها، ومن المرجح عند العلماء أن هذا السفر قد تـم تأليفـه حوالـى القرن التاسع قبل الميلاد، أى بعد موسى بحوالى خمسة قرون، وهـو افتراض علمى لا يأخذ بعين الاعتبار مسألة نسبته للوحـى أو لموسـى من الأساس.

- أما السفر الثانى (الخروج) فيعرض للأحداث التـى مـرت بهـا القبيلـة الإسرائيلية فـى مصـر، وقصـة النبـى موسـى وقيادتـه لبنـى إسرائيل فى رحلة خروج - أو هروب - كبرى، ويحكى السفر أحـداث الرحلة بتدقيق وتفصيل شـديدين، ويشـير إلـى أسماء ومواضـع الحـل والترحال بكثافة وإصرار، إضافة لمـا يحويـه ذلك السـفر من بعض أحكام الشريعة اليهودية فى العبادات والمعاملات والعقوبات، ويرجـح أنه قد تم تأليفه زمن تأليف سفر التكوين.

والسفر الثالث هو سفر (التثنيـة)، الـذى شـغل معظمـه بأحكـام الشريعة اليهودية الخاصـة بالحرب والسياسة والاقتصـاد، والمعـاملات والعقوبات والعبادات، وقد سمى التثنية لأنه ثنى أو أعاد ذكـر التعـاليم التى يفترض أن موسى تلقاها من ربه، لكن العلماء يرجحـون أن هذا

السفر قد تم تأليفه فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أى بعد موسى بحوالى سبعة قرون، وذلك أثناء وجود القبيلة الإسرائيلية فى المنفى البابلى.

والسفر الرابع هو سفر (اللاويين) أو الليفيين، نسبة إلى لاوي أو ليفي Levi أحد الأسباط، والإشارة هنا إلى أبناء ليفى أو سلسلة نسله من أحفاد الأحفاد، الذين اشتغلوا بالكهانة اليهودية، ومن هؤلاء الأبناء كان النبى موسى، وقد شغل معظم هذا السفر بشؤون العبادة وطقوسها، خاصة ما تعلق منها بطرق تقديم الأضاحى والقرابين.

أما السفر الخامس وهو سفر (العدد)، فقد اهتم باحصائيات عن عدد قبائل بنى إسرائيل، وجيوشهم، وأموالهم، وأى أمر كان يمكن إحصاؤه في شؤونهم، لذلك سمى (العدد) من عملية العد والإحصاء.

القسم الثانى : ويعرف بالأسفار التاريخية، وعددها أثنى عشر سفراً، قامت بعرض تاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على كنعان (فلسطين)، وهى أسفار: يشوع Josue (ويشوع هو خليفة موسى على قيادة بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد موت موسى، بعد استيلائهم على بعض أرض فلسطين)، ثم سفر راعوث Ruth (وهو اسم جدة داود من جهة أبيه)، ثم سفر صموئيل الأول، وصموئيل الثانى (وصموئيل هو آخر قضاة إسرائيل قبل انتهاء النظام القبلى وقيام

المملكة المركزية)، ثم يلي ذلك سفران بعنوان أعمال الملوك أول وثاني، ويحكي تاريخ ملوك بني إسرائيل بدءاً من أول ملوكهم (شاؤول) مروراً بداود وولده سليمان وسلسلة الملوك من بعدهم، ويلي ذلك سفران بعنوان أخبار الأيام، وهما أول وثاني بدورهما، ويعرضان على الترتيب شجرة النسب من آدم إلى يعقوب إسرائيل، وهو تكرار سبق عرضه في سفر التكوين، ثم بعد ذلك يتم تقديم عرض لتاريخ داود، ثم ولده سليمان، ثم عرض لتاريخ إسرائيل السياسي بعد سليمان.

ويأتي بعد ذلك سفر عزرا Esdras وينسب إلى عزرا النبي الذي تمكن من إعادةالاسرائيليين من منفاهم في بابل إلى فلسطين، وذلك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وإليه تنسب محاولة إعادة تجديد الديانة ونفخ الروح في القومية الإسرائيلية، إضافة إلى قيامه بتجديد بناء الهيكل، وينسب إلى عزرا النشط هذا تحرير كثير من أسفار العهد القديم، حتى بلغ منزلة عظيمة الشأن، عند بني إسرائيل.

ومن بين تلك الأسفار التاريخية يأتي أيضاً سفر نحميا Nehemie نسبة إلى نحميا، أحد وجهاء بني إسرائيل، والذي تمكن بمساعدة عزرا من إقناع ملك الفرس، بالسماح لهم ببناء الهيكل مرة أخرى، ويلي نحميا سفر إستير Esther وهو سفر صغير يشتمل على

تسعة إصحاحات فقط، يروى قصة الإسرائيلية الجميلة إستير، التى تمكنت من إغواء أخشويريش ملك الفرس فتزوجها، كما تمكنت من إحباط مؤامرات وزيره هامان ضد بنى ملتها، ودبرت مع عمها الكاهن مردخاى مكيدة قضت عليه وعلى أنصاره، حتى سمح لهم الملك الفارسى بالولوغ فى الدم كيف شاءوا، فقام الإسرائيليون بذبح الآلاف من قوم هامان ونساءهم وأطفالهم، وحتى اليوم يحتفل أصحاب الملة اليهودية بذكرى تلك المذبحة الدموية فى عيد البوريم، أو عيد إستير، وذلك فى شهر مارس من كل عام.

القسم الثالث : ويعرف بمجموعة أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشمل أسفاراً فى صيغ الأناشيد والمواعظ الدينية المؤلفة تأليفاً شعرياً وهى خمسة أشعار أولها أيوب Jop ثم المزامير Bsaumes وبعده سفر أمثال سليمان Bruverbes ثم سفر الجامعة Ecclesiastes وهو منسوب بدوره لسليمان، ومن بعده سفر نشيد الإنشاد Canuque des Cantigues وهو بدوره من أعمال سليمان حسب عنوانه (نشيد الإنشاد الذى لسليمان).

القسم الرابع : ويسمى بمجموعة أسفار الأنبياء (النبييم)، ويشمل سبعة وعشرين سفراً تعرض لتاريخ أنبياء إسرائيل بعد موسى، وهى إشعيا Esaie وإرميا Jeremie ومراثى إرميا، وحزقيال Ezechiel،

ودانيال Daniel وهوشع Osee ويوئيل Joe وعاموس Amos وعوبديا Abdias ويونس Jonas وميخا Michee وناحوم Nahum وحبقوق Habakuk وصفنيا Sophonie وحجى Ajjee وزكريا Zacharie وملاخى Malachie.

ويرجح العلماء أن معظم تلك الأسفار قد تم تأليفها بين النصف الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، وأوائل القرن السادس قبل الميلاد، وأن بعضها يمكن تزمينه بأواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

علاقة النبي موسى بالتوراة :

بات معلوماً ـــ اليوم ـــ أن نسبة الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) إلى النبي موسى، أمراً مشكوكاً فيه تماماً، وغير علمي بالمرة، بل أصبح من العلمية القطع بتأليفه على يد عدد من الكتاب الذين اختلفت مشاربهم وأمزجتهم وثقافتهم ومواقعهم الاجتماعية وتوجهاتهم العقائدية، وهو الأمر الذى فرض نفسه في النهاية على المؤسسات الدينية ذاتها،حتى أنك تجد في مقدمة الطبعة الكاثولوكية للكتاب المقدس، الصادرة في عام ١٩٦٠ مانصه :

> ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول : إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.

وقد كان السبب في إطلاق اصطلاح (أسفار موسى الخمسة) على التوراة، هو افتراض إيماني ينسب تأليفها إلى النبي موسى، حتى صار ذاك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهد فيلون السكندرى ويوسفيوس في القرن الأول قبل الميلاد، اللذان عاصراً المسيح،

وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة، وهى العقيدة التى ظلت تأخذ بها الكنيسة إلى زمن قريب، ولا تزال سائدة فى كثير من الكنائس.

إلا أن التوراة نفسها تقدم لمن يبحثها شواهد تقطع بأن تلك النسبة إلى موسى باطلة تماماً، ومن تلك الشواهد على سبيل المثال.

- هناك عبارات تتعلق بموسى فى التوراة، ويستحيل أن تصدر عنه وذلك مثل الآية التى تقول : « وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع جميع الناس الذين على وجه الأرض ــ عدد ١٢ : ٣ » فهنا واضح تماماً أن الكاتب شخص آخر يتحدث عن موسى، ويذهب إلى تأكيد حلم (الرجل موسى)، كما لو كانت محاولة للتنصل من أحداث فى سيرة ذلك النبى التوراتية، تنفى عنه صفة الحلم بالمرة، ومثل تلك الآية، أخرى تقول: « وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر، فى عيون فرعون وعيون الشعب ــ خروج ١١ : ٣ ». هذا ناهيك عن الخبر الخاص بوفاة موسى والذى يقول: « فمات هناك موسى عبد الله فى أرض موآب حسب قول الله، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب ــ تثنية ٣٤ : ٥ »، وبالطبع يستحيل أن يكتب موسى عن نفسه أنه قد مات، بل ويحدد موضع دفنه.

- إنك تجد في التوراة أسماء لمواضع جغرافية يستحيل أن يكون لدى موسى علم بها، لأنها في عمق أرض فلسطين وموسى مات ولم تطأ قدمه أرضي فلسطين، إضافة إلى أن أكثر تلك الاسماء لم تكن قد سميت زمن موسى، بل تمت تسميتها حسب ظروف ومستجدات حدثت بعد موسى بثلاثة أو أربعة قرون، مثل اسم مدينة دان (تكوين ١٤:١٤، تثنية ٣٤ : ١)، ومثل مجموعة القرى المعروفة باسم يائير (عدد ٣٢ : ٤١ ، تثنية ٣ : ١٤)، وهي القرى التي لم تظهر أصلاً في الوجود إلا في عصر القضاة بعد زمن موسى بقرون (أنظر القضاة ١٠ : ١٤).

- وفي قصة يوسف خطأ تاريخي هائل، يطلق على فلسطين أرض العبريين (تك ٤٠ : ١٥) وهو الاسم الذي لم يطلق إلا بعد ذلك بزمان، بينما قبل ذلك - بتأكيد التوراة نفسها - كانت تسمى أرض الفلسطينيين، وأرض الكنعانيين.

- وفي سفر التكوين سقطة فاضحة تؤكد كتابة التوراة بعد قيام الملكية المركزية لاسرائيل، أي بعد أربعة قرون من زمن النبي موسى، والسقطة تتضح في حديث التوراة، وقولها أن ما ترويه عن زمن موسى، كان « قبل أن يملك ملك من ابناء

اسرائيل ــ تكوين ٣٦ : ٣١، عدد٢٤ :٧ » وهي جملة لا يكتبها إلا شخص عاصر العهد الملكي وعرف بقيام المملكة، إنها بالقطع لا يمكن أن تكتب إلا في العصر الملكي لإسرائيل.

- هناك تعبير متواتر في التوراة هو (حتى اليوم)، يلحق قصص بعض الأحداث، كالقول أنه تم تسمية مدينة كذا بهذا الاسم وهذا اسمها (حتى اليوم)، أو أن الحدث الفلاني قد أدى إلى تدمير مدينة كذا وظلت على حالها ذلك (حتى اليوم)، والملاحظ أن كل التسميات والأحداث التي لحق بها هذا التعبير، تمت بعد عصر موسى بقرون، إضافة إلى مساحة زمنية أخرى يضيفها تعبير (حتى اليوم)، أي حتى يوم كتابة الحدث وتدوينه، وهو ما يشير باليقين إلى مسافة زمنية أخرى تفصل بين الحدث وبين زمن التدوين، مما يبعد بزمن كتابة التوراة عن زمن موسى مسافات أخرى، ونموذجاً لذلك التعبير المتواتر ما يمكنك أن تجده في عدة مواضع مثل (تكوين ٣٥ : ٢٠، تكوين ٤٧ : ٢٦، تكوين ٤٨ : ١٥، وخروج ١٠ : ٦، وعدد ٢٢ : ٣٠، وتثنية ٢ : ٢٢، وتثنية١٠ : ٨ وتثنية ١١ : ٤).

- أما تعبير (ولم يظهر نبي مثل موسى ـ تثنية ٣٤ : ١٠) فهو يشير إلى معرفة الكاتب بظهور أنبياء بعد موسى، والمفترض أن ذلك لم يكن معلوماً زمن موسى، علماً أن هؤلاء الأنبياء لم يبدأ تواجداهم الفعلى إلابعدعهد صموئيل ومع قيام المملكة الإسرائيلية.

وعلى مثل تلك الملاحظات التى يمكن لقارئ مدقق أن يراها فى التوراة، تتالت التأكيدات التى ترفض نسبة التوراة إلى موسى، فكان تأكيد توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزى (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩): أن تدوين التوراة قد تم بعد موت موسى بزمن طويل، ثم تبعه الفيلسوف اليهودى باروخ اسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) الذى انتهى إلى إنكار أى احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة إلى موسى، وقدم على ذلك شواهد عديدة، وقدم عدداً من القرائن التى تشير إلى ان كتب العهد القديم بدءاً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثانى، قد كتبها عزرا الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد. وكان الطبيب الفرنسى جاك أوستراك (١٦٨٤ ـ ١٧٦٦) أول من كشف عن احتواء سفر التكوين على روايتين مختلفتين، وأوضح حقيقة وجود اسمين مختلفين للإله فى ذلك السفر وفى قسم من سفر الخروج، هما (إلوهيم = الآلهة) و(يهوه). وقد ربط (أوستراك) بين ذلك وبين روايات التوراة فاكتشف أن الأجزاء التى تستخدم اسم إلوهيم تروى رواية مختلفة عن تلك التى تستخدم اسم يهوه.

ويأتي الألماني (جراف ــ ١٨٦٥) ليكمل تلك الدراسات، فيقوم بعملية عكس وقلب شامل للتصور التقليدى، الذى شاع عن كون القصة الإلوهيمية هى الأقدم، ليؤكد أن القصة اليهوية كانت هى الأقدم، بينما دونت القصة الإلوهيمية فى فترة العودة من المنفى البابلى زمن عزرا، وذلك خلال القرن الخامس قبل الميلاد. [1]

ولعل أهم ما ينفى نسبة التوراة إلى موسى. أنها لم تكن أبداً موضوعاً واحداً متكاملاً دفعة واحدة، يؤكد ذلك التكرار الذى يمكنك ملاحظته فى قصة الخلق، مما يشير إلى اختلاف المؤلفين، بل أنك تجد فى ذلك التكرار مخالفات جوهرية، ونماذج لتلك الروايات والمخالفات ما يمكن أن نورده كأمثلة وليس حصراً :

فى قصة الخلق أو التكوين التى يمكن للقارئ الرجوع إلى نصها كاملاً بالتوراة منعاً للإطالة، يمكننا أن نقف على ذلك التناقض فى فعل الخلق، الذى يقوم به مرة من سمى فى الترجمة العربية (الله) وهو فى الأصل العبرى (يهوه)، كما فى القول : «فى البدء خلق الله

---

(١) للمزيد حول علاقة موسى بالتوراة أرجع إلى

- اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفى، دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٨١.

- د. فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

السماوات والأرض ـ تكوين ١ : ١» أو كما في القول : «وقال الله ليكن .. كذا وكذا »؛ ومرة أخرى نجد الخالق في ذات القصة لكن في مواضع أخرى هو (إللوهيم) أو (الآلهة)، وذلك كما في قوله لأعضاء مجمعه الإلهي: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ـــ تكوين ١ : ٢٦ ».

وفي موضع من القصة يقوم الإله بخلق السماء والأرض دفعة واحدة «في البدء خلق الله السماوات والأرض ـ تكوين ١ :١» بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتان في الأصل في هيئة غمر ماء أزلي مظلم، يفتقه الله عن بعضه إلى سماء وأرض « وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه.. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد.. ودعا الله الجلد سماء ــ تكوين ١: ٢ ـ ٨ ».

وفي مشهد آخر من دراما التكوين، نجد الإله يقوم بإنبات النبات في الأرض ويضع فيها حيوانها ودباباتها «وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه

بزره فيه على الأرض ـ تكوين ١ ـ ١١ » وفي مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيهـا بخلق آدم، ثم يضعه فجأة في مكان يدعى جنة عدن ليزرع أرضها ويفلحها « هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد.. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض.. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله ـ تكوين ٢ :١ ـ ٨ ».

أما أفصح الإشارات لوجود روايتين مختلفتين لقصة الخلق، فهو ما جاء عن آدم عندما وضع في الجنة، فمرة نعلم أنه لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم في موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء « حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها، لأنك تراب، وإلى التراب تعود ـ تكوين ٣: ١٩».

ثم تناقض آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق قد بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة « في البدء خلق الله السوات والأرض ـ تكوين ١ : ١»، وأنه بعد ذلك تقرر إنارة الكون « وقال الله ليكن نور فكان نور. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً ـ تكوين ١ : ٣ ـ ٥ »، بينما لدينا رواية أخرى تتحدث عن السماء

والأرض كموجود واحد أصلي في هيئة محيط أزلي مظلم، وترجئ تلك الرواية ايصال الإنارة إلى ما بعد فتق هذا المحيط إلى سماء وأرض «وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. ودعا الله الجلد سماء.. وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ـ تكوين ١ : ٦ ، ٨ ، ١٤ ».

أما أبرز الشواهد على مزج روايتين مختلفتين للتكوين، فهو الكيفية التي تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد يجمع في ذاته الواحدة بين الذكورة والأنوثة « يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم ـ تكوين ٥ :١»، لكن في موضع آخر نجد الإله يخلق زوجين متمايزين ذكراً وأنثى «على صورة الله خلق الزوجين، ذكراً وأنثى خلقهم ـ تكوين ١ :٢٧ ».

وبالطبع لم تكن شواهد التداخل بين روايات مختلفة تم جمعها، أمراً واضحاً في قصة الخلق وحدها، فهناك دلائل أخرى في روايات أخرى تشير إلى هذا الأمر بوضوح، ففي قصة نوح نجد رواية تقول أن الله قد أمر نوحاً أن يأخذ معه في الفلك من كل زوجين أثنين « ومن كل حي من كل ذي جسد أثنين من كل، تدخل إلى الفلك

لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى ـــ تكوين ٦ : ١٩ »، بينما نجد رواية أخرى ترتفع بهذا الرقم فتقول « من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ـ تكوين ٧: ٢ »، ثم في موضع نجد نوحاً يستكشف أحوال الطوفان « وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض ـ تكوين ٨ :٧ »، بينما المستمر في القراءة يجد المياه لم تنشف بعد، فيرسل الحمامة، ثم بعد فترة « في الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض ـــ تكوين ٨ :١٤ »، والقصة النوحية مليئة بمثل تلك التناقضات التي لا تغيب على فراسة قارئ مهتم، وهي ذات التناقضات التي تغص بها بقية أسفار التوراة بلا استثناء، فهناك كمثال، تعليلات قدمتها التوراة لتفسير بعض التسميات، كتعليلها لتسمية مدينة (بئر سبع) بهذا الاسم، فالتسمية في رواية تقول أنها سميت كذلك نسبة إلى سبع نعاج قدمها النبي إبراهيم لأبيمالك ملك مدينة جرار الفلسطينية، كرمز لميثاق عدم اعتداء بينهما، وهو الوارد في (تكوين ٢١ : ٢٨ ـــ ٣١)، لكن في رواية أخرى نجد التسمية تعود إلى إسحق ابن إبراهيم الذي حفر له عبيده بئر ماء « فدعاها شعبه، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم ـ تكوين ٢٦ : ٣٣ »، وذات التناقض نجده في تعليل تسمية

مدينة (بيت إيل)، فهو فى رواية ينسب إلى يعقوب ابن اسحق عندما نام فأتاه الله فى المنام، فقام متيقناً أن هذا المكان مسكن الإله فسماه بيت الإله أو بيت إيل «ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل، ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز ـ تكوين ٢٨ : ١٩ »، وفى رواية أخرى تنسب التسمية إلى يعقوب أيضاً لكن فى قصة آخرى ومناسبة أخرى حيث حدثه الله «ودعا يعقوب اسم المكان الذى فيه تكلم الله معه بيت إيل ـ تكوين ٣٥ : ١٥»، هذا بينما نعلم من التوراة ذاتها أن المدينة كانت تحمل اسم بيت ايل قبل يعقوب وقبل أبيه اسحق وقبل جده إبراهيم حيث نعلم أن إبراهيم عندما هبط أرض فلسطين غريباً، «ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته، وله بيت إيل من المغرب وعاى من المشرق ـ تكوين ١٢ : ٨ ».

وفى قصة يوسف نجد يهوذا أحد الأسباط وهو هو صاحب اقتراح بيع يوسف للإسماعيلين بعشرين مثقالاً (تكوين ٣٧ : ٢٦ ـ ٢٨) بينما فى موضع آخر نجد رأوبين أخيهم يقترح إلقاءه فى الجب (تكوين ٣٧ : ٢١، ٢٢، ٢٤)، ثم تجد نفسك هنا فى متاهة : هل ألقوه أم باعوه، ومن الذى أنقذه أو أشتراه، تجار إسماعيليون أم مديانيون، التضارب هنا يصل قمته فلا تخرج بطائل.

وعليه فلا مناص من الاعتراف بأن التوراة، مجموعة جمة من التآليف التى اشترك فى وضعها مجموعة مؤلفين، اختلفوا، ولم يلتقوا أبداً لتصفية ما بينهم من خلافات، وأن هذه المجموعة من التآليف تعنى بمسائل دينية ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، أما الذى يجب الإشارة إليه وعدم إهماله فهو شهادة العهد القديم نفسه فى كثير من الإشارات الواضحة إلى أسفار يحيلنا إليها، فلا نجدها ضمن المقدس المجموع، مما يدلل بسفور على ضياع كثير من الكتب والأسفار ونموذجاً لذلك، وهنا سنحاول الحصر، وسنأتى بالنصوص التوراتية التى تحيلنا لمزيد من التفصيل فى أسفار أخرى، بينما هذه الأسفار غير موجودة على الأطلاق.

- لذلك يقال فى كتاب حروب الرب : واهب فى سوفة وأودية أرنون ـ العدد ٢١ : ١٤ (هنا سفر حروب الرب وهو غير موجود) .

- فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه، أليس هذا مكتوباً فى سفر ياشر، فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ـ يشوع ١٠ : ١٣.

(هنا سفر ياشر، وهو مفقود بذوره).

- فكلم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه في السفر ووضعه أمام الرب - صموئيل الأول ١٠ : ٢٥.

(وهنا سفر قوانين المملكة، وهو غير موجود).

- وأمور داود الملك الأولى والأخيرة، هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي، واخبار ناثان النبي، وأخبار جاد الرائي - اخبار أيام أول ٢٩ : ٢٩.

(وهنا ثلاثة أسفار هي أخبار صموئيل الرائي وناثان النبي وجاد الرائي، وهي بدورها لا يعلم شيئاً عنها).

- وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة، إما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي، وفي نبوءة أخيا الشيلوني، وفي رؤى يعدو الرائي - أخبار أيام ثاني ٩ : ٢٩.

(وهنا إشارة إلى سفرين آخرين مفقودين هما سفر أخيا الشيلوني، وسفر يعدو الرائي).

- وبقية أمور يهو شافاط الأولى والأخيرة، هاهي مكتوبة في أخبار ياهو بن حناني، المذكور في سفر ملوك إسرائيل - أخبار أيام ثاني ٢٠ : ٣٤.

(وهنا سفر آخر مفقود هو سفر أخبار ياهو بن حناني).

- وبقية أمور عزيا الأولى كتبها أشعيا بن أموص النبي — أخبار أيام ثاني ٢٦ : ٢٣.

(والإشارة هنا إلى سفر غير سفر إشعيا المعروف، فالسفر المفقود هنا لإشعيا النبي، وقد دونه عن الملك الإسرائيلي عزيا).

- وبقية أمور حزقيا ومراحمه، هاهي مكتوبة في رؤيا إشعيا بن آموص النبي - أخبار أيام ثاني ٣٢ : ٣٢.

(وكذلك فإن أخبار الملك الإسرائيلي حزقيا بدورها ليست مدونة في سفر إشعيا المعروف، وعليه فهناك سفر دونه إشعيا عن أخبار هذا الملك فقد بدوره، وربما كان هو ذات السفر المفقود الذى أشرنا إليه في الفقرة السابقة مباشرة).

- ورثى إرميا يوشيا، وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا في مراثيهم إلى اليوم، وجعلوها فريضة إسرائيل — أخبار أيام ثاني ٣٥ : ٢٥.

(وهنا إشارة لمراثي كتبها النبي إرميا على الملك الاسرائيلي يوشيا، الذى قتل على يد الفرعون المصرى نخاو، وأن تلك المراثي كانت ترتل كطقس فرضي على بني إسرائيل في صلواتهم، أو في تاريخ المناسبة السنوى، وهي غير موجودة في إرميا أو مراثية

الموجودة بالعهد القديم الموجود بين أيدينا، مما يشير إلى كونها شكلت سفراً بذاتها فقد بدوره).

- وكان بنو لاوى رؤوس الآباء مكتوبين فى سفر أخبار الأيام إلى أيام يوحانان بن الياشيب نحميا ١٢ : ٢٣.

(وبالبحث فى السفر الموجود بالعهد القديم والمعروف بأخبار الأيام الأول، والسفر المعروف بأخبار الأيام الثانى، لم نجد تلك الإشارات حتى يوحانان بن الياشيب، مما يقطع بوجود سفر أخبار أيام ثالث هو المقصود بتلك الإشارة، وهو غير موجود بالعهد القديم، مما يشير إلى ضياعه بدوره).

وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن هناك ستة عشر أو سبعة عشر كتاباً قد ضاعت فى العقد القديم، وربما يصل الرقم إلى عشرين إذا أخذنا بإشارات إلى ثلاثة كتب مفقودة تنسب إلى الملك سليمان، هذا عدا ما ضاع ولم تشر إليه أسفار العهد القديم، ولم نعلم بأمره، وكان ضياع تلك الأسفار وغيرها أمراً محتوماً، اقتضته ظروف المنطقة والحروب التى خاضها الإسرائيليون، والتى تعرض أثناءها هيكلهم للتدمير والتلف أكثر من مرة، هذا إضافة للمدة الطويلة التى تطلبها تدوين ذلك المقدس الهائل، والتى امتدت حوالى ألف عام، وكان هذا بحد ذاته مدعاة لنقص شديد تعرض له ذلك الكتاب، والذى

يلقي بظله على أي بحث ديني أو تاريخي فيه، ناهيك عن خضوع الأسفار لمؤثرات مختلفة وعديدة باختلاف الأزمان والأحداث التي عملت فيها حذفاً أو زيادة، حتى أنك تجد اليوم نزاعاً داخل المؤسسات اللاهوتية ذاتها، حول مدى أصالة سفري الجامعة ونشيد الإنشاد، وهل هما مقدسين يهوديين، أم دخيلين من ديانات أخرى.

انتهى التطور الأخير لأعمال مدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية حول الكتاب المقدس (١٨٤٤ ـ ١٩١٨)، إلى الكشف عن وثائق أربعة مختلفة يتكون منها المقدس اليهودى التوراتى (العهد القديم)، هى على الترتيب:

١ ـ مصدر يهوى : Jahwist ويرمز له اختصارا بالرمز (J) وقد أخذت التسمية من أسم الإله يهوه Jahouva . لأنه الاسم الإلهي الغالب على الاستعمال فى هذا المصدر، ويرجع تأليفه إلى حوالى عام ٨٥٠ ق.م فى مملكة يهوذا، أى المملكة الجنوبية، وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذى أعطاه الله للبطاركة من إبراهيم إلى موسى، وإن كان يحق لنا أن نرى ذلك التركيز فى هذا المصدر، محاولة لإضفاء الشرعية التاريخية والدينية، على الإئتلاف الذى أنشأه داود، بوضعه هو وأسلافه فى خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الله، يمتد شرعاً إلى العهد مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً، وهى الوحدة التى لم تتحقق إلا بعد خروج قبائل راحيل الإسرائيلية من مصر، بقصد وضع أساس قومى تاريخى متين

للدولة التي وحدت القبائل، حتى يصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية عبر الأنساب إلى زمن الخلق الأول.

٢ ـ مصدر إلوهيمي : Elohist ويرمز له اختصاراً بالرمز (E) نسبة إلى الاسم الإلهي الغالب في ذلك المصدر وهو (إيل El) أي الإله، وإلوهيم أي الآلهة، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي ٧٧٠ق.م، ويرجح أنه قد تم تأليفه في المملكة الشمالية إسرائيل، ثم تم بعد ذلك إدماج المصدرين اليهوى (J) والإلوهي (E) في مجموعة واحدة يرمز إليها بالرمز (EJ) وذلك حوالي عام ٦٥٠ق.م وقد عني هذا المصدر، باستكمال النقص الذي حدث في المصدرين اليهوى والكهنوتي.

٣ ـ سفر التثنية (Deuteronomy) ويرمز له اختصاراً بالرمز (D) ويعني بالإغريقية (القانون الثاني)، ويعد مصدراً منفصلاً، تم تأليفه خلال القرن السابع قبل الميلاد، وتزعم الرواية التوراتية أنه كان مخفياً في مكان أو فجوة بجدران المعبد، وتم الكشف عنها عام ٦٢٢ ق.م أثناء حكم الملك اليهودي (يوشيا) Josias عند ترميم معبد أورشليم (ملوك ثاني ٢٢ : ٣ ـ ١٠) و (٢٢ : ٣ ـ ٢٥)، حيث عثر المرممون في وجود كبير الكهنة (حلقيا) على كتاب الشريعة وأحضروه

للملك، فترك فيه أثراً عظيماً، حتى قام بموجبه بحرم كل الطقوس المتخلفة عن الوثنية، وقصر العبادة على معبد يهوه في أورشليم وحده، لكن الملاحظ هو تعرض ذلك المصدر لكثير من الحشوو الإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة الصحراوية البدوية، وواضح أن كاتبها ينتمي لثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك، ويعني هذا السفر بالإضافة للشريعة، بوضع تشاريع الحرب وما جاء من أوامر إلهية بشأنها.

٤ ـ المصدر الكهنوتي : Priestly ويرمز له اختصاراً بالحرف (P) وهو تجميع كهنوتي يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعود للتركيز على العهد مع نوح وإبراهيم وموسى وداود، ويقوم جوهره على وجوب إخلاص اليهود للعهد حتى يستحقوا الخلاص والوفاء بالعهد، وذلك عن طريق التزامهم شريعتهم بدقة، وشريطة أن يتمسكوا بلحظتين تاريخيتين جوهريتين: لحظة العهد القديم مع الله الذى أخذوا فيه الأرض مقابل الختان، أما اللحظة الأهم والأخطر فهي لحظة الإنقاذ بكبرى المعجزات (فلق البحر) عند الخروج من مصر، لذلك يكاد العزف على معجزة البحر عند اليهود، يشكل ترنيمة دائمة، وركناً أساسياً في الاعتقاد، ويرجع

زمن ذلك المصدر إلى عهد (عزرا)، وقد تم إدماج هذا المصدر مع المصدر اليهوى والمصدر الألوهيمى حوالى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وانتهت المدرسة الألمانية، إلى أنه قد تم تجميع المصادر الأربعة فى كتاب واحد، هو العهد القديم، حوالى عام ٢٠٠ق.م، أما الأسفار المتأخرة مثل سفر المكابيين الأول والثانى (فى النسخة السبعينية اليونانية)، فقد تم تحريرها خلال القرن الأول قبل الميلاد، إلا أن مدرسة (فلهاوزن) قامت بعمل جرئ حقاً عندما عكست الترتيب اللاهوتى التقليدى القديم لتأليف الأسفار، بناء على ما أصبح بيدها من نتائج، وبحيث أصبح الترتيب يعاد على النحو التالى: أسفار الأنبياء، فالأسفار التاريخية، ثم أسفار موسى الخمسة مضافاً إليها سفر يشوع لتتشكل التوراة من ستة أسفار بدلاً من خمسة، ثم أضيفت إليها الأسفار بترتيب منهجى حسب مادتها، وليس حسب الترتيب الزمنى لتأليفها.

أما عن الطرق والوسائل والأدوات التى استخدمها مؤلفو التوراة ومحرروها فى التدوين، فهى ما يمكن استخراجه من الكتاب المقدس ذاته، فنجد سفر إرميا (٣٦:٢) يحدثنا عن تدوين الأدراج، بمعنى اللفائف، وتكتب من اليمين إلى اليسار، وقد أكدت ذلك

الأسلوب فى الكتابة أسفار عدة، مثل سفر حزقيال (٢ :٩، ٣ : ١) وسفر زكريا (٥ :١، ٢) وسفر المزامير (٤٠ ـــ ٨)، أما الأدلة التى استخدمت فى الكتابة على اللفائف، فكانت أحياناً قلم الأردواز كما يذكر المزمور (٤٥: ٢)، أو باستخدام الأحبار كما فى سفر إرميا (٣٦ : ١٨).

ويبدو أن تلك الأدراج قد بدأت بأوراق البردى المصرية، ثم تطورت إلى الكتابة على الرق (الجلود)، وظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف حتى جاء القرن الثالث قبل الميلاد حيث بدأت تأخذ شكل الكتب، مع الاستمرار فى العمل بنظام اللفائف، وهو نظام لازال معمولاً به حتى اليوم فى الأشكال الطقسية التى تمارس فى المعابد من باب تحنيط التاريخ، ونجد ذلك مستعملاً خاصة فى أسفار التوراة وسفر إستير بشكل محدد.

إلا أن أول أسلوب اتبعه الاسرائيليون فى التدوين، وإن كان غير موجود منه الآن أى أثر يشير إليه، أو لم يعثر على شئ منه حتى تاريخه، فهو أسلوب النقش المصرى القديم على المسلات، وكان أول من اتبعه النبى موسى، واستخدمه فى كتابة ألواح الشريعة الحجرية، والمزعوم أنها نقرت على الحجر أو نقشت بيد الإله نفسه،

ووردت قصتها في عدد من الإصحاحات المتفرقة في سفر الخروج، التي جمعناها ورتبناها حسب ترتيب ورودها كالتالي:

- وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحي حجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم.. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة - خروج ٢٤ :١٢، ١٣، ١٨.

- ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء، لوحي شريعة مكتوبين بإصبع الله - خروج ٣١ : ١٨.

- فانصرف موسى ونزل من الجبل، ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيها، من هنا وهناك كانا مكتوبين، واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله، منقوشة على اللوحين.. وكان عند اقترابه من المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل - خروج ٣٢ : ١٥، ١٦، ١٩.

- ثم قال الرب لموسى: انحت لك لوحين حجر مثل الأولين، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين، اللذين كسرتهما.. فنحت لوحين من حجر كالأولين،

وبكر موسى فى الصباح، وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ من يديه لوحى الحجر ـ خروج ٣٤ : ١،٤.

(وقد جاء فى الأثر الإسلامى : إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، **وكتب التوراة بيده** [١]، كما جاء فى الأيات الكريمة : وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة ـ ١٤٤ ـ الأعراف).

هذا إضافة إلى أسفار الشريعة، التى أمر موسى أتباعه بكتابتها، وبذات الطريقة، وهو ما يتضح فى قوله لهم : «يوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك حجارة كبيرة، تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس.. حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة، التى أنا أوصيكم بها اليوم، فى جبل عيبال، وتكلسها بالكلس.. وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس، نقشاً جيداً ـ تثنيه ٢٧ : ٢،٤،٨ ».

أما اللغة التى دونت بها الأسفار، فهى كما جاء على غلاف العهد القديم من الكتاب المقدس: العبرانية والكلدانية، والعبرانية كما

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١، ج١،ص٢١١ (المذكور نص حديث شريف).

يقرر المقدس التوراتـي هـي لغـة أو لسـان أو شـفة كنعـان الفلسـطينية (إشعيا ١٩ : ١٨)، وإن كان من المفيد العلم أن بعض الأجزاء قد كتبت باللغة الأرامية، وأجزاء أخرى كتبت بالخط المربع (الآشـورى) بعد السبي البابلي، وقد استخدم تلك اللغة (عزرا) صاحب معظم أجزاء العهد القديم.

أما المنطق التاريخي، فيفترض أن بدء الكتابة، بل وربمـا اللغة، التي استخدمها الخارجون من مصـر بقيادة موسى، هـي اللغـة المصرية، خاصـة إذا كانت الأدوات والأسلوب مصريين، وهو ما يجعل المدونات العبرية أمراً متأخراً حدث بعد موسى بزمان، وهو ما سبق وأثبتناه فـي الصفحات السابقة، كما يستحسن الفرض أن الاسرائيليين ــ وقد قضوا في مصر ما يزيد على أربعة قرون حسب تقدير الكتاب المقدس ــ قد تكلموا اللغة المصرية القديمة، شـأنهم شـأن بقية الأقوام التي دخلت مصر، هذا ناهيك عن موسى فـي مصـر، ونشأته نشأة مصرية، وشهادة المقدس له بأنه تثقف ثقافة مصرية وأنه كان متفقهاً بكل حكمة المصريين.

بل وربما ذهب الأفتراض حد القول أن لغة التخاطب بين موسى وربه في سيناء، كانت اللغة المصرية القديمة وليست العبريـة، التي لم يكن موسى يعرفها أصلاً، حيث ولد في مصر وعاش فيها ثم

خرج منها حتى مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان التي عرفت فيما بعد بالعبرية[1]، هذا ناهيك عن كون لفظة توراة ذاتها من الألفاظ المصرية، ومعنى توراTorah في العبرية (الشريعة) من Tororh (توروش)[2]، وهي ترتبط ـ في رأينا ـ بعبادة الثور المقدس في المصرية القديمة[3].

أما ترجمة ذلك الأثر الهائل عن لغته الأصلية، فمعلوم أن الترجمة العربية المتداولة الآن، قد تمت عام ١٨٦٥م، أما الترجمة الأنجليزية فقد تمت في عهد الملك جيمس عام ١٦١١م، وكلا الترجمتين تمت عن الأصل العبري المعروف بالنص المازوري، الذي سبق تدوينة في القرن العاشر الميلادي، أي بعد ثلاثة قرون من تدوين القرآن الكريم.

ومن المفيد العلم أن النص المازوري قبل القرن العاشر كان غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق أو فيما بين

---

(١) ذهب هذا المذهب الدكتور فؤاد حسنين علي، ولكنه لم يقدم عليه أية دلائل، حتى أنه سمى كتابه (التوراة الهيروغليفية)، والتي كانت عرضاً للعهد القديم كما تعرفه، ولاعلاقة له بأية هيروغليفية.

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج٦، ص١١١.

(٣) انظر كتابنا : قصة الخلق أو منابع سفر التكوين.

الحروف الساكنة، وعند تدوين النص المازورى (المفترض أنه كان نصاً قديماً) تم اقتباس حركات النظام البابلى للحركات.

وهناك نص آخر باللغة اليونانيـة القديمـة، يعرف بالنص السبعيني Version de Septante وقد تـم كتابتـه حوالي سنة ٢٨٣ قبل الميلاد، علي يد اثنين وسبعين فقيهاً يهودياً مصرياً، بأمر ملك مصر آنذاك (بطليموس فلادفيوس)، وتزيد هذه النسخة عن النص المازورى أربعة عشر سفراً، وهى بالطبع غير موجودة بالنسخة العربية لأنها ترجمت عن النص المازورى، كما أنها غير الأسفار المفقودة التى أشرنا إليها آنفاً، وتلك الاسفار هى :

- سفر طوبيا Tobie وهو وصف لسيرة أسير إسرائيلي، فى الأسر الآشورى بمدينة نينوى، فى القرن السابع قبل الميلاد.

- سفر الحكمة لسليمان Salomon ويشمل أمثلة حكيمة عظات ضد الوثنية.

- أسفار الماكبيين Maccabees وعددها أربعة أسفار، تتحدث عن المكابيين الذين حكموا فلسطين حكماً وطنياً فى عهد الرومان، فى القرن الثانى قبل الميلاد وجاء اسمهم فى الشعار الذى كانو يتنادون به فى الحروب وهو (مى كاموخا بجبيم يهوفا)، أى (من مثلك بين الأمم يا يهوه). فاخذ من كل كلمة حرف (م كا ب ي) شكلت الإسم (مكابي).

- سفر يهوديت Judith وهو قصة أرملة يهودية غنية وتقية، ساعدت اليهود في الانتصار على الجيش الأشورى.

- سفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، وهو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان.

- سفر تسبيحة الفتية الثلاثة وهي تسابيح يقال أن أصدقاء دانيال الثلاثة رنموها وهم في أتون النار (وردت قصة الإلقاء في النار بالقرآن الكريم لكن حول الأب إبراهيم، والتوراة لم تذكر ذلك في قصة ذلك البطرك).

- سفر سوزان Suzane أو قصة سوسنة العفيفة، وهو تمجيد من النبي دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

- سفر بعل والتنين، وهو قصة تم إلحاقها بسفر دانيال تشرح كيف تم إقناع قورش ملك فارس بنبذ عبادة الأصنام.

هذا إضافة إلى ثلاثة أسفار منسوبة إلى عزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصل المازورى فى أسفار (إستير) و(دانيال)، والمعلوم أن الكنيسة لم تتخل عن النص اليونانى السبعينى إلى النص العبرى المازورى، إلا بعد القرن العاشر الميلادى، حيث أصبح النص المازورى هو النسخة المعتمدة للعهد القديم، ورغم ذلك مازالت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والكنيسة الروسية، وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعينى اليونانى.

الخرافة فى العهد القديم

سبق وأشرنا فى بحوثنا المنشورة إلى المصداقية التاريخية فى النص التوراتي، والمصداقية هنا لا تعنى أمراً لاهوتياً أو علاقة ما بالغيبيات، قدر ما تعنى مدى مطابقة النص لوقائع وأحداث أثبتتها نصوص تاريخية أركيولوجية، أي مصداقية موضوعية بحتة، وتلك الإشارة واجبة تماماً وهامة، لكن مع الحذر فى احتساب نص بعينه صادقاً لمجرد مطابقة بعض أحداثه مع أحداث تاريخية واقعية، بل يجب القول أنه قد دخله حشو وإضافات ومتراكمات وزيادات خرجت به عن معنى المصداقية الحقة، وأن هناك فقط ظل من حقيقة، بل وظل باهت، ونموذجاً لذلك، أسماء المدن والمواضع وأخبار المعارك والحروب، وسير الأنبياء والملوك، لأنه من المستحيل علمياً أن نتغاضى عن آلاف أسماء للمواضع الجغرافية التى وردت بالعهد القديم، لمجرد أنها وضعت فى سياق من الخرافة الواضحة، خاصة إذا علمنا أن هناك - كمثال - مواضع عديدة وكثيفة مرت بها رحلة الخروج من مصر إلى فلسطين، ومن العبث أن تكون كل تلك سماء لهذه المواضع قد ذكرت عبثاً، أما الأهم حقاً، فهو ما جاء فى روايات تثبت معرفة مدهشة لدى الكاتب التوارتى بشؤون تاريخية قديمة كانت مخفية عنا، ولم نعلم بأمرها إلا بعد كشف المناطق الأثارية القديمة فى

حضارات المنطقة، وفك رموز لغات تلك الحضارات، كمعرفة العهد القديم العجيبة، لأسماء مدن مصرية، أهال عليها الزمان النسيان، بعد أن أهالت عليها الرياح تلول الرمال، ولم نكشف عنها ونعرفها إلا حديثاً، كذلك اسماء بعض الفراعنة مثل (شيشنق) و(نخاو)، أو مثل اسم زوجة النبى يوسف المصرية (إسنات بنت فوطي ـ فا ـ رع، كاهن مدينة أون)، وهو ما جاء ذكره فى سفر التكوين (٤١ : ٤٥)، ولم نعلم إلا حديثاً باسم (رع) إله الشمس المصرى، كما لم نعرف ما هى (أون) إلا بعد فك الطلاسم القديمة التى كشفت أن مدينة عين شمس الحالية كانت حاضرة مصرية عظيمة باسم (أون)، أو ما جاء عن مدينة (رعمسيس) فى سفر التكوين (٤٧ : ١١)، وهى المدينة التي لم نعثر عليها حتى الآن بشكل قاطع، لكننا وجدنا بشأنها برديات تتحدث عنها وتصف معالمها بكل دقة، إضافة لنشيد مديح مدينة (رعمسيس) المنسوب للشاعر (بنتأور)، ناهيك بالطبع عن الاسم (رعمسيس) ذاته كدلالة تامة الصدق والمطابقة لاسم الفرعون (رعمسيس) بنطقه المصرى القديم، قبل تحريفه إلى (رمسيس) بإهمال حرف الـ (ع).

أضف إلى ذلك حديث التوراة عن مركبات فرعون (تك ٤١ : ٤٣ مثلاً)، أو معرفة التوراة أن المصريين كانوا يعتبرون الرعاة رمزاً للشر وأنجاساً ملاعين، كما فى سفر التكوين (٤٦ : ٣٤)

و (٤٣ : ٣٢) وهو أمر كشفت عنه علوم المصريات الحديثة، إضافة إلى معرفة التوراة الدقيقة بالأسلوب المصرى فى التعامل مع الموتى وطقوس التحنيط والدفن، وهو ماذكرته التوراة عن دفن يعقوب فى مصر، وأنه تم تحنيطه خلال أربعين يوماً، ثم البكاء والندب عليه سبعين يوماً (سفر التكوين ٥٠ : ١ ـ ٣)، وهو طقس لم نك أبداً على علم به قبل فك أسرار المصريات القديمة.

وكثير مما يتعلق بشؤون مصر القديمة أثبتت التوراة معرفة دقيقة به، مثل قصة سفط البردى (خروج ٢ : ٣)، وأسلوب البناء بالطوب اللبن، الذى يؤخذ من طمى النيل ثم يخلط بالتبن ويجفف، وذكره سفر الخروج (٥ : ٦ ـ ١٧)، كذلك معرفة الكتابة بالحفر على المسلات كما جاء فى سفر الخروج (٢٤ : ١٢ ـ ١٣) و(٣١ : ١٨)، أو معرفتهم بصفات التابوت المقدس بدقة مدهشة تكاد تطابق التوابيت المصرية الملكية، وهو ماجاء ذكره فى سفر الخروج (٣٥ : ١٠) مع إفراد إصحاحات كاملة بذات السفر لمواصفات ذلك التابوت، أو عبادة عجل أبيس فى سيناء (خروج ٣٢ : ١ ـ ١٩)، أو مركبات الشمس التى ورد ذكرها فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١) وهى من أحدث الكشوف الحالية فى المصريات القديمة.

لكن ذلك كله أمر، والتعامل مع النص بكامله كنص صادق تاريخياً أمر آخر، لأن التناقضات التي ينطوي عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لا يقل حجماً عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها في مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التي ترويها، كوقائع حدثت في القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففي التوراة مبالغات لا يمكن قبولها إطلاقاً، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق.

وسنحاول هنا ضرب بعض الأمثلة التي تدخل روايات التوراة في عداد الخرفات البسيطة، والمركبة، فسفر القضاة مثلاً يحدثنا كيف قتل (شمشون) ألف فلسطيني بفك حمار (سفر القضاة ١٥ : ١٦)، وهنالك روايات تحتوي على أرقام خيالية إلى حد بعيد، كما في تقرير سفر الملوك الأول (فضرب بنو اسرائيل من الأراميين مائة ألف رجل في يوم واحد ٢٠ : ٢٩)، والحديث هنا في حرب دارت بين (أخاب) ملك اسرائيل، وبين (بنحدد) ملك دمشق، حوالي عام ٨٦٠ ق.م، ومثل ذلك الحديث ليس فقط عسير التصديق، بل هو كذب فاضح، لأن مملكة دمشق بكاملها ولم تكن تحتوي على مائة ألف رجل يمكن قتلهم في يوم واحد بل وربما لم يبلغ سكانها جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً هذا الرقم العظيم.

وفى تلك الخرافات ما يعد لوناً من الأساطير المشروعة إ ولازالت موضع تصديق وإيمان فى اليهودية والمسيحية، بل الإسلام مع بعض التعديل، مثل قصة وجود آدم فى الجنة وأكله الثمرة المحرمة، وحديث حواء مع الحية التى تتكلم:[1]

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله، فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجرة الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله : لا تأكلا منه وتمساه، لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر

تكوين ٣ : ١ ــ ٥.

ومن قبيل تلك المصدقات الإيمانية، المبالغة الهائلة فى أعـ الرعيل الأول من البشرية :

---

(١) للمزيد أنظر كتابنا : الأسطورة والتراث ، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ فكــانت كــل أيــام آدم التــى عاشــها تســـع مئــة وثلاثين سنة

تكوين ٥:٥.

ـ فكانت كل أيام شيث تسع مئة سنة واثنى عشر سنة ومات

تكوين ٥ : ٨.

ـ فكــانت كــل أيــام آنــوش تســع مئــة وخمســين سنة ومات

تكوين ٥ : ١١.

ـ فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات

تكوين ٥ : ١٤

فكانت أيام مهلائيل ثماني مئة وخمسماة وتسعين سنة ومات.

تكوين ٥ : ١٧.

فكــانت كــل أيام يــارد تســع مئــة وأثنتيــن وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٠.

ـ فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٣.

ـ فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعاً وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٧.

ـ فكانت كل أيام لامك سبعة مئة وسبعاً وسبعين سنة ومات

تكوين ٥ : ٣١.

ـ فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات

تكوين ٩ : ٢٩.

ثم هناك أحاديث أخرى عن إنجاب الله لأبناء تزوجوا من آدميات فأنجبوا جيلاً من الجبابرة، وهو ما جاء نصاً :

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد

لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسان، فاتخذو لأنفسهم نساء من كل ما أختاروا، فقال الرب لا يدين روحي في الانسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، وكان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك إذا دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء الجبابرة الذين منذ أبد الدهر ذوو اسم تكوين ٦ : ١ ـ ٤.[١] .

ومن باب تمجيد الآباء الأولين للقبيلة الإسرائيلية، نجد قصة تقول إن عدداً من الملوك العظام (إمرافل ملك شنعار، وإريوك ملك الأسار، وكدر لعومر ملك عيلام، وتدعال ملك جوييم) قد تحالفوا في حرب ضد مجموعة ملوك لدويلات أخرى في المنطقة هم (بارع ملك سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وشنئاب ملك أدمة، وشمئيبر ملك صبوييم، وملك بالع التي هي صوغر)، وتمت هزيمة الحلف الثاني، وكان بين أسرى المهزومين (لوط) ابن أخي (إبراهيم) وهنا تقول القصة ببساطة أن النبي إبراهيم أخذ ثلاثمائة رجل من أتباعه وهزم حلف الدول الكبرى أو كما جاء في النص:

---

(١) وضعنا تفسيراً بقراءة علمية لتلك الاسطورة مرتبطة بظرفها الموضوعي في كتابنا : النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.

فلما سمع إبرام أن أخاه سبي، جر غلمانـه المتمرنين ولدان بيته، ثلث مئة وثمانية عشر، وتبعهم إلـى دان، وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم، وتبعهم إلـى حوبه التي عن شمال دمشق، واسترجع كل الأمـلاك، واسـترجع لوطـاً أخـاه أيضـاً، وأملاكـه، والنسـاء أيضاً، والشعب

تكوين ١٤ : ١٣ ـ ١٦.

هذا ناهيك عن ظهور الإله (بهيئة تشبه ما تحدثنا به الأساطير عن الجن) للبطاركة الأوائل، وحديثه معهم، وصراعه مع يعقوب، أو مثلما جاء في قصـة لقائه بموسى وأتباعه وهو في هيئة أقرب إلى التماثيل:

ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو، وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه **شبه صنعة من العقيق** الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا وشربوا ـ خروج ٢٤ : ٩ ـ ١١. (والمعلوم أن العقيق الأزرق هو فيروز سيناء الذي صنع منه المصريون تماثيل آلهتهم).

وغير ذلك كثير وكثيف، نشير إليه فى عجالة، مثل : العصا الحية (خروج ٤ : ١ ــ ٥)، وضرب يهوه للمصريين بضربات أسطورية (خروج ٧)، أو فلق البحر (خروج ١٤)، وانشقاق نهر الأردن (يشوع ٣ : ١٦، ١٧)، وسقوط مدينة أريحا بمجرد أن صرخ عليها الإسرائيليون مع طبول وزمور وأبواق (يشوع ٦)، وإيقاف يشوع للشمس والقمر حتى ينتهى من القضاء على أعدائه (يشوع ١٠ : ١٢ ــ ٤)، وعكاز الملاك الذى يحرق اللحم (قضاء ٦ :٢١)، وتحضير الأرواح (صموئيل ٢٨ : ١١ ــ ٢٠)، ومعجزات شمشون فى سفر القضاة (١٤ : ٤)، (١٤ : ٥)، (١٥ : ١٥)، (١٦ : ٣٠)، وإحياء النبى ايليا للطفل الميت (ملوك أول ١٧ : ٢١، ٢٢)، والامر الذى أصدره إيليا بهبوط نار من السماء تأكل جنود الأعداء (ملوك ثانى ١ : ١٠ ــ ١٢)، ثم صعوده إلى السماء (ملوك ثانى ٢ : ١،١١)، وقيام رداء إيليا بعد ذلك بدور عصا موسى فى فلق الماء (ملوك ثانى ٢ : ٨،١٤)، أو حروب الله مع التنين لوايثان (اشعيا ٢٧ : ١).

وعليه ، فإن النص التوراتى من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية، لكنه كأى وثيقة أسطورية أخرى، وحسب منهجنا الذى اتبعناه في أعمالنا، يمكن أن يقدم لنا ــ إذا تعاملنا معه علمياً ــ مادة تاريخية نادرة لم تسعفنا بها الكشوف الأركيلولوجية، وأن يضيئ

لنا مساحات مظلمة من التاريخ لم يكشف عنها البحث الآثارى بعد، ولكن وفق أصول وقواعد ومنهج صارم، وهو ما سبق وأن قدمنا له نماذج فى أعمالنا المنشورة، لكن فى نفس الوقت، يمكن لباحث مغرض أن يقرأة قراءة أخرى، بأغراض بعينها، وفق أيديولوجيا خاصة ، فينطق بأمور أبعد ما تكون عن الصدق والموضوعية والعلمية، وهو ما سنجد له نموذجاً مثالياً فى الباب الثالث من هذا الكتاب.

الانبياء فى العهد القديم

من الجدير بالذكر هنا، منعاً للالتباس، أن الآباء الأوائل أو البطاركة، من إبراهيم إلى موسى فى التوراة، لا يحتسبون أنبياء بالمعنى المفهوم والسائد وفق الطروحات الإسلامية، وتبدأ النبوات فقط في العهد القديم بموسى، أما عن إبراهيم وإسحق ويعقوب.. إلخ، فهم مجرد أسلاف يجب الاعتزاز بهم وبسيرتهم، رغم علاقتهم بالإله، ورغم أنهم أصحاب الوعد، فهم ليسوا أنبياء المعنى المفهوم، لأن النبوة فى الفهم التوراتى هى التنبؤ، والقدرة على قراءة المغيبات، هذا بالطبع مع أمور أخرى تفصيلية تضع هؤلاء البطاركة الأوائل على المستوى الأخلاقي، في صف الأفراد العاديين، الذين يمكن أن يرتكبوا أموراً يمجها الذوق المبنى على الفهم الإسلامى لمعنى النبوة، فالنبى إبراهيم مثلاً يتاجر بشرف زوجته سارة فى مصر، وفى جرار الفلسطينية، للحصول على الأموال، ويتم سرد ذلك دون أى تحرج (تكوين ١٢ : ١١ ــ ٢٠) و (تكوين ٢٠ : ١ ــ ٧،١٤)[١]، وهو الأمر الذي يكرره بعد ذلك ابنه اسحق فى جرار كما ورد فى سفر التكوين (٢٦ : ٧ ـ ١٠).

---

(١) فصلنا الحديث في هذا الأمر في كتابنا النبى إبراهيم والتاريخ المجهول .

وفي قصة هلاك سدوم عمورة، ينجو لوط مع ابنتيه الوحيدتين، ويسكن في مدينة (صوغر)، لكنه لسبب غير مفهوم يتركها إلى الصحراء وتحكي الرواية بعد ذلك :

> وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر (؟!)، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد أضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فأدخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مواب، وهو أبو الموآبين إلى اليوم، والصغيرة ولدت أبناً ودعت اسمه بني عمي ، وهو أبو بني عمون إلى اليوم

تكوين ١٩ : ٣٠ ـ ٣٨.

وعليه فلن تصيبنا الدهشة إن وجدنا (يعقوب) ابن (اسحق) الأصغر يحتال على أبيه ليسرق ميراث أخيه الأكبر (عيسو) (تكوين ٢٧)، أو حين نجد (راحيل) زوجة (يعقوب) تغادر بيت أبيها مع زوجها فتسرق الأصنام من أبيها عشقاً فى عبادتها (تكوين ٣١ : ١٩)، كما لن ندهش إذا وجدنا الأسباط المكرمين يلقون بأخيهم الأصغر (يوسف) فى بئر للتخلص منه (تكوين ٣٧ : ١٨ ـ ٣٨)، ولا أن يتزوج (عمران) من عمته يوكابد (خروج ٦ : ٢٠)، ولا أن يوعز الرب لموسى بسرقة ذهب المصريات (خروج ٣ : ٢١،٢٢) و (خروج ١٢ : ٣٥،٣٦)، وربما لا نصعق إذا ما علمنا أن الرب قرر موت موسى وهارون لأنهما قاما بخيانته (التثنية ٣٢ : ٣٨ ـ ٥٠)، أو أن يتم أختيار (شاؤول) كأول ملك لاسرائيل، لالميزة فيه سوى طوله وجماله (صموئيل الأول ٩ :٢، ١٠ : ٢٣) أو اختيار (داود) لأنه كان أشقراً وحلو المنظر (صموئيل الأول ١٦: ١٢، ١٧ :٤٢)، ومن ثم فلا يجب أن ننزعج إذا أوعز لنا ذلك المقدس، بأمر علاقة شاذة تقوم بين (داود) وبين الصبى يوناثان بن شاول (صموئيل الثانى ١ : ٢٦)، أو أن يبدأ (داود) حياته مطبلاً للزار ومزمراً لإخراج العفاريت التى ركبت (شاول) كما فى (صموئيل أول ١٦ : ٢٣)، وربما يجب أن نقبل المبررات التى قدمها المقدس، والتى تم فيها تبخيس (نابال) وتصويره خسيساً، حتى يسوغ لداود أخذ أمراته

وهو ماجاء في سفر صموئيل الأول (٢٥) ولطرافته يمكن سرد نصه القائل:

واسم الرجل نابال، واسم امرأته أبيجايل، وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة وأما الرجل فكان قاسياً وردئ الأعمال.. وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات..وأرسل داود وتكلم مع أبيجايل ليتخذها له امرأة.. وصارت له امرأة.

ومثل تلك القصة نموذج آخر بطله (داود) أيضا، وهي بدورها قصة غرامية انتهت باستيلائه على زوجة أخلص ضباطه أوريا الحثي (وكان يعمل تحت قيادة يوآب) بعد أن ضاجعها في غياب زوجها للدفاع عن حدود الدولة، وهي كما وردت نصياً :

وكان في وقت المساء أن قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد : أليست هذه بتشبيع بنت أليعام، امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها،

وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فارسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إليَّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر ؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي لبيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضا وغداً اطلقك، فأقام أوريا في أورشليم في ذلك اليوم وغده.. وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب

الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضاً.. فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابناً

صموئيل الثاني ١١.

وأعمالاً لكل ذلك فلا يصح أن تأخذنا الدهشة عندما نجد سليمان يقتل أخاه الأكبر صاحب الحق في العرش (ملوك أول ٢ : ٢٥)، ولا عشق سليمان للنساء وعبادته لآلهة أخرى (ملوك أول ١١ : ١ ــ ٨)، ولا عندما نجد أمنون بن داود يعشق اخته ثامارا ويجامعها (صموئيل ثاني ١٣ : ١)، فهذه قصص أسلاف وملوك ومؤامرات قصور ودسائس، أما الأنبياء فلهم في العهد القديم شأن آخر.

والنبييم جمع كلمة (نابى) أو (نبى) العبرية، من (نبا) أى خرج وارتفع أو ظهر وخالف القطيع وأن كانت بقراءة التوراة العبرية تعنى

تماماً: الهاذى أو المخبول، وظهر منهم عدد كبير من بنى إسرائيل، بعضهم كان قاسياً يقرع اسماع الإسرائيليين بالقول الغليظ، إلا أن الواضح أيضاً فى كثرتهم، أنها أصبحت مهنة تدر على محترفها رزقاً طيباً، ومن هنا نلحظ فى الأسفار المتأخرة تحفظ المؤلفين وحيطتهم إزاء الأنبياء، كما جاء فى سفر حزقيال . فإذا ضل النبى وتكلم كلاماً، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبي، وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى اسرائيل ـ ١٤ : ٩ ».

وكثرة هؤلاء الأنبياء كانت لا تتناسب مع قلة عدد السكان فى البلاد، وهو ما يؤخذ من قول سفر ملوك أول : . فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعة مئة ٢٢ : ٦ »، لكنهم على أية حال كان بإمكانهم إشعال الحروب وخلع الملوك وتنصيب من يريدون، وهؤلاء عادة ما كانوا من رجال الدين غير النظاميين، أشبه بمن نعرفهم اليوم بالدراويش، ولم يخضعوا لهيكل من الهياكل، لكنهم كانوا يزعمون تلقى الوحى من الرب بلا واسطة، وأن روح الرب قد تملكتهم فنطقت بلسانهم، وعادة ما نجد بعضهم فى صف الشعب يدافعون عن قضاياه، ضد المؤسسة الدينية الرسمية وكهانها المسيسين، وقد ظهر سلطانهم ونما منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يأت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحوا من أهم عناصر الجماعة الإسرائيلية، وقام

بعضهم بعقد اتصالات مع الدول الخارجية، لتقويض سلطان الداخل المرفوض، ويقول (روبنسون) إنه كانت «تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميها نحس الوجد، تشبه أعراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع، ويزعمون أن كل مرجع ذلك إلى أن الشخص قد حل فيه إله.. والعجيب أنها كانت حالة مُعدية قد تنتقل من شخص إلى آخر، وقد نزع الأنبياء والواجدون إلى التجمع وتأليف الفرق، وتعلموا كيف يبتعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير »[1] .

ونموذجاً لذلك ما جاء في اختيار الكاهن صموئيل لشاول لمسحه بالزيت المقدس مسيحياً، كأول ملك لبني إسرائيل، فيصفه الإصحاح التاسع من سفر صموئيل الأول بالصفات «شاول، شاب، وحسن، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه، **من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب**» ، لكنه حتى يكون نبياً ملكاً، «أخذ صموئيل قنينية الدهن، وصب علي رأسه، وقبله، وقال : أليس لان الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً.. إنك ستصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر ــ صموئيل أول ــ ١٠ » .

---

(١) روبنسون (تيودور) : إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص١١٥،١١٦.

وهذا (داود) بعد تنصيبه ملكاً، يتمكن من استعادة تابوت بني إسرائيل المقدس من الفلسطينيين [1]، «فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة..و داود وكل بيت اسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو، بالعيدان والرباب والدفوف وبالجنوك وبالصنوج.. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب، وكان داود متمنطقاً بإفود من كتان، فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول (زوجة داود) من الكوة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته من قلبها.. فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم، حيث تكشف اليوم في أعين إماءه وعبيده، كما يتكشف أحد **السفهاء**، فقال داود لميكال: إنما أمام الرب الذى اختارني دون أبيك، ودون كل بيته، ليقيمني رئيساً على شعب الرب إسرائيل، **فلعبت أمام الرب** — صموئيل ثاني ـ ٦ » .

---

(١) التابوت في الأعتقاد عبارة عن صندوق بصفات معينة، تم صنعه في سيناء، بأمر النبي موسى، ليرقد فيه رب إسرائيل، ويحمله معهم لتصرهم على أعدائهم، ويكون دائماً في معيتهم قريباً منهم، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، عن استعادة داود له كدلالة لصحة ملكه بعد شاول، وذلك في قوله تعالى : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ـ ٢٤٨ ـ البقرة » .

ومن الأنبياء من لم يكن من بني إسرائيل، إنما من أهل المنطقة الذين يدعون إلى عبادة الإله البعل الزراعي، وقد ذاع صيت نبي موآب المدعو (بلعام بن بعور)، وجاء ذكره في العقد القديم كمناصر لبني إسرائيل ضد شعبه، مما يشير إلى أن المكافأة التي نالها من الأسرائيليين كانت أعظم. (جاء ذكره في التراث الإسلامي باسم بلعم بن باعوراء).

ومن الطرائف ان الأنبياء الاسرائيليين كانوا يكذبون بعضهم بعضاً، فهذا ملك المملكة الجنوبية (يهوذا) المعروف باسم (يهوشفاط) يذهب إلى ملك المملكة الشمالية (آخاب) يطلب معونته لشن الحرب على بلاد سورية (آرام)، «فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة رجل وقال لهم : أأذهب إلى رامة الجلعاد للقتال أم أمتنع؟ فقالوا اصعد فيها فيدفعها السيد ليد الملك - ملوك أول ٢٢ : ٦ »، وتحمس الأنبياء للقتال ومنهم صدقيا. «وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرني حديد وقال : هكذا قال الرب بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا - ملوك أول ٢٢ : ١١»، لكن الملك آخاب أرسل يستدعي نبياً لم يكن حاضراً هو (ميخا بن يمله) وسأله في هذه المشكلة وهل يذهب لمحاربة الأراميين أم لا؟ فأجابه ميخا «وقال : فاسمع إذن كلام الرب : قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن

يساره، فقال: هذا : هكذا، وقال ذاك: هكذا، ثم أخرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه، قال له الرب : بماذا؟ فقال : أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه، فقال : إنك تغويه وتقدر، فاخرج وافعل هكذا، والآن هو ذا قد **جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء**، والرب تكلم عليك بشر، فتقدم صدقيا بن كنعنة وضرب ميخا على الفك وقال: **من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟** ـ ملوك أول ٢٢ : ١٩ ـ ٢٤ ».

الآلهة فى العهد القديم

معلوم أن بنى إسرائيل انتقلوا بين مرحلتين، تمثت في إلهين، واحد باسم إيل، وأحياناً باسم إللوهيم أى الآلهـة، والا (يهوه)، لكن الأمر فى الحقيقة لم يكن مقصوراً على هذين الا فقد عبد بنو اسرائيل العجل المصرى أبيس فى سـيناء، بعد من مصـر بأسـابيع قليلـة، اثنـاء غيـاب موسى علـى الجبـل لإحضار لوحى الشريعة.

ولما رأى الشـعب أن موسى أبطـأ فى النزول مـ الجبل، اجتمع الشعب على هرون وقالوا لـه: قـ اصنـع لنـا آلهـة تسـير أمامنـا، لأن هـذا موسـ الرجـل الذى اصعدنـا مـن أرض مصـر لا نعلـ مـاذا أصابـه، فقـال لهـم هـرون انزعـوا أقـرا الذهـب التـى فـى آذان نسـائكم وبنيكـم وبنـاتـ وأتونـى بهـا .. فـأخذ ذلـك مـن أيديهـم وصـور بـالإزميل وصنعـه عجـلاً مسـبوكاً، فقـالوا : هـ **آلهتـك يـا إسـرائيل التـى أصعدتـك مـن أرض مصـ** خـروج ٣٢ : ١ ـــ ٤.

ثم أنهم بعد ذلك عبدوا الإله المدياني بعل فغور، كما في سفر العدد (٢٥ : ١ ـــ ٣) وبدخولهم أرض كنعان حيث عبادة البعول الزراعية، عبدوا بعل وعشتروت، كما في سفر القضاة (٢ : ١١ ـــ ٧)، والقضاء (٣ : ٥ ـــ ٨)، بل ومارسوا طقوس

الزنا الجماعي أمام هياكل تلك الآلهة، كما في القضاة (٨ : ٣٣) و (١٠ : ٦)، ثم تحول طقس الزنا إلى يهوه نفسه، فكانوا يمارسون النزو الجماعي في باب خيمة الاجتماع حيث تابوت الرب، وهو ما حدثنا عنه سفر صموئيل الأول (٢ : ٢٢)، بل أن سليمان الملك عبد بدوره عدداً من الآلهة . فذهب سليمان وراء عشتوت إلهة الصيدونيين، وملكولم رجس العمونيين .. وبنى سليمان مرتفعة لكموس رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون

ملوك أول ١١ : ١ ـــ ٨.

أما الملك (يربعام) فقد عاد إلى عبادة العجل، : «وعمل عجلي ذهب وقال لهم : هو ذا آلهتك يا اسرائيل الذى أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً في بيت إيل، وجعل الآخر فى دان - ملوك أول ١٢ : ٢٨ ، ٢٩ » .

كما بنى المرتفعات للزنى وراء الآلهة رحبعام بن سليمان، وهو ما جاء في سفر ملوك أول (١٤ : ٢٣)، كذلك إن الملك آخاب بن عمرى عبد البعل (ملوك أول ١٦ : ٣١ - ٣٣)، بل إن أحاز ملك يهوذا، أعاد طقس التضحية بالأبناء لنيران الآلهة، فقدم ابنه قرباناً لنيران الإله، كما جاء في سفر ملوك ثانى (١٦ : ٣،٤)، أما الحية التي صنعها لهم موسى وهم خارجون من مصرن وكان اسمها (نحشان) أى الحنش أى الثعبان فقد ظلت تعبد زمناً طويلاً حتى عهد متأخر (ملوك ١٨ : ٤)، وقد عبد الملك منسى بدوره البعول وبنبى لهم مرتفعات المضاجعة الجماعية، وهو مايؤخذ من (ملوك ثانى ٢١ : ٦٢) وكذلك لعبادة إله جبل توفة المعروف باسم مولك (ملوك ثانى ٢٣ : ١٠)، كما عادت قدسية مراكب الشمس المصرية وظلت قائمة إلى عهد متأخر كما فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١)، واستمر يهورام ملك أورشليم فى عمل مرتعفات الزنى فى أورشليم كما أخبرنا سفر أخبار الثانى (٢١ : ١١).

وفى الكتاب المقدس سفر كامل، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء العبادات الجنسية وطقوس الزنى الجماعي، تلك العبادات التى كانت متفشية في العبادات الزراعية بشكل وبائي، من باب حض أرض على الخصب والعطاء اعتماداً على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وكان الملك عادة ما يقوم داخل الهيكل مع الكاهنة الكبرى بإعطاء إشارة البدء فى ممارسة الطقس للجماهير المحتشدة فى الخارج، وذلك بقيامه بمجامعة الكاهنة، فتبدأ المعمعة الشبقية حول المعبد دون تمييز، وعادة ما كان يصاحب تلك الممارسة لوناً من الأناشيد الطقسية تسبق الممارسة، وهى أشكال شعرية جنسية تتم تلاوتها لتحفيز المقدرات الجنسية على العمل، وذلك السفر المقصود بالعهد القديم وهو المعروف بسفر نشيد الإنشاد الذى لسيمان، الذى لا يكّن ولا يحتشم، بل يقدم النشيد الطقسى دون أى تحرُّج، ويمكن اقتطاع نماذج من ذلك السفر فى شكل حوار يدور بين العشيقين الملكيين يقول:

العشيقة ـ ليقبلنى بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر.

لرائحة أدهانك الطيبة اسمك مهراق

لذلك أحبتك العذارى

إجذبنى ورائك فنجرى

أدخلني الملك إلى حجاله

نذكر حبك أكثر من الخمر

العشيقة ـ أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم

كخيام قيدار

كشقق سليمان

أخبرني يا من تحبه نفسي:

أين ترعى؟ أين تربض عند الظهيرة؟

العاشق ــ إن لم تعرفي أيتها الجميلة بين النساء فاخرجي على آثار الغنم

وارعي جداتك عند مساكن الرعاة

لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون

ما أجمل خديك بسموط

العشيقة ـ ما دام الملك في مجلسه أفاح نار ديني رائحته

صرة المر حبيبي لي

بين ثديي يبيت

العاشق - ها أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة

عيناك حمامتان

العشيقة - ها أنت جميل ياحبيبى وحلو

وسريرنا أخضر

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية

أدخلنى إلى بيت الخمر

وعلَمه فوقى محبة

أسندونى بأقراص الزبيب

أنعشونى بالتفاح، فإنى مريضة حباً

شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول

ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء

....

....

فى الليل على فراش طلبت من تحبه نفسى

طلبته فما وجدته

وجدنى الحرس الطائف فى المدينة

فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسى

فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمى

وحجرة من حبلت بى

العاشق ـ ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك

شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد

أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل

شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو

خدك كفلقة رمانة تحت نقابك

عنقك كبرج داود المبنى للأسلحة

ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن

شفتاك يا عروس تقطران شهداً

تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان

....

قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه؟

قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما؟

حبيبى مد يده من الكوة فأنَّت أحشائى عليه

قمت لأفتح لحبيبى

.... إلخ ....

الباب الثانى

التـــاريـــخ

تأسيس

عادة ما يلجأ الباحثون عند تناولهم شأناً من شؤون الجماعة البشرية، التي بدأنا بالاصطلاح على تسميتها في العنوان بـ (بني إسرائيل)، إلى استخدام أحد اصطلاحات ثلاثة، هي على الترتيب حسب شيوع الاستخدام : العبرانيين واليهود، الإسرائيليين.

ولتدقيق المصطلح ودلالته، نجد أن اصطلاح العبريين أو العبرانيين، يقصد به تمييز تلك الجماعة، بحيث يشير الاصطلاح إليها كشعب بعينه، وبحيث تبدو كما لو كانت تتسم بسمات جنسية محددة بتاريخ مترابط وواضح، ويرتبط بأرض ومواطن بعينها، له ظروفه البيئية والجغرافية التي تتناغم في النهاية مع السمات التي طبعت ذلك الشعب، اجتماعيا واقتصادياً وسياسياً وفكرياً، وهو قصد يذهب إلى وضع الجماعة الإسرائيلية في وضع يسمح بالإيحاء بدلالات، تتساوى مع الدلالات التي تفهم من استخدامنا مصطلحات مثل (المصريين، البابليين، الكنعانيين، الحيثيين .. الخ)

لكن؛ بينما نجد اصطلاحات إسمية مثل المصريين أو البابليين، لا مجال للخلط بشأنها، ويمكن للمؤرخ وللباحث استخدامها باطمئنان، حيث تشير إلى شعب بذاته، يسكن أرضاً بعينها، تفاعل مع بيئة خلال مسار تطوري، انتهى إلى وسمه بسمات صريحة المعالم، يبدو فيهاأثر

الجدل بين الإنسان وبين تاريخه وبيئته وطبيعة أرضه، وبحيث انتهى ذلك الجدل إلى نشوء كيان سياسى له سماته المميزة، مما يمكنّ الباحث من رسم صورة شبه متكاملة لتاريخ ذلك الشعب، من خلال وثائق، ومدونات، وآثار، وسجلات عينية، ومعتقدات، وأساطير، مع قراءة ذلك كله مرتبطاً بالظرف البيئى والتطور الاجتماعى، الذى يكسب الشعب فى النهاية نكهته الخاصة، وسماته المميزة، لكن استخدام مصطلح عبرى، للدلالة على الجماعة الإسرائيلية لا يؤدى بحال إلى أى من تلك المعانى، بحيث يسمح بكثير من الخلط والخبط وسوء الغرض إن بحسن نية أم بقصد، نظراً لاتساع المصطلح عن حجم المدلول، فلا يطابقه، وتتحول معه الجماعة الإسرائيلية إلى كتلة رجراجة داخل المصطلح دون ثبات، ويعود ذلك إلى عيوب أساسية فى تاريخ تلك الجماعة البشرية، يجد معها الباحث عسراً شديداً فى استخدام تعبير شعب، للدلالة على تلك الجماعة، دون السقوط فى خطأ علمى فادح.

. كما نجد عيوباً من لون آخر فى نسيج تلك المجموعة البشرية، وفى المراحل التى مرت بها وظروفها، إبّان تكونها التاريخى، لا تسمح بإعطاء المدلول الذى يمكن الاطمئنان إليه، كما فى حال التعامل مع مصطلح (مصريين) أو (بابليين) على المثال، ورغم أن الباحث قد يجد أوجهاً للقصور فى تاريخ أياً من تلك الشعوب، نتيجة

مبالغة هنا، أو اختفاء للمدون ـ في حقبة بعينها ـ هناك، فإن الاستعانة بعمليات القياس والنقد والمقارنة بين النصوص المتعددة، إزاء الحدث الواحد والتحليل ومحاكمة الوثائق على سياقها الداخلي والسياق التاريخي، يمكن الوصول بالمسألة إلى الوجه الأقرب إلى صدق ما حدث بالفعل، إضافة إلى ما يمكن القيام به من مقارنات، إزاء الحدث الواحد، بين نص يتحدث عنه في مدونات مصر، وبين نص آخر يتحدث عنه في وثائق الرافدين، لكننا مع الجماعة الإسرائيلية لن نجد بين أيدينا مثل تلك المادة الخام الأساسية، لنعلم فيها أدوات البحث، فلا وثائق، ولا آثار، ولا سجلات عينية، لا شئ بالمرة سوى وثيقة واحدة هي الكتاب المقدس (العهد القديم).

وحتى نكون أكثر دقة، فإن تعبير (لا شئ بالمرة) لون من المجاز الصادق، فهناك بالفعل إشارات متأخرة في وثائق متناثرة في أشلاء مبعثرة بين دول المنطقة، لكنها لا تصنع تاريخاً بحال، ولا تؤكد في التاريخ الإسرائيلي شيئاً بالقطع اليقيني أو تنفيه، أما في المراحل الأقدم والتي تعود إلى بداية ذلك التاريخ ولقرون طويلة، بعده حتى ظهور تلك الإشارات المبعثرة، فالأمر معلق بالمقدس وحده، علماً أن ذلك التاريخ الذي لا وجود له إلا بالكتاب المقدس، وهو عمدة تاريخ اسرائيل، ويمثل أخطر الأحداث التي تقيم جماعة إسرائيل التاريخ كله عليها، ويشمل أهم البنى لمقدسهم وتاريخهم على

الإطلاق، ومثالاً لذلك علاقة الجماعة الإسرائيلية بمصر، التي تتمثل في لحظة حاسمة وفاصلة وقاطعة في تاريخهم، وتحكي عبر المقدس عن هبوطهم من كنعان (فلسطين) إلى مصر، زمن النبي (يوسف) عليه السلام، وخروجهم منها بعد قرون في عهد النبي (موسى) عليه السلام، وسط أحداث هائلة سواء في كيفها أو في نتائجها، وما صحب ذلك الهول من هلاك كامل لجيش مصر، أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان قاطبة، مع مالحق الديار المصرية نفسها من دمار وهلاك بفعل رب إسرائيل (يهوه)، وأسهبت في شرحه الرواية المقدسة، ومع ذلك فإنك لا تجد في وثائق مصر، على كثرة ما اكتشف منها حتى الآن، وعلى ما في هذه الكثيرة من ذكر لدقائق وتفاصيل صغيرة الشأن، كسجلات وعقود البيع والشراء، أو كأوامر ثانوية للفرعون بنقل موظف أو تابع قليل الشأن، أو جزاءات التقصير في العمل، أو الأمر بالسماح لقبيلة بدوية بالانتجاع على الحدود، للعمل في مناجم الفيروز وحفائر سيناء... إلخ .. فإنك لا تجد بين كل تلك التلال الأثارية والشواهد المدونة أية وثائق تشير إلى بني إسرائيل، اللهم إلا إشارة وحيدة يتمية، يقول فيها الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رعمسيس الثاني)، ضمن لوحة يحكي عن انتصاراته « هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر »[1] ، وقد جاءت تلك الإشارة عرضاً، ضمن

---

(١) سليم حسن : الأدب المصري القديم، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠،ج٢، ص٢٢٢.

روايته عن سحقه لعدد من الشعوب، مثل اللوبيين (الليبيين)، والكوشيين [1] (السودانيين). وحتى لو غفلت مدونات مصر عن ذكر ذلك الحدث الهائل الذى دمرت فيه البلاد، وهلك الزرع والضرع والعباد، وغرق بعده الفرعون وجيشه العرموم فى خضم أمواج البحر، فما بال مدونات الشعوب المعاصرة للحدث لا تذكر ما حدث للجارة الكبرى؟ سواء فى بلاد الشام أو الرافدين أو تركيا بلاد الحيثيين؟

هذا كل ما جاء عن تاريخ إسرائيل الطويل العريض فى الأثر المصرى « هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر »!! أما بلاد الرافدين فإنها لا تعرف شيئا البتة عن التاريخ القديم لتلك الجماعة التى ملأت المقدسات صخباً وضجيجاً، وإن وردت إشارات فى الحقب المتأخرة تذكر شيئاً يسيراً فى شذرات عن مملكة تدعى (مملكة عمرى)، والتى يُظَن أنها مملكة إسرائيل فى عهد أحد ملوكها المعروف بأسم (عمرى)، خلال الربع الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، ثم شيئا لا يغنى ولا يسمن عن انتصارات الآشوريين على سكان فلسطين وسبيهم لأهلها، ومثله شيئاً آخر عن انتصارات الكلدانيين على جنوب فلسطين، أما قبل ذلك فلا شئ على الأطلاق يشير إلى جماعة

---

(١) الكلمة كوشي في التوارة وفي المصريات القديمة تشير عموما إلى العنصر الزنجي.

إسرائيل، ولا للأحداث التي مرت بها، والتي أسهب الكتاب المقدس في تدوينها كعادته، إلى حد الإملال، بل أن الحفريات المحمومة، والهوس الأركيولوجي الذي يمارس الآن في دويلة الكيان الصهيوني، لم يسفر حتى تاريخه عن شئ يستحق الذكر، أو عن أمر يمكن القطع بشأن نسبته للجماعة الإسرائيلية، أو حتى تصنيفه ابتساراً ضمن مرحلة بعينها من مراحل ذلك التاريخ، الذي تضخم حتى صار ورماً ناتئاً في تاريخ البشرية، دون سبب واضح، اللهم إلا بسبب مرض في صُنَّاع التاريخ وانحيازهم السافر، لإيجاد موطئ قدم للجماعة الإسرائيلية في تاريخ الإنسانية.

وحتى لو غضضنا الطرف عن كل المراحل القديمة في ذلك التاريخ، حسبما أوردته المقدسات الإسرائيلية، بحسبانها مراحل بداوة وعدم استقرار، لم تسمح لها ظروفها بترك آثار واضحة يمكن قراءتها، وبدأنا مع زمن قيام الدولة، بحسبان التاريخ عادة ما يبدأ مع الاستقرار، وقيام الكيان السياسي والتدوين، أي لو بدأنا مع المملكة التي أقامها (شاول وداود وسليمان)، رغم عدم ثبوت التدوين آنذاك (حوالي ١٠٠٠ق.م)، لما وجدنا لأي من تلك الأسماء المضخمة قدسياً وسياسياً وعسكرياً، أي ذكر في سجلات أي من دول المنطقة بكاملها ودون استثناء، ذلك رغم ما قيل عن عظمة تلك المملكة واتساعها وجبروتها وعظم شأنها ومنشآتها، مع ما زُعم عن الهيكل والقصور

والجيش العرمرم، مهما دققت النظر وأعييت الذهن، فلن تجد آية اشارة، لا لمملكة وضيعة، ولا حتى فى حفائر الدويلة الحالية، ولا أثر معمارى واحد بقى يتيماً كشهادة واحدة على تلك المنشآت التى صدّعت بها أسفار المقدس رؤوسنا، بينما نجد ما يقف بلا ضجيج، بدل الشاهد ألف، فى آثار فراعين مصر الذين سفههم ذلك المقدس، وأظهرهم فى المراتب الدنيا فى تاريخ الإنسانية، فالمملكة التى تبجح المقدس بعظمتها لا شئ عنها البتة، لا فى أثر على ظهر الأرض، ولا فى باطن الأرض، ولا حتى فى الورق!! اللهم إلا ورق المقدس وحده، وهو فى موازين التاريخ والبحث العلمى، مالم تخترع له وحدة قياس بعد.

هذا ما كان عن القصور الأول فى تاريخ جماعة بنى إسرائيل، والذى جعل من الصعب تدقيق الاصطلاح صادق الدلالة عليهم، فمع تاريخ كهذا لن تكون واثقاً عن أى شئ تتحدث بالضبط، ولا يبقى لديك سوى مأثرتهم الوحيدة (العهد القديم من الكتاب المقدس) لتتناول التاريخ الوارد فيه بالدرس، لكن الكتاب المقدس نفسه يضعك فى حيرة عندما تريد تدقيق الاصطلاح، ما بين العبريين واليهود والاسرائيليين، لكن العجيب فى الأمر، والمثير لدهشة الباحث وقلقه معاً، هو ذلك التكامل المدهش فى ذلك المأثور، الذى يندرج ضمن التاريخ أكثر مما يندرج ضمن الدين، فيظهر بمظهر الدقة الصارمة، ويتحدث عن الجماعة الإسرائيلية من البدء، نسباً لنسب، ليرتفع بهم

إلى أرومتهم (النبى إبراهيم عليه السلام)، ثم يصعد ليصل إلى شخصية تراثية أبعد هى (النبى نوح عليه السلام)، ثم يغالى دون أن يبالى، فيرتفع بسلسلة الأنساب حتى يصلها مباشرة بشخصية تراثية أخرى هى (آدم) أبو البشر، مع تفصيل لكثير من الدقائق والمنمنمات التى يقدمها كشواهد، إثباتاً للمصداقية، هذا علماً أن كل هذا المدون الذى يضرب فى عمق الزمن السحيق، لم يتم تدوينه إلا فى زمن متأخر جداً بما لا يقارب، قياساً على زمن الأحداث التى يرويها، حيث لم يبدأ تدوين المقدس الإسرائيلى حسب أبعاد الترجيحات، وأكثرها تأولاً لصالح بنى إسرائيل، إلا بعد بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وإزاء هذا التأخير فى التدوين، مع التكامل الظاهرى، والإصرار على التدقيق فى تفاصيل أحداث سحيقة فى القدم، فإن أى باحث لا يملك سوى أن يرى فى ذلك التاريخ المقدس صنعة وانتحالاً واضحين، وريبة مركزية تحيط بها كثير من الظنون، مما يفقده الكثير من المصداقية لأول وهلة، وقبل وضعه على أى ميزان، هذا ناهيك عما تلبّس بهذا التاريخ من أساطير ومبالغات لا تخلو منها صفحة من صفحات ذلك المقدس، ملتبسة بأحداث أخرى واقعية، وتتم رواية ذلك المزيج الهجين بحسبانه فى مجمله أحداث تاريخية واقعية، مما يلقى مزيداً من ظلال الشكوك على الحدث نفسه، الذى يروى كواقعة تاريخية.

أما ما يزيد الأمر تعقيداً فهو أن تلك الجماعة، وحسب الكتاب المقدس ذاته، قد مرت بعدة أدوار، انتقلت فيها نقلات هائلة ومتغيرة كمياً وكيفياً، بحيث لا يمكنك فى مرحلة بعينها، الزعم أنك تتحدث دون خلط، وهو ما ألقى بظلاله على تدقيق الاصطلاح المناسب الدال على تلك الجماعة البشرية، فاصطلاح العبريين يرتبط أساساً بلغة تلك الجماعة، والمعروفة باللغة العبرية، كما يرتبط من جهة أخرى بتفسير الباحثين للاصطلاح بحسبانه دالاً على حدث تاريخى، هو عبور القبيلة الأولى (الإبراهيمية) للنهر، فى هجرتها من وطنها الاصلى إلى كنعان، ويتضارب الباحثون التوراتيون ـ دون الشعور بأى خلل ـ ما بين كون هذا العبور لنهر الفرات أو لنهر الأردن، فالأمر مقدس، ومع المقدس كل شئ جائز، وقد كانت هذه الهجرة من مدينة (أور) المزعوم بالتوراة أنها (أور الكلدانيين)، الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لبلاد الرافدين حسبما ذهب الباحثون، والتى ذهبنا نحن بها إلى منطقة (أرارات) فى جبال (أرمينيا) حول هضبة أرارات وغربها، أى المنطقة الواقعة شمالى العراق وسورية الآن، وذلك فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول).

ومن جانبنا فقد رأينا اصطلاح (العبريين) غير صادق الدلالة إلى حد بعيد، رغم كونه أكثر الاصطلاحات استخداماً فى كتابات الباحثين، وموقفنا يتأسس على خطأ نراه أساسياً فى مستند هؤلاء،

لأن الكلمة (عبرى) لا تعود بحال إلى عبور نهر، وإعادتها لعبور القبيلة الإبراهيمية للنهر، قصد بها تخريجاً يتماشى مع سيناريو كاتب هذا الجزء بالكتاب المقدس الذى دون قصة الهجرة الإبراهيمية من (أور) إلى كنعان، بينما الأصل يعود إلى أن القبيلة الإبراهيمية المعنية بهذا الاصطلاح، تعود بنسبها إلى الجد المدعو (عابر)، وذلك حسب شجرة الأنساب التوراتية، فإبراهيم هو ابن تارح (آذر فى الرواية الإسلامية)، ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر، وعابر هذا هو حفيد سام بن نوح، وتعود أهمية (عابر) فى هذا السلسال حسب التعليلات التوراتية، إلى أنه فى زمنه وزمن ولده (فالج)، قسمت الأرض حسب ألسنتها إلى شعوب وأجناس، ووزعت على خريطة المنطقة، بحيث تميز العبريون فى هذه القسمة عن غيرهم من الشعوب، لذلك لاينى الكتاب المقدس يذكر الجد عابر بشكل متواتر، قاصداً به الدلالة على الشعب الذى تناسل عن النبى إبراهيم تحديداً.

ومكمن الخطأ فى استخدام هذا الاصطلاح، هو أنه إلى (عابر) ذاته، تعود مجموعة أخرى من الشعوب، حسب القسمة التوارتية ذاتها، هم أبناء (يقظان) أحد أبناء عابر، وأبناء يقظان هم عرب جزيرة العرب وبخاصة جنوبها (قحطان) لذلك فإن دلالة (عبرى) حسب المقدس، تشمل بنى إسرائيل، كما تشمل شعوب جزيرة العرب،

فهي دلالة أوسع وأشمل وأعم من بنـي إسـرائيل وحدهـم، وكمـا تبين دلالتها فى الكتـاب المقدس، فهـي تشـير إلـى الرعـاة وأصحـاب نـهج البداوة بشكل عام، وحيثما استعملنا التعبير (عبرى)، يتبادر إلى الذهن فوراً تعبير (عربى) كمصطلح دال على الرعي والبداوى، ولنلحظ أنه بظـاهرة الميتـاتيز الفونيطيقـى (القلـب اللسـانى)، يمكـن أن تتبـادل (عبرى) و (عربى). وعلى مستوى اللسان فأنـه مـن (عبرى) يكـون التعبير، أو الإفصـاح مـن (عبّر) ومـن (عربـى) يكـون الإعـراب (أعرب) أى أفصح وعبّر وهو يحمل ذات الدلالة، ولا يفوتنا الاقتراب الحميم بين اللغتين العربية والعبرية تحديداً من بين بقية فـروع شـجرة اللغات السامية، وفى المأثور (إسماعيل) أبو العربان، هو أخ لإسـحق أرومة بنى إسرائيل، وفى التاريخ تحدثت وثائق الرافديـن عـن مملكـة (عريبى)[1]، بينما تحدثت وثائق مصـر عن البدو باسم (عبيرو)[2]، ولنلحظ أمراً لايخفى مغزاه، وهو اعتماد المؤرخين الإسلاميين علـى شجرة الأنسـاب التوراتيـة، فـى حـال تنسـيبهم لشـخصيات عربيـة تاريخيـة، بحيـث تعـود تلـك الشـخصيات دومـاً فـى النهايـة إلـى الشجرة العبرية.

---

(١) فرتز هرمل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ضمن كتـاب التـاريخ العربـى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين.

(٢) ر.س. ماكلستر : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، تـاريخ الإنسـانية، مكتبـة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، مج٢، ص٩٣.

وفى حال احتساب اصطلاح عريبى منسوباً إلى اللغة العبرية، فإنه من المفيد أن نعلم، أن اللغة العبرية نفسها لم تكن لغة بذاتها بهذا الاسم، بل هى «شفة كنعان ـ أشعيا ١٩ : ٦٨» أى لسان الكنعانيين، حيث اكتسبتها القبيلة الابراهيمية بعد نزولها فلسطين، حيث سكنت بين سكانها الكنعانيين، وتكلمت بلسانهم اكتساباً، وعليه فإن استخدام اصطلاح عبرى سيشمل القبيلة الإبراهيمية الوافدة، والكنعانيين سكان فلسطين، وعرب الجزيرة، وما أبعد ذلك عن الصحة والسلامة، ومن هنا رأينا أن اصطلاح عبرى، لا يفى بدقة للدلالة على بنى اسرئيل بقدر ما يدل على البداوة عموماً .

أما اصطلاح (يهود)، فهو لا يشير إلى جنس بعينه، أو شعب بذاته، أو مكان محدد، أو لكيان سياسى بخصوصيته ونظامه، قدر ما يشير إلى تصنيف طائفى، يتأسس على العقيدة والملة التى اجتمع عليها البشر، الذين شكلوا الجماعة الإسرائيلية، وتعود التسمية (يهود) إلى رب هؤلاء المعبود فيما بعد العهد الموسوى باسم (يهوه)، ثم إلى أحد الأسباط من أبناء يعقوب، والمدعو (يهوذا)، الذى سمى به قسم منفصل عن دولة سليمان حمل اسم (مملكة يهوذا). والاصطلاح واضح القصور، حيث لم يظهر الإله يهوه إلا مع ظهور النبى موسى عليه السلام، والنبى موسى هو أحد أحفاد سبط لاوي أو ليفى بن

يعقوب المعروف بإسرائيل، حوالى عام ١٢٥٠ ق.م، مع إسقاط كل المراحل السابقة فى تاريخ تلك الجماعة، هذا ناهيك عن كونه لايفى إطلاقاً بدلالته الصادقة، على الشرائح المؤتلفة اليوم فى الكيان الصهيونى، والتى لا تجمعها لالغة مشتركة ولا تاريخ واحد، ولا جنس، ولا موطن، ولا يجمعها شئ سوى الملة والطائفة، والمبدأ العنصرى الذى يقوم عليه ذلك الكيان، وإعمالاً لذلك فإن اصطلاح (يهود) لا يحمل دلالة صادقة على الجماعة الإسرائيلية المقصودة فى الكتاب المقدس.

ومن هنا، فقد ملنا إلى استخدام اصطلاح (بنى اسرائيل) الذى يشير إلى الجماعة القديمة، صاحبة ذلك التاريخ المقدس، رغم ما قد يلحق ذلك الاصطلاح بدوره من عيوب، وهو اصطلاح يعود فى منشأه إلى يعقوب بن اسحق بن إبراهيم، فى قصة مقدسة ومشهورة تقول إن يعقوب التقى رباً يُعرف بالاسم (إيل)، وكان رب إبراهيم وإسحق ويعقوب، وظل رباً لتلك الجماعة حتى ظهور النبى موسى وربه (يهوه)، وتحكى القصة حكاية النزال الجسدى بين يعقوب وإيل، وكادت المصارعة تحسم لصالح يعقوب، لولا أن كشف إيل عن شخصيته الإلهية ليعقوب، حيث أمره بتبديل اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وهو نحت لفظى مركب من ملصقين، يترجمه بعض الباحثين تجميلاً، وربما مجاملة لشعب الرب، بالترجمة

(جندى الرب)، بينما صدق التسمية لدينا هى (صرع ـ إيل) أى مصارع الرب، أو الذى صرع الرب وهزمه، ولو كان صدق التسمية هو (جندى الرب) لكان الأصل العبرى هو (صبت ـ إيل) وليس (اسر = إيل) = (صرع = إيل) ، انظر الكتاب المقدس سفر التكوين : ٣٢ : ٢٢ ـ ٢٩).

وقد ملنا إلى استخدام اصطلاح بنى إسرائيل، رغم كونه لا يشمل سلف الجماعة قبل يعقوب (إسحق وإبراهيم)، لكنه على أية حال الأقرب إليهم زماناً، فيعقوب حفيد إبراهيم مباشرة، هذا بالإضافة لكونه تابعاً فى العقيدة للإله (إيل)، بينما يرتبط يعقوب نفسه من جهة أخرى بالأسباط بنى إسرائيل وهم بنيه، الذين جاء من نسلهم موسى عليه السلام صاحب الإله الجديد (يهوه).

أدوار التاريخ الإسرائيلي

من المتفق عليه بين الباحثين المهتمين بدراسة تـاريخ الجماعـة الإسرائيلية اللجوء إلى تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل أو أدوار، فـي محاولـة لتجاوز الصعاب والعقبات التـي ربمـا تعـرض لونـاً مـن الاستحالة، في حالة معالجته كتاريخ متصـل، وهـي الصعـاب الناتجـة عن العيوب الأساسية في مسيرة هذا التاريخ، والتي أشرنا إليهـا، وقـد اختلـف تقسيم تـاريخ بنـي إسرائيل بيـد المؤرخيـن حسـب الرؤيـة، والمنهـج، والمدرسة، والأيديولوجيا فـي أغلـب الأحيـان، وللإيجـاز سنعمد إلـى الـرؤى المطروحـة والمعلومـة لـدى القـارئ العربـي، وأوسعها انتشاراً تقسيم (فيليب حتـى) لهذا التـاريخ دوريـن رئيسـيين، يعتمدان خط الهجرات للجماعة الإسرائيلية إلى فلسطين، والذي تم في هجرتين رئيسيتين، تفصل بينهما مرحلة زمانية، تعود الهجرة الأولـى منهما إلى القبيلة الأولى في التاريخ الإسرائيلي (القبيلـة الإبراهيميـة)، وهي الهجرة التي هبط فيها البطرك إبراهيم وعائلته أرض فلسطين في استيطان أول، أما الهجرة الثانية فكانت في الزعـم المقدس مجـرد عودة إلى فلسطين، بعد أن اضطرت المجاعـة وشـظف العيش النبـي (يعقوب) وأسباطه وأحفاد إبراهيم عليه السلام، إلى هبوط مصر طلبـاً للقـوت، حيث لبثـوا هنـاك زمنـاً عـادوا بعـده فـي هجـرة ثانيـة إلـى

فلسطين، لكن الهجرة هذه المرة، ضمت عدداً هائلاً من البشر، وتأسيساً على ذلك أقام (فيليب حتى) تقسيمه لتاريخ بنى إسرائيل إلى دورين، مثلتهما هجرتين إلى فلسطين، لكنه يؤكد أن التاريخ الحقيقى لتلك الجماعة، وظهورهم فى التاريخ (كشعب)، إنما يبدأ من الهجرة الثانية، أى مع خروجهم من مصر بقيادة النبى موسى عليه السلام، حوالى عام ١٢٣٤ ـ ١٢١٥ ق.م فيما يذهب هو إليه، وأن هذا الخروج أو الهروب أو الهجرة، لم تشمل سوى قبيلة واحدة من جماعة إسرائيل، هى قبيلة (راحيل)[١]، نسبة إلى راحيل الزوجة الثانية ليعقوب وهى أم يوسف النبى عليه السلام وأخيه بنيامين، والمقصود هنا أن القبيلة التى دخلت مصر وخرجت منها هى فقط نسل راحيل فقط دون بقية الجماعة الإسرائيلية.

وإن المؤرخ (فيليب حتى) وهو يضع ذلك اللغم، يتركه ويستمر فى عرض تاريخ الجماعة، لكن بعد أن يشعل فتيله الذى يشير لقارئ لبيب، لديه إلمام كاف بالتاريخ المقدس، إلى تفجر وتشظى الجماعة الإسرائيلية قبل دخول مصر، وإلى احتمال أنها لم تكن يوماً جماعة واحدة، إنما حدث لها إئتلاف بعد الخروج بقيادة

---

(١) فيليب حتى : خمسة الالف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٥، مج ١، ص١٢٦ ، ١٢٧.

قبيلة راحيل، وأن الخروج لم يشمل إلا عدداً محدداً من بني يعقوب إسرائيل، وعليه فلا مندوحة لعقل نقدي، أن يستدل من رؤية (هتي) على أن جماعة إسرائيل لم تتكون حقيقة إلا بعد الخروج، وبالتدريج لتتشكل من إئتلاف قبلي كان أصلاً متعدد العروق ومختلف المشارب، ولم يكن من بينها من هو أصيل النسب لإسرائيل سوى أبناء راحيل، وهو أمر يمكن أن يؤدى بإعمال البحث المدقق إلى نتائج هائلة فى محتواها، وهو ما نحاول إعمال البحث فيه حالياً، فى كتاب لازال مشروعاً قيد البحث بعنوان (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة).

أما عالم الساميات (سبتنيوموسكاتى) فيلجأ فى تقسيمه للتاريخ الإسرائيلى إلى أدوار، مستنداً إلى رؤية أخرى، ترتبط بمراحل الاستيطان والارتحال الإسرائيلى من مواطن مختلفة ومتباينة إلى مواطن أخرى متباعدة، يبدأها بالمأثور التوراتى حول إقامة القبيلة الأولى (الإبراهيمية) فى جنوب بلاد الرافدين (وهو يسلم بذلك دون مناقشة)، ثم هجرتهم من هناك إلى فلسطين، ثم يثنى على الدور الثانى الذى هاجر فيه يعقوب إسرائيل وأولاده إلى مصر حيث أقاموا فيها إلى أن أنتهى بهم الأمر إلى الأضطهاد، ثم الخروج من مصر إلى سيناء بقيادة موسى النبى عليه السلام. ثم ينتقل إلى الدور الثالث والأخير فى تقسيمه، والذى يرتبط بدخولهم أرض فلسطين فى سلسلة من الحملات، التى وُجهت إلى جنوب فلسطين ووسطها وشمالها،

حتى استيطانهم فيها، وينسب تلك الأحداث إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مشيراً إلى حفائر آثارية في جنوب فلسطين، تشهد بتدمير بعض المدن حوالي ذلك الزمن، ويحتسب ذلك دليلاً كافياً على حدوث الهجوم الإسرائيلي على فلسطين[1]، وهو الأمر الذي يؤخذ على باحث في وزن موسكاتي، فدليله واضح التحيز وبَيّن القصور، لأنك لن تحفر الأرض في أي موطن في الشرق الأوسط، إلا وتجد قرى وبلاداً عفى عليها الزمان، بعد تدميرها على يد أقوام أخرى، ومعلوم أن منطقة الشرق الأوسط كانت تموج لمدى ثلاثة آلاف عام بالحركات البشرية والهجرات، ومعلوم أيضاً أن فلسطين نالها النصيب الأكبر من اصطراع تلك الجموع البشرية الهائلة، لموقعها الجغرافي المركزي في بطن المنطقة، وعليه فإن وجود قرى مدمرة في طبقات الحفائر بفلسطين لا يشير بالشرط والقطع إلى بني إسرائيل تحديداً في الزمن الذي يشير إليه، وكون فلسطين كانت طوال تاريخها معبراً لجميع الشعوب المهاجرة، وساحة لمعارك الأمبراطوريات الكبرى المتصارعة دوماً (مصر، آشور، بابل، الحيثيين)، كفيل وحده بجعل فلسطين تنال نصيباً أوفر من الدمار المتواصل، أكثر من مواضع أخرى كثيرة في الشرق القديم.

---

(١) موسكاتي : الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧،ص١٤٩، ١٤٠.

هذا بينما يذهب باحث آخر ـ لا يقل اجتهاداً ـ هو (أحمد سوسة) إلى تقسيم التاريخ الإسرائيلي إلى أدوار ثلاثة، يعتمد ذات خط (موسكاتي)، أقصد نظرية المواطن التي تقاسمت حركة التبدي للجماعة الإسرائيلية، لكنه يخالفه في تزمين تلك المراحل طولاً أو قصراً؛ فالدور الأول يبدأ بهجرة النبي إبراهيم عليه السلام، مع قبيلته، من (أور الكلدانيين) جنوبي بلاد الرافدين، لكنه يمد هذا الدور زمنياً لينهيه باستقرار الإسرائيليين في مصر، حيث يزعم أنه بعد هبوطهم مصر، اندمجوا كلية في البيئة المصرية، بعد قضاء ست قرون كاملة هناك (وهو تقدير خاص بأحمد سوسة)، لكن مسألة الاندماج التام رأى له وجاهته، في ضوء ما يعرفه التاريخ، عن قدرة مصر الفذة في امتصاص الغرباء وتمصيرهم، في أزمنة أقصر بكثير من المدة المزعومة لبقاء الإسرائيليين بمصر، ثم ينتقل (سوسة) بعد ذلك إلى الدور الثاني، الذي يبدأه مع النبي موسى عليه السلام وجماعته، في نزوحهم من مصر إلى فلسطين، ويذهب في ذلك إلى رأي فريد، فيقول : إن رحلة الخروج التي أسهب في روايتها الكتاب المقدس، وتعتبر حجر الزاوية في البناء التاريخي لإسرائيل بكامله، ليست سوى « حملة مصرية، مؤلفة من جماعة من المصريين، وبقايا الهكسوس، يدينون بدين التوحيد، الذي ورثوه عن إخناتون فرعون مصر، واضطروا تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم إياهم إلى الهروب من مصر، والتوجه إلى أرض كنعان ».

بل ويذهب (سوسة) إلى أن هؤلاء الخارجين لا ريب « كانوا يتكلمون باللغة المصرية، وبها كلمهم موسى على وجه التأكيد، وقد

نسبت التوراة هذه الحملة إلى بنى إسرائيل، بغية ربط هذه الجماعة، بيعقوب وبإبراهيم الخليل، كما نسبت موسى إلى كهنة بنى لاوى بن يعقوب، فى حين أن الرأى الغالب لدى الباحثين فى هذا العصر، هو أن موسى كان قائداً مصرياً فى بلاط إخناتون، يدين بدين التوحيد الذى دعا إليه إخناتون، ورواية التوراة نفسها، تشير إلى أن موسى تربى فى بلاط فرعون، واتخذته ابنة فرعون ابناً لها ــ خروج ٢ : ١٠ ــ ثم تزوج من امرأة كوشية (زنجية) ــ عدد ١٢ : ١٠ ــ فلو كان لاوى فى الوجود زمنه، لتزوج إحدى بنات عمومته، ومن الثابت لدى العلماء، أن اسم موسى اسم مصرى صميم، تسمى به أباطرة عصر الإمبراطورية : أحمس أو (أح موسى) .. تحوتمس أو (تموت موسى)، رعمسيس أو (رع موسى) أما لغة هذه الشريعة فالأرجح عندنا أنها كانت باللغة المصرية، وقد أخذت جماعة موسى بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها، كما أخذت بلغتها الكنعانية.. أما لغتهم التى صارت تسمى بالعبرية فى وقت لاحق، فهى إحدى اللهجات التى اقتبسوها من الآرامية، وقد تكونت بمرور أكثر من ستمائة عام، على دخولهم أرض فلسطين، وبها كتبت التوراة فى بابل بعد عهد موسى بثمانمائة عام، وبعد عدة قرون اقتبست هذه الجماعة الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية، وصارت جزءاً من ديانتها »[١] .

---

(١) أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، ط٢، د.ت، دمشق، ص ١٥٥ : ١٥٧.

ولنلحظ هنا، أن القول بمصرية موسى عليه السلام سبق إليها أعلام مثل (جيمس هنرى برستد) و(سيجموند فرويد).. إلخ، هذا إضافة لما يتمتع به رأى (سوسة) فى جملته من وجاهة، تضعه فى إعتبار أى باحث جاد.

ثم ينتقل (سوسة) إلى الدور الثالث من أدوار التاريخ الإسرائيلى، فينتقل مع بنى إسرائيل إلى موطن ثالث، يبدأ بسبيهم من فلسطين إلى بابل على يد (نبوخذ نصر الثانى الكلدانى)، وذلك حوالى عام ٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق.م، حيث أقاموا فى بابل، إقامة أدات إلى تطور هائل فى العقيدة اليهودية خلال القرون التالية، كما كان لتلك الإقامة أهمية أخرى، فقد دُونت فى بلاد الرافدين ـ أثناء الأسر ـ أهم فصول التوراة. ويذهب (سوسة) إلى أنه ربما كان فى حوزتهم، نسخة من وصايا موسى الأصلية، المكتوبة بالهيروغليفية، قدمت لهم المادة الأساسية والخام، لعملهم بالكتاب المقدس[1] .

ثم نجد لوناً آخر من تقسيم التاريخ الإسرائيلى، لا يعتمد خط الحركة المهاجرة ولا يأخذ باعتباره المواطن الجغرافية للحل والترحال، إنما يربط بين أدوار التقسيم، وبين تبادل الأحداث التى مرت بالجماعة الإسرائيلية، وكانت ذات أثر جوهرى فى حدوث

---

(١) نفسه : ص ١٥٨ ، ١٥٩.

نقلات تاريخية، حولته تحولاً كبيراً، بحيث أصبح ذلك بمثابة الانتقال من دور إلى آخر، مع أخذه بالحسبان، شكل الحياة، أو نمطها السائد، ومدى ما دخلها من تغيرات نقلتها من دور إلى دور آخر في التاريخ، وهو ما نجد نموذجاً له عند (أنيس فريحة) حيث يقول: «مر العبران في خمسة أدوار رئيسية:

١ ـ دور البداوة .. حيث كانوا من جملة القبائل السامية المنتشرة في شمالي الجزيرة العربية» .. **ولم يكونوا موحدين**، لكنهم كانوا في طريقهم نحو التوحيد، وأصبح **أحد آلهتهم** ـ يهوه ـ قائدهم في الحروب.. الإله الأول .. وكان يهوه إله قبيلة قليلة العدد ضيقة الآفاق، وكان يتميز بكثير مما تتميز به آلهة الصحراء، فقد كان إلهاً غيوراً يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، للجيل الثالث والرابع، كان صارماً شديداً، حتى أنه لم يرد أن يرسم له رسم أو نحت، خوفاً من المنافسة، ولكن هذا الإله الصحراوي أصبح على يدي الأنبياء أمثال إشعيا وعاموس وميخا، إلها عالمياً يأمر بالمحبة والعدل.

٢ ـ دور التكوين القومي والسياسي .. وهو طور أستقرارهم في كنعان، بعد أن دخلوا أسباطاً وعشائر تحت إمرة شيوخهم وقضاتهم، ولم تخضع البلاد لهم برمتها، بل ظلوا يكافحون فيها

قروناً يحاربون، حتى دانت لهم من دان إلـى بئر سبع، وكـانت الحضارة الكنعانية أرقى من حضارتهم، وكذلك كـانت لغـة الكنعانيين أرقى من لغتهم، فاقتبسوا لغة البلاد واندمجوا فـى حضارتها، وتكونت على مر الأجيال قومية عبرية، .. وتأسست الملكية،.. ونعموا بفترة استقرار ورخاء دامت أكثر من تسعين سنة، ثم أنهـم مـا لبثوا أن انقسموا علـى ذواتهم، قسم شـمالى عاصمتـه بالقرب من نـابلس الحديثة، وقسم جنوبـى عاصمتـه أورشليم، وفي هذه الفترة، نشأ صراع عنيف بين يهوه وبين آلهة أخرى زراعية، وقام نزاع بين كهنـة البعل وكهنـة يهوه، واشتد الصراع بين العادات الصحراويـة القبليـة، وبين العـادات الزراعية الحضرية.

٣ ـ دور السبي.. في سنة ٧٢١ق.م وقعت المملكة الشمالية إسرائيل في قبضة الآشوريين، فخربوا العاصمة، وأجلوا قسماً كبيراً مـن السكان إلى العراق، وفى عام ٥٨٦ق.م، وقعت المملكة الجنوبية فـى قبضــة البابليين، فخربـوا العاصمـة، ودكـوا معـالم الهيكـل، وأجلوا السكان إلى بابل.

٤ ـ دور الرجعة إلى موطنهم.. كان رجوعهم إلى فلسطين علـى يد الفرس، وقد انصب حماسهم فى إعادة بناء الهيكل .. وفـى هذه

الفترة وضعت أكثر أسفار التوراة، كما نعدها حتى يومنا هذا .. وهذه الفترة كانت فترة نضوج اليهودية الرسمية التقليدية.

٥ ـ دور وقوعهم تحت الهلينية.. وقعت فلسطين تحت حكم الإغريق عند أواخر القرن الرابع ق.م.. فنشأت حرب فكرية عقائدية بين الإغريق واليهود.. وقد اشتد العداء واستفحل، فنشبت بينهم حروب دامية تعرف بحروب المكابيين.. وقرر أنطيوخس أبيفانس أن يمحو اليهودية من الوجود، فجرد عليهم طيطس الروماني عام ٧٠ للميلاد حملة كبيرة، كانت القاضية، فخرّب الهيكل وأحرقه، وتشتت اليهود من جميع أنحاء المعمورة »[1] .

---

(١) أنيس فريحة : دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٩٠، بيروت ، ١٩٨٠، ص١٤٥، ١٤٩.

أحداث الدخول

فى الطور الإيلى الإبراهيمى :

تبدا الأحداث فى الأصل، بنزول إسرائيل (وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) إلى مصر، بصحبة بنيه من الأسباط الأحد عشر، بعد أن استدعاهم ولده الأثير، السبط الثانى عشر (يوسف عليه السلام)، والذى سبق أن بيع رقيقاً فى مصر، بعد مؤامرة من أشقائه لاستبعاده، كى يخلو لهم وجه أبيهم، وفى مصر تقلبت به الأحوال، حتى انتهى وزيراً لخزانة المصريين.

وتقول التوراة : إن بنى إسرائيل قد قضوا فى مصر ٤٣٠ عاماً، لكنها لا تحدثنا إطلاقاً، عما جرى لبنى إسرائيل هناك طوال تلك السنين، رغم ميلها المعهود إلى التفصيل والتكرار الممل، فقط تبدأ التوراة عادتها، بالشرح والتفصيل والتكرار كدأبها، مع ظهور النبى موسى عليه السلام، الذى قدر له أن يقود بنى إسرائيل فى رحلة خروج أو هرب كبرى إلى فلسطين.

ومن المشكلات العَصَيِّة على أى باحث، هو محاولة القطع بشأن الزمن الذى بدأ فيه ظهور القبيلة الإسرائيلية أصلاً، على صفحات التاريخ، مع جدهم البعيد إبراهيم، وإن كان الأقرب للقبول

افتراضاً، هو تواجد النبي إبراهيم عليه السلام خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك وفق مقاربات افتراضية، تستند إلى رواية توارتية، تتحدث عن مهاجمة فرعون مصرى لمملكة إسرائيل بعد موت ملكها سليمان مباشرة، وقد ذكرته التوراة باسم (شيشق)، ولأن تاريخ مصر المدون فى آثارها، حدثنا عن فرعون باسم (شيشنق)، وأنه كان صاحب حملات على بلاد الشام وفلسطين، فقد تم لأول مرة محاولة ضبط التاريخ الإسرائيلى متوافقاً مع التاريخ المصرى، وتم التزمين الافتراضى لزمن سليمان، بمطابقته مع زمن شيشنق أو (شيشق) الذى عاش حوالى ١٠٠٠ ق.م. وعليه فقد وضعت خطة ترتيب الأزمنة والأحداث والشخصيات التاريخية الهامة، ارتجاعياً، بدءاً من زمن شيشنق وسليمان، وفق سياق افتراضى يصل فى النهاية إلى زمن النبى إبراهيم عليه السلام.

وإن الأحداث التى تتعلق بحدثى الدخول والخروج، يمكن تقسيمها بين مرحلتين أو طورين، هما الطور الإيلى الإبراهيمى، وخلاله تم حدث الدخول، ثم الطور الثانى اليهوي أو الموسوي وخلاله ثم حدث الخروج، وعليه فإن أحداث الدخول، هى تلك التى تبدأ بزمن النبى إبراهيم، وتنتهى بظهور النبى موسى على صفحة الأحداث، حيث يبدأ بعد ذلك حدث الخروج.

ويتضح من رواية التوراة (الكتاب المقدس)، أن تلك الجماعة قد عاشت هذا الطور في حالة من التبدي والارتحال الدائمين، وكان إبراهيم عليه السلام راعياً للمواشي، كذلك كان أبناؤه هبوطاً من إسحق إلى يعقوب، وهو ما يتضح في قول يوسف عندما استقبل أخوته بمصر « .. ثم قال يوسف لأخوته ولبيت أبيه : أصعد وأخبر الفرعون وأقول له : أخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليَّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا **أهل مواشي**، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم، أن تقولوا : عبيدك **أهل مواشي** منذ صبانا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكي تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين تكوين ٤٦ : ٣١ ـ ٣٢ ».

لكن ثمة إشارات غامضة في مصر ما بين يوسف وموسى، غلب عليها حكاية الاضطهاد، لكن عملهم قبل ذلك أيام فرعون يوسف كان رعاية مواشي الفرعون، أو كما جاء بالكتاب المقدس « فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وأخوتك جاءوا إليك أرض مصر، قدامك في أفضل أرض أسكن أباك وأخوتك، ليسكنوا في أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذو وقدره، فاجعلهم رؤساء مواش على التي لي ـ تكوين ٤٧ : ٥،٦ ».

هذا إضافة إلى ما يظهره السرد التوراتي لحياة إبراهيم ونسله في أرض كنعان، وأنها كانت ارتحالاً دائماً وراء الكلأ، حيث تجد النغمة السائدة «ثم ارتحل إبراهيم ارتحالاً متوالياً ــ تكوين ١٢ : ١٩ »، دونما استقرار، فلم يعرفوا سكن البيوت، بل سكنوا في خيام متنقلة، وعادة ما كان الرب يظهر لإبراهيم وهو يقضي القيلولة أمام خيمته «وظهر له الرب عند بلوطات ممرأ، وهو جالس في باب الخيمة، وقت حر النهار ـ تكوين ١٨ : ١٥ ».

ومن الطبيعي أن يستتبع العمل بالرعي هجرات متعددة وراء العشب، وحسب حال الطبيعة من جود أو شح، لذلك كان نزولهم مصر في عهد إبراهيم، وفي عهد يوسف بن يعقوب، وعادة ما كان يسبق تلك الحركة المهاجرة الإشارة إلى نزول جوع بالأرض «وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك ـ تكوين ١٢ : ١٠ »، «وكان الجوع على وجه كل الأرض ... فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه: لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض ؟ وقال : إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر، انزلوا إلى هناك ـ تكوين ـ ٤١ : ٥٦، ٤٢ : ١، ٢ ».

ويبدو من عدة شواهد أخرى، أن أهم مظاهر ثروتهم التى تمثلت فى الأنعام، كانت ثروات عائلية لافردية، ولا قبلية، إنما كانت ملكية عائلية أسرية، فنجد أن لوطاً ابن أخى إبراهيم، له ولأسرته أملاكها من المواشى، ولإبراهيم وأسرته أملاكاً أخرى تخصهم، كذلك الأمر مع أبنائه، بينما كانت أراضى المراعى وآبار المياه ملكية جماعية مشاعية، لكن دون ثبات أو دوام، فكانت المراعى تتعرض للجفاف، والآبار للنضوب، فتنتقل القبلية مع مواشيها، كما حدث فى حال نزولهم إلى مصر، أو فى حال استيلائهم على أرض فلسطين، ولم تكن الفروق كبيرة فى ذلك العهد بين ثروات أسر تلك القبيلة، ولا بين ثروات الأفراد، إلا فى حالات طارئة تزيد فيها الثروة لأسباب أخرى، وهو مثيل ماروته التوراة حول نزول النبى إبراهيم إلى مصر، وما حدث عندما أخذ الفرعون سارة زوجته، "فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال،.. فصعد إبراهم من مصر.. وكان إبرام غنياً جداً فى المواشى والفضة والذهب ـ تكوين ١٢ : ١٦، ١٣ : ١،٢ ". وهو زعم سبق لكثير من الكتاب تناوله وتفنيده، ولا يعنينا منه سوى دلالة غنى أصاب بعض رهط إسرائيل فى مصر، **أما النبى إبراهيم فلا شك يراودنا فى كونه نبياً جليلاً، يترفع ويتنزه عن مثل تلك المزاعم.**

وطوال تلك السطور، نجد التوراة تؤكد وتقرر أن « إيل إله إسرائيل - تكوين ٢٣ : ٢٠ »، وقد ظل (إيل) هو الإله الذى يتردد ذكره طوال الحقبة الممتدة ما بين إبراهيم وموسى، أى بطول سفر التكوين كاملاً، عدا حالات يذكر فيها الإله الموسوى (يهوه) قبل ظهور موسى، بديلاً عن (إيل)، بداخل سفر التكوين، ومعلوم لدى الدارسين أن ذلك لا يعنى معرفة العهد الإبراهيمى للإله (يهوه)، إنما نعرف أن ذلك كان ناتج إدماج روايتين داخل سفر التكوين، رواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب الإيلى، وروايته هى الغالبة فى سفر التكوين، ورواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب اليهوى، لكن مالا يجب أن يفوت القارئ هنا، أن الكلمة (إيل) كانت تأتى فى حالات كثيرة فى صيغة الجمع (إللوهيم) أى الآلهة.

والإله (إيل) فى رواية التوراة، هو الإله الذى يرتبط بمشروع البطاركة للاستيلاء على أرض كنعان، بعد هجرتهم من موطنهم الأصلى - وللأبد ـ إلى فلسطين. وهنا لا نستطيع مجاملة الأحداث أو التاريخ، فقصة المشروع الإبراهيمى للاستيلاء على فلسطين قصة مقدسة، ولا عبرة بتاريخ إنسانى لم يدونها أو يعرف شيئاً عنها، وقد اعتمدت علاقة الإله (إيل) بالمشروع الاستيطانى على قصة توراتية مقدسة، تؤكد أنه الإله الذى أخرجه من مدينة (أور الكلدانيين) موطنه

الأصلى البعيد، وهو الإله الذى اختار له أرض كنعان ومنحه إياها ولنسله من بعده وإلى أبد آبدين، وتتكرر صيغة هذا الميثاق في أكثر من موضع بسفر التكوين، وقد جاءت على الترتيب في عهد النبي إبراهيم كالآتي :

وقال الرب لإبرام : أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه

تكوين ١٢ : ١ ـ ٣.

وبعد هبوطه أرض كنعان :

ظهر الرب لإبراهم وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض

تكوين١٢ : ٧.

إرفع عينيك وانظر من هذا الموضع الذى أنت فيه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الارض التى أنت ترى لك أعطيها لنسلك للأبد، وأجعل نسلك كتراب الأرض

تكوين ١٣ : ١٤ ـ ١٦.

فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً :

لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين

تكوين ١٥ : ١٨ ـ ٢١.

وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم

تكوين ١٧: ٧ ـ ٨.

والمتابع للقصة التوراتية عن الإله (إيل) والنبي (إبراهيم)، يجد نفسه إزاء أسرة صغيرة متواضعة، تتكون من أفرد يعدون على أصابع اليد (إبراهيم وسارة وولديه إسماعيل ثم إسحق، وأسرة ابن أخيه لوط التي تتكون فقط من زوجة وبنتين وللتدقيق نجد الوعد قد اقتصر فقط على إبراهيم وولده اسحق، رجل وزوجته، جاءوا أغراباً لينزلوا أرضاً غريبة (أرض غربتهم بتعبير التوراة)، فيمنحهم (إيل) كل الأرض، ليس قطعة فيها، ولا قرية، ولا حتى مدينة، إنما كل البلاد والممالك الواقعة ما بين نهر مصر وبين نهر الفرات، رغم سكانها الذين عمروها من ألوف السنين، وتم تعدادهم في نص الوعد

(القينيين ، والقنزيين، والقدمونيين، والحيثيين، والفرزيين، والرفائيين، والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين)، والواضح في رواية سفر التكوين، أن تلك الشعوب قد قطعت شوطاً عظيماً في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكونت عدداً من الممالك المستقرة، وجاء ذكر بعضها في الإصحاح الرابع عشر وغيره، مثل مملكة جرار، ومملكة سدوم، ومملكة عمورة، ومملكة أدمة، ومملكة صبويم، ومملكة بالع، ومملكة عمون، ومملكة موآب، ومملكة شاليم، وقد ورد ذكر تلك المملكة الأخيرة مع اسم ملكها بصيغة (ملكي صادق) أو الملك صادق، كما جاء مع مملكة جرار اسم ملكها الفلسطيني (أبيمالك)، كل هذا تعج به الأرض، بينما كان إبراهيم مجرد راع غريب بسيط، صاحب مواشي، وعليه فلا مندوحة في افتراض أن كاتب هذا الجزء من التوراة، الذي كتب بعد زمن النبي إبراهيم بقرون طويلة، قد كتبه بعد أن وصل الإسرائيليون لدرجة من الاقتدار تسمح لهم بهذا الطموح، فتمت ترجمة ذلك الطموح إلى اللغة القدسية، بإعادة القرار بالاستيلاء على فلسطين، إلى علاقة قدسية بالرب (إيل)، والمسألة بذلك تصبح قدراً مقدساً وإلهياً، لا مجال للاعتراض عليه، بحيث تم منح الأرض بأثر رجعي للسلف البعيد إبراهيم، بينما لم يكن قد أنجب أصلاً. مع وعد آخر بأن ذلك النسل سيكون أعظم الأمم، ومن هنا تم تزمين الرواية بزمن النبي إبراهيم لتكتسب قدسية التقادم، وإعمالاً للمبدأ القانوني القائل بوضع اليد المدة

الطويلة المكسبة للملكية، والذى يبدو أنه اليوم ليس سوى توارثاً عن قواعد تلك الأزمان.

وكان المقابل الذى طالبه (إيل) مقابل هذه العطية العظيمة، التى يتم فيها سلب الأرض من أصحابها لصالح القبيلة المغتربة، هو أن يتم الاعتراف به إلهاً للقبيلة، دون الآلهة الأخرى، وكان لابد من توثيق العهد وإشهاره، ليكون التوثيق شاهداً على مر السنين أمام جميع الشعوب منعاً للنزاع، وكان التوثيق هو ان يضع إبراهيم ونسلة علامة الميثاق الشاهدة لتذّكر الأحفاد، فى علامة مميزة هى (الختان)، وذلك نصاً « هذا هو عهدى الذى تحفظون بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن كل ذكر منكم، فتختتنون فى لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بينى وبينكم ـ تكوين ١٧ : ٩ ـ ١١».

أما الغريب فى كل تلك الحكاية، أن الإله (إيل)، الذى منح الغرباء أرض فلسطين، كان إلهاً كنعانياً فلسطينياً أصيلاً فى المنطقة، وفى النصوص يمكنك أن ترى ما يشير إلى أن (إيل) كان غير معروف لإبراهيم عند هبوطه البلاد، وذلك من قبيل القول : وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للإله الذى ظهر له ـ تكوين ١٢ : ٧ »، فالرب هنا غفلاً من التعريف أو المعرفة، فهو رب بين أرباب. لكنه يتميز عنهم بأنه هو « الذى

ظهر له » لذلك قام ذلك الرب يقدم نفسه بالتعريف إلى إبراهيم قـائلاً : « أنا إله بيت إيل ـ تكوين ـ ٣١ : ١٣ »، ومعلوم أن (بيت إيل) مدينة كنعانية مقدسة منذ القدم، وقد دلت الكشوف الأركيولوجية الحديثة على انتشار عبادة (إيل) على نطاق واسع بحسبانه كبير الألهة، فى مناطق الشعوب السامية، فى بلاد كنعان والشام جميعاً، والرافدين وجزيرة العرب وبخاصة جنوبها، بل أنك تلحظ ملحوظة علـى جـانب عظيم من الأهمية سبقت الإشارة إليها، وهو أنه عند هبوط إبراهيم وعائلته أرض كنعـان، يهجر لغته الأصلية الأرامية، إلى لغة الكنعانيين أهل البلاد، أو شفة كنعان بتعبير التوراة.

وقد ظل (إيل) مصاحباً للنسل الإبراهيمى، فإليه ينسب (سمع إيل) أو (إسماعيل) ابن إبراهيم الأكبر، والذى تم استبعاده مـن التركة لأنه ابن جارية مصرية (؟!) وكان (إيل) هو الذى بشر سارة بابنها إسحق، الذى أنجب ولدين هما (عيسو) و (يعقوب)، وتم استبعاد عيسو بدوره من الميراث لتبقى التركة خالصة ليعقوب، الذى كان على علاقة متميزة بالإله إيل، فقد ظهر له عدة مرات كان أهمها وأشدها حسماً، اللقاء الذى تم فيه اختبار قوة يعقوب بمصارعته جسدياً، وتبديل اسمه من يعقوب إلى (إسرائيل)، ومن ثم أعاد (إيل) تأكيد الوعد الموثق بقوله ليعقوب : « أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله

إسحق، والأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ـ تكوين ـ ٢٨ : ١٣، ١٤ ». وبهذا استمر الوعد لإسرائيل (يعقوب) وبنيه الأسباط الإثنى عشر (رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، نفتالى، جاد، أشير، يساكر، زبولون، بنيامين، يوسف)، الذين هبطوا مصر، وعاشوا هناك زمناً كان كفيلاً بنسيان (إيل)، وربما عبدوا هناك آلهة المصريين، ولما جاءهم موسى عليه السلام بعبادة الإله الجديد (يهوه) من بلاد (مديان)، وأخبرهم أنه إله أجدادهم الذى كان يعبد فى كنعان، لم يجدوا غضاضة فى قبوله على الفور، دون تمحيص أو تشكك أو حتى محاولة للتأكد.

وبعد ذلك، تنقلنا التوراة نقلة أخرى، إلى أحداث أخرى، تبدأ بقصة تفضيل يعقوب لولده يوسف، مما أثار حقدهم وموجدتهم، وبحيث لجأوا إلى مؤامرة للتخلص منه، وهنا محاولة تصفية أخرى تقوم بها التوراة لصالح قبيلة (راحيل) أى قبيلة يوسف، عن قبائل الأسباط الأخرى، لكنها هنا يبدو قد اصطدمت بواقع تحالف مجموعة القبائل التى شكلت ما يسمى بالجماعة الإسرائيلية، ولم يكن هناك مناص من قبولهم واستبقائهم، خاصة أن النبى الآتى (موسى) لن يكون من سبط يوسف، إنما من سبط لاوى.

وهكذا، بدأ الدخول بيوسف بن إسرائيل الجميل، صاحب الأحلام، تلك الأحلام إلى أزعجت إخوته بشدة، ورأى فيها يوسف إخوته (رمزاً) مع والديه يسجدون له، حتى قالوا له : « ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً ـ تكوين ـ ٣٧ : ٨ »، لكن سير أحداث القصة بعد ذلك، يشير إلى أن أحلام الصبي قد تحققت بحذافيرها، وأن يوسف سيصير في عليين، وأن أهله سيسجدون له فعلاً، لكن في بلاد النيل، حيث تتابع الرواية سردها للأحداث فتقول:

وأما يوسف، فأنزل إلى مصر، واشتراه فوطيفار، خصي فرعون رئيس الشرطة، رجل مصري، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه هناك، وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً، وكان في بيت سيده المصري.. فوجد يوسف نعمة في عينه ، وخدمه، فوكله على بيته، ودفع إلى يده كل ما كان له، .. والرب بارك بيت المصري بسبب يوسف..

ثم فجأة، وبلا مناسبة، تقول الرواية المقدسة : «وكان يوسف حسن الصورة، وحسن المنظر »، توطئة للتعريف بنساء المصريين، فإن « امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف، وقالت اضطجع معي، فأبى »، واستمر يوسف يتأبى على سيدة القصر حتى كان يوم « أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه قائلة : اضطجع معي، فترك ثوبه في

يدها وهرب »، فما كان من المرأة التي شبقت بالاشتهاء إلا أن «نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا، قد أتي إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخ أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج ـ التكوين ـ ٣٩ ».

ويغض النظر عن الثغرات في إخراج الدراما والتي ملأتها الرواية القرآنية بأنه بدوره قد (هم بها)، والتناقض ما بين خلو البيت تماماً «لم يكن إنسان من أهل البيت هناك »، وبين صرخة واحدة فإذا أهل الدار كلهم إلى غرفتها محضرين، فإن مآل يوسف الحتمي كان السجن، وهو حكم لا شك يهون مقارناً بمواقف بني إسرائيل من قضايا مشابهة كان القضاء المبرم فيها هو الإعدام، دون تثبيت من صحة الواقعة بالبراءة أو ثبوت التهمة، فكان قرار سيد الدار المصري مقابل مثيله لدى بني إسرائيل قراراً يتسم بالحيطة مشفوعة بالرحمة مغلفة برغبة في التغطية على فضحية، كان يمكن أن تفشو ـ وقد فشت ـ لو تحدث عنها (يوسف) مع رفاق سجنه.

واستمر يوسف في علاقته الحميمة بالأحلام وهو رهين حبسه، ولكنه هذه المرة لم يكن حالماً، إنما مفسراً للأحلام، وصدق تفسيره لأحلام رفاق السجن، وتنبأ لأحدهم ـ وهو ساقي الفرعون ـ أنه سيبرأ،

ويتبوأ مكانه مرة أخرى بعد ثلاثة أيام من رؤياه، بينما تنبأ لآخرين بمصير سيء بالإعدام، وهو ما يشير إلى لون من المحاكمات القضائية المقننة، فتبرئ وتجازى وفق قواعد محددة، وكان ما قاله يوسف محققاً في الواقع.

ثم تأتي الرواية المشهورة عن حلم فرعون بالبقرات السبع العجاف، تأكل السبع السمان، والسنابل الملفوحة بالريح الشرقية، تلتهم السنابل السمينة الممتلئة، وعندما يطلب الفرعون المفسرين، يتذكر الساقي (يوسف) كأعظم مفسر للأحلام، فيخبر الفرعون، فيحضرون إلى البلاط، ويتقدم يوسف بتفسيره لسيد مصر:

> فقال يوسف لفرعون : حلم فرعون واحد، قد أخبر الله فرعون بما هو صانع، البقرات السبع هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين .. هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً.

ثم يوجه يوسف النصيحة للفرعون :

> فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً، وحكيماً يجعله على أرض مصر في سبع سنين الشبع.. ويأخذ خمس غلة الأرض.. فيجمعون جميع طعام هذه

السنين الجيدة القادمة، ويخزنــون قمحــاً تحــت يــد
فرعــون.. فيكــون الطعــام ذخــيرة لــلأرض لســبع
سنى الجوع.

وكــانت نتيجــة موهبــة يوسف الفريدة فــي تفســير الأحــلام أن قدرت له تحقيق أحلامه هو بعد ذلك، وهو مــا ســجلته روايــة المقدس فى قولها :

فحسن الكلام فى عينــي فرعون، وفــي عيون جميع
عبيده، فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجــلاً
فيه روح الله؟ ثم قال فرعون ليوسف: بعدمــا أعلمك
الله كل هذا، ليــس بصــير وحكيم مثلك، أنت تكــون
علــى بيتــى، وعلــى فمك يقبل جميع شــعبى، إلا أن
الكرســي أكون فيــه أعظــم منــك، ثــم قــال فرعــون
ليوســف: أنظــر، قد جعلتك علــى كل أرض مصــر،
وخلع فرعون خاتمه من يده وجلعه فى يد يوســف،..
وأركبه في مركبتــه الثانيــة، ونــادوا أمامــه: اركعــوا.
وقال فرعون ليوســف.. بدونك لا يرفع إنسان يده ولا
رجلــه فــي كل أرض مصــر، ودعــا فرعــون يوســف
صــفنــات فعنيــح، وأعطــاه أسنــات بنت فوطــى فــارع
كاهن أون زوجة .. تكون ٤١.

وكان تولى يوسف أمر خزانة مصر وشؤونها الأقتصادية، مدعاة لدخول تغييرات جوهرية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المعمول بها في البلاد، فبعد أن كان الناس أحراراً، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة، وبعد أن كانوا يملكون أراضيهم وغلالهم أحراراً فيها، «إشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاه،.. فقال يوسف للشعب : إنى اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض، ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون.. فقالوا : أحييتنا، ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي، فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم - تكوين ٤٨ : ٢٠ - ٢٦ »، وكان من المفهوم كيف تحول بعد ذلك فرعون مصر أو الفراعين عموماً، وبعدما كان الفرعون يشهد لله، وبأن الإله هذا هو الذى يمنح العبد علمه «بعدما أعلمك الله كل هذا »، فامتلك الفرعون الناس والأرض، تغيرت الأحوال، من سلطان محكوم بالقواعد، إلى سلطان مطلق النفوذ، يدعى الألوهية فيما بعد، وهو أمر يترتب على رواية التوراة، وإن كان التوراة لاينبنى على حقائق التاريخ.

أما كيف تحققت أحلام الصبي بعد اليفوع، وكيف سجد له الأحد عشر كوكباً، فهو ما تخبرنا به رواية المقدس، التي تؤكد أن الجوع لم يكن في مصر وحدها، والتي أمنت على نفسها بالحكمة اليوسفية، إنما كان الجوع شاملاً، فقد حل القحط بيعقوب وبنيه في بداوتهم، وحل بهم الشظف في سني المجاعة السبعة « فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه ـ إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر، إنزلوا هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت، فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا، لأن الجوع كان في أرض كنعان ـ التكوين ٤٢ ».

وبنزولهم مصر كان اللقاء مع سيد الخزانة، ثم التعارف، ثم إعلان يوسف لإخوته الذين بغوا عليه صغيراً « أنا يوسف، أحَيٌّ أبي بعد؟.. أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر.. فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا، بل الله، وهو جعلني أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر، أسرعوا وأصعدوا إلى أبي، وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: قد جعلني الله سيداً لكل مصر، إنزل إليَّ فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني.. وقال فرعون ليوسف قل لإخوتك.. خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، وتأكلوا دسم الأرض.. ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن

خيرات جميع أرض مصر لكم ـ تكوين ٤٥ "، "وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التي أتت إلى مصر سبعون، " فاسكن يوسف " أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً في أرض مصر، في أفضل الأرض، في أرض رعمسيس، كما أمر فرعون ـ تكوين ٤٧ ".

وفي مصر، أنجب يوسف من زوجته المصرية (أسنات) ولديه " منسى وإفرايم ـ تكوين ٤١ "، وبعد زمن مات يعقوب " وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل، وكمل له أربعون يوماً، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوماً ـ تكوين ٥٠ ".

وعاش يوسف مئة وعشر سنين " وقال يوسف لإخوته : أنا أموت، لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، فحنطوه ووضعوه في تابوت في مصر ـ تكوين ٥٠ ". وبموت يوسف ينتهي الطور الإبراهيمي المرتبط بالإله الأكبر (إيل).

وهنا ملحوظات سبق أن نبهنا إليها، لأنها أثارت بعد ذلك عدداً من الإشكاليات، ففي قصة التوراة نجد ذكراً لأسماء مصرية مثل (فوطي فا رع)، وهو اسم مركب يدخل فيه اسم إله الشمس المصرى الأكبر (رع)، كذلك نعلم من الرواية أن (فوطى فا رع) كان كاهناً لمدينة (أون) كذلك يرد اسم مدينة (رعمسيس)، ومثل تلك الإشارات أضفى على رواية التوراة بعض المصداقية، ويشير إلى معرفة واضحة للنص التوراتى لمصر فى عهدها القديم، أو على الأقل معرفة كاتب ذلك الجزء من التوراة بمصر فى عصرها الذهبى، وهى الإشارات التى أدت بنا فى بحث بين أيدينا الآن (النبى موسى...) مع إشارات أخرى كثيرة، إلى تأكدنا اليقين من دخول بنى إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، دون أى شك فى ارتكابنا خطأ علمى بهذا اليقين.

والمسألة بالطبع، ولا تخاذ ذلك الموقف، لم تكن بالبساطة التى فى عجالتنا هنا، حيث كانت الإشكاليات شديدة التعقيد، وكثيفة الروافد والمتشابكات، وربما كان أبرزها وأشدها إثارة للتضارب بين المدارس البحثية، هو أن التوراة رغم استخدامها اصطلاحات وأسماء مصرية قديمة، وذكرها لعادات مصرية لم نكن على علم بها قبل كشف رموز اللغة القديمة، كطقوس الدفن، وعدد أيام التحنيط، وعدد أيام ندب الميت.. إلخ، فإن التوراة جاءت عند أمور هامة وخطيرة

وتجاوزتها، وبشكل يفصح عن جهل تام ومطبق بها، رغم أنها أكثر المسائل حدّية وفصلاً وقطعاً فى أهم نقاط ذلك التاريخ الفاصلة، وذلك مثل عدم ذكرها لاسم فرعون الدخول (فرعون يوسف)، ولا اسم فرعون الخروج (فرعون موسى)، ولا سنة الدخول، ولا عام الخروج، ولا أى علامات يمكن تزمينها وفك دلالاتها، رغم اهتمامها بذكر ما هو أقل أهمية بالمقارنة، مثل اسم وزير الشرطة أو كاهن أون وابنته، والأمر كله مرهون بما يمكن أن نصل فيه إلى رأى يمكن الإفصاح عنه عند الانتهاء من البحث فى كتابنا المشار إليه، أو بما يمكن أن ينتهى إليه باحث مجتهد قبلنا.

أحداث الخروج

(فى الطور اليهوى الموسوى):

ينقلنا المقدس التوراتى هنا نقلة أخرى فاصلة ومتميزة تماماً فى مضامينها ودلالاتها وتحولاتها التاريخية والعقدية، بادئاً بالإشارة الهامة « بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا كثيراً وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس خروج ١ : ١ ــ ١١».

وهكذا نعلم أن فرعون يوسف قد مات، أو انتهى أمره بشكل ما، ليخلفه على العرش فرعون آخر، تحول بنو إسرائيل فى عهده من التكريم والسيادة، وأكل دسم الأرض، إلى التسخير فى طين الأرض، لأن الفرعون الجديد لم يكن يعرف يوسف!!، واستعبدهم فى بناء مدينتين للمخازن هما (فيثوم) و(رعمسيس)، وكان واضحاً أنه يحمل روحاً عدائية شديدة، وشكاً فى علاقات الإسرائيليين بأعداء البلاد، مع

رغبة واضحة في الانتقام منهم، لأمر غير واضح بالكتاب المقدس، حتى أنه أمر بقتل كل ذكر يولد من بينهم « إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيا.. كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها ـ خروج ١ : ١٦،٢٢ ».

وفي ظل هذه الأزمة ولد (موسى) أشهر رجل في تاريخ بني إسرائيل، وهو (موسى بن عمران بن قهات بن لاوى)، ولاوى هو أحد الأسباط أبناء يعقوب إسرائيل، وذلك يعني أن موسى هو النسل الرابع ليعقوب، وقد انجبه عمران بزواجه من عمته (يوكابد)، وأنجب منها أيضاً هارون أخيه الأكبر، وشقيقتهما مريم ــ خروج ٦ : ١٤ ــ ٢٠، ورغم أن التوراة تؤكد لنا مسألة قتل ذكور الإسرائيليين من أطفال، فإنها لم توضح لنا كيف نجى هارون من هذا المصير، وإن فصلت أمر نجاة موسى، حيث وضعته أمه في سفط من البردي على حافة النهر، خوفاً عليه من القتل ، وعثرت عليه ابنة فرعون، فرقّت له رغم علمها أنه طفل إسرائيلي وتبنته، وأرسلته مع أمه كمرضعة له بالأجر، « ولما كبر الود جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت إني انتشلته من الماء ــ خروج ٢ : ١٠ ».

وقد تعامل (سيجموند فرويد) مع اسم (موسى) كما تعامل جيمس هنرى برستد)، وأكد أنه اسم مصرى، وأنه بالترجمة الدقيقة يجب نطقه صحيحاً (مس)، ومن ثم افترضوا أنه كان يسبقه اسم إله مصرى، باعتبار (مس) فى المصرية القديمة تعنى (يلد) أو (أنجب) غراراً على أسماء مثل (تحوت مس) أى الإله تحوت انجب ولداً، و (رع مس) أى إله الشمس انجب ولداً، و(أح مس) أى إله القمر أنجب ولداً، لكن من جانبنا نرى ترجمة (موسى) بهذا الشكل متسرعة وغير دقيقة، ولو دققنا النظر فى رواية التوراة، سنجد القول " ودعت اسمه موسى قائلة: إنى انتشلته من الماء " لا يحتاج إلى تخريجات، لأن (الماء) باللسان المصرى القديم (مو)[1] ، وبذات اللسان نجد (سا) تعنى (ابن)[2] ، والإسم هنا ملصق من مقطعين ويفيد معناه (ابن الماء)، وهو اسم يتناسب مع الموقف حيث وجدته ابنة الفرعون فى سفطه على سطح الماء، ولم تجد اسماً يناسبه — وهى لا تعلم له نسباً — سوى تلك التسمية البليغة، وهى بدورها تسمية مصرية قحة.

ونتابع الأحداث مع رواية التوراة فتقول :

---

(١) أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خطوطها وأهم إشاراتها، د.ت، د.ن، ص ٨٣ (الكتاب تعليمى للهيروغليفية، ولا علاقة له بقصة النبى موسى).

(٢) نفسه : ص ٨٢.

وحدث في تلك الأيام، لما كبر موسى، أنه خرج إلى إخوته لينظر في اثقالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد، فقتل المصرى وطمره في الرمل، ثم خرج في اليوم الثانى، وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال : من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصرى؟ فخاف موسى وقال : حقاً قد عُرف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون، وسكن في أرض مديان، وجلس عند البئر، وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وانجدهن وسقى غنمهن، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن في المجئ اليوم؟ فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة، وأنه استقى لنا أيضاً، وسقى الغنم، فقال لبناته : وأين هو؟ لماذا تركتن الرجل؟ إدعونه ليأكل طعاماً، فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته

خروج ٢ : ١٦ ـ ٢١

وفـي مديـان يـأتي الحـدث الأهـم والجديـد، فـي شـؤون العقيـدة الإسرائيلية، حيث يظهر لبنى إسرائيل إلـه جديد، يلتقى بموسـى فـى مديـان وهـو يرعـى غنـم حميـه (رَعوئيـل) أو (يـثرون)، وذلـك فـى رواية المقدس :

وأمـا موسـى فكـان يرعـى غنـم يـثرون حميـه كـاهن مديان، فساق الغنم إلـى مـا وراء البريـة، وجـاء إلـى جبال الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نـار من وسط عليقـة، فنظـروا وإذا العليقـة تتوقـد بالنـار، والعليقة لم تكن تحترق.. ناداه الله مـن وسـط العليقـة وقـال : .. اخلـع حذائـك مـن رجليك، لأن الموضـع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال : أنـا إلـه أبيك، إله إبراهيم وإله إسحق وإلـه يعقـوب.. إنـى قد رايت مذلة شعبي الذى فـى مصـر.. فنزلت لأنقذهـم من ايدى المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلـى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنـاً وعسـلاً، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين.. فـالآن هلـم فأرسـلك إلـى فرعون وتخـرج شعبي بنـى إسرائيل مـن مصـر..

فقال موسى لله: ها انا اتى إلى بنى إسرائيل، واقول لهم : إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا لى ما أسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى : إهيه الذى إهيه، وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل: إهيه أرسلنى إليكم وقال الله أيضاً لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل : يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد

خروج ٣ : ١ ــ ١٥ .

قل لبنى إسرائيل أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، واتخذكم لى شعباً وأكون لكم إلهاً .

خروج ٦ : ٦، ٧.

وهكذا التقى موسى الإله (إهيه) أو (يهوه)، وفى موضع آخر بالمقدس يأتى اسمه (ياه) أنظر (مزامير ــ ٤٨)، ويلاحظ أن كاتب هذا الجزء، يصر على أن هذا الإله كان إلها لإبراهيم وإسحق ويعقوب، إصراراً لا يبرره إلا محاولة تثبيت أمر جديد بإلقائه فى القديم، ولا يلتقى مع عدم معرفة بنى إسرائيل بمصر لهذا الإله

أو اسمه، مع استعدادهم بحكم تعاملهم فى مصر مع آلهة عديدة لقبول الإله الجديد، فقط سيكون التساؤل عن اسمه (؟!)، ناهيك عن كونه لا يلتقى إطلاقاً ولا حتى فونيطيقياً بالإله (إيل)، لذلك نجد موسى يتشكك فى إمكان قبول بنى إسرائيل لذلك الإله فى قوله ليهوه : « ولكن، هاهم لايصدقوننى ولا يسمعون لقولى ـ خروج ٤ :١ »، فيعطيه يهوه دلائل إقناع إعجازية لم تظهر من قبل مع (إيل)، « فقال له الرب. ما هذه فى يدك ؟ فقال عصا، فقال اطرحها للأرض، فطرحها إلى الأرض فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى: مد يدك وامسك بذنبها، فمد يده وأمسك به فصارت عصا فى يده.. ثم قال الرب أيضاً : أدخل يدك فى عبك، فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج، ثم قال له : رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى عادت مثل جسده ـ خروج ٤ : ٢ ، ٧ »، أما الفاصل فى شأن يهوه كإله جديد، فيأتى فى عبارة ملتوية للكاتب التوراتى تفصح بجلاء فى قول يهوه لموسى : « أنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شئ، وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم ـ خروج ٦: ٢،٣ ».

ويخبر يهوه كليمه أن الخطر فى مصر قد زال عنه « لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك ـ خروج ٤ : ١٩»، ولما

احتج موسى لربه أنه لن يستطيع مجادلة الفرعون الجديد، في أمر خروج بني إسرائيل من مصر، لأنه « ثقيل الفم واللسان ــ خروج ٤ : ١٠»، و « أغلف الشفتين ــ خروج ٦ : ١٢»، فإنه يدعمه بأخيه هارون ، ويتجه الأخوان للقاء الفرعون الذى لا تحدده الرواية.

« وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل : أطلق شعبي ليُعَيد لي في البرية، فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا له : إله العبرانيين. فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية، ونذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف، فقال لهما ملك مصر : لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعمالهما؟ إذهبا إلى أثقالكما ــ خروج ٥ : ١ ــ ٤ ».

وكان رد رب موسى :

الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان، أرض غربتهم التى تغربوا منها خروج ٦ : ١ ــ ٤.

والواضح هنا محاولة ربط التوراة بين الوعد القديم لإبراهيم من الإله إيل، وبين قبيلة راحيل أو بني إسرائيل المقيمين بمصر والإله الجديد يهوه، ولا تخفى على لبيب إشارة التوراة التأكيدية المتكررة، أن أرض فلسطين بالنسبة لبني إسرائيل هي أرض غربة لا أرضاً أصلية لهم.

ثم تتتالى الأحداث متمثلة في معجزات متتالية، تفسرها حالة الانتقال البشرى من التعامل مع الطبيعة كآلهة إلى آلهة مفارقة ومنفصلة عن الظواهر، ومن صيغة الأسطورة إلى صيغة الدين، وحيث كان السحر هو منهج الفكر الأسطورى وأداته الفعالة للتعامل مع الظواهر، وحيث أنه ما كان ممكناً للدين أن يبدأ من لا شيء، فقد دخل السحر في متن أدوات الدين والمنهج الجديد، وذلك قبل أن يتجاوز فيما بعد، ويحاول التخلص منه ويدينه ويستنكره، ومن ثم استخدم الدين الطالع ذات الأدوات وذات المناهج السحرية القديمة، فأمر يهوه موسى أن يطرح عصاه أمام فرعون، لإثبات أن يهوه أشد سحراً وأقوى أثراً من سحرة الأساطير ومن الطبيعة، فتتحول العصا إلى ثعبان، فيستدعي فرعون مصر حكماء بلاده وسحرتهم فيفعلون الأمر ذاته، لكن السحر الجديد، يتسم بقدرة سترفع الأمر من مجال السحر والأسطورة، إلى مجال السحر والدين، كمرحلة انتقالية بشعائر وطقوس تضع المطلوب كله بيد الرب المفارق المتجرد، لكن تثبيت

البداية الجديدة، تمت بذات الأسلوب القديم، فابتلعت عصا موسى عِصيّ المصريين (خروج ٧ : ٩ ـ ١٢).

ثم يلي ذلك مجموعة من الممارسات السحرية في ثوب إعجازى، يبدو صراعاً بين أسلوبين من الحياة، أو بين أدلوجتين مختلفتين، بل ومتنافرتين، وتتحول العصا (عصا الراعى) إلى أداة فعالة في يد النهج الرعوي، لرأب صدع نفسى إزاء أهل الخصب، تلك الحالة النفسية التي كثيراً ما غذتها حاجة البدو الدائمة للانتجاع على حدود البلاد المستقرة حول الأنهار، طلباً للقوت، والإغارة في أحيان كثيرة على تلك الحدود، لسلب المحصول بعد جمعه، بشكل دوري سجله لنا التاريخ، ومن هنا يقوم يهوه بتدمير كل مظاهر الخصب والنماء، في الضربة الأولى للمصريين:

> قال الرب لموسى : قل لهارون : خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين، وعلى سواقيهم، وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياهم لتصير دماً، فيكون دم من كل أرض مصر فتحول كل الماء الذى في النهر دماً، ومات السمك الذى في النهر وكان الدم في كل أرض مصر.. وحفر جميع المصريين حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر

خروج ٧ : ١٩ ـ ٢٤.

وهكذا ينتقل الصـراع إلـى تدمير عصـب الخصـب ممثلاً فـى النهر، وتتحول عن كونها محاولة للخروج والتمرد يقودها موسى أمام فرعون، إلـى عقاب جماعي يصيب كـل شعب مصـر، النقمـة هنـا تتحـول لكيـان المجتمـع كلـه، فتـأتي الضربـة الثانيـة مـن يهوه لمصر :

> ثم قال الرب لموسى: قل لهارون : مُد يـدك بعصـاك علـى الأنهـار والسواقي والأجـام، وأصعد الضفـادع علـى أرض مصر ... فصعدت الضفـادع وغطـت أرض مصر
>
> خروج ٨ : ٥ ، ٦.

ويتبعها مباشرة بالضربة الثالثة :

> ثم قـال الـرب لموسى قـل لهـارون : مـد عصـاك واضرب تراب مصر ليصير بعوضـاً فـى جميـع أرض مصر
>
> خروج ٨ : ١٦.

كذلك تأتي الضربة الرابعة ضربة حشرية بدورها :

قال الرب لموسى : بكر في الصباح وقف أمام فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له : هكذا يقول الرب : أطلق الشعب ليعبدوني، فإنه إن كنت لا تطلق شعبي، ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت المصريين، ذباباً.. ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم، حتى لا يكون هناك ذبان، لكي تعلم أني أنا الرب في أرض، وأجعل فرقاً بين شعبي وشعبك

خروج ٨ : ٢٠ ـ ٢٤.

ثم ينقل يهوه ضرباته من الحرب الحشرية إلى الحرب الجرثومية، بدءاً من الضربة الخامسة :

فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، وباء ثقيلاً جداً، ويميز الرب بين مواشي إسرائيل ومواشي المصريين .. فماتت جميع مواشي المصريين، وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها واحد

خروج ٩ : ٣ ـ ٦.

كذلك جاءت الضربة السادسة جرثومية بيولوجية بدورها:

ثم قال الرب لموسى وهارون : خذ ملء أيديكما من رماد الأتون، وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون، ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر

خروج ٩ : ٨ ـ ١٠.

وبضربته السابعة، يتحول يهوه نحو الطبيعة مرة أخرى، ليجعل خيرها نقمة :

ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء ليكون برداً في كل أرض مصر.. فأعطى الرب رعوداً وبرداً، وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد، شئ عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر، منذ صارت أمة فضرب كل أرض مصر، جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد

خروج ٩: ٢٢ ـ ٢٦.

ورغم كل ذلك الدمار والهلاك، يظل الفرعون مصراً على عدم إطلاق بني إسرائيل، ويعود يهوه إلى الحرب الحشرية، ليقضي تماماً على بقايا أي أثر للخصب في أرض مصر، فبعد البرد الذي قضى على الشجر ونبات الحقل، تأتي الضربة الثامنة في أمره لموسى :

مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد على أرض مصر، ويأكل عشب الأرض، كل ما تركه البرد، فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض مصر، وحل في جميع تخوم مصر، شئ ثقيل جداً، لم يكن قبله جراد هكذا مثله، ولا يكون بعده كذلك وغطى وجه الأرض حتى أظلمت الأرض، وأكل جميع عشب الأرض، وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد، حتى لم يبق شئ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل، في كل أرض مصر

خروج ١٠ : ١٢ ـ ١٥.

ولم يكتف يهوه بذلك مع إصرار الفرعون على موقفه، فعاد يقلب ظواهر الطبيعة بضربته التاسعة :

ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء، ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلمس الظلام، فمد يده نحو السماء، فكان ظلام دامس في كل أرض مصر، ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم

خروج ١٠: ٢١ ـ ٢٣.

وتبقى الضربة العاشرة، والقاضية، التي ستجبر فرعون على إطلاق شعب الرب، وقبلها يقول لموسى :

ضربة واحدة أيضاً. بعد ذلك يطلقكم من هنا، **وعندما يطلقكم يطردكم طرداً** من هنا بالتمام، تكلم في مسامع الشعب أن **يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة من صاحبتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين**

خروج ١١ : ١ ـ ٣.

هنا نعلم أن الإسرائيليين كانوا يقيمون وسط المصريين، ولا نعلم كيف أصابت كل تلك الضربات المصريين دون الإسرائيليين، لكن الأهم هنا هو إيعاز الرب لموسى بأن الفرعون ـ مع الضربة القادمة ـ سيطلق بنى إسرائيل، لذلك كان عليهم رجالاً ونساء أن يطلبوا من أصدقائهم (اصحابهم) المصريين، ذهبهم وفضتهم، مما يشير فى جانب آخر إلى مودة من المصريين للغرباء المقيمين بينهم، مما يجعل التساؤل عن ضرب شعب مصر بكل تلك الضربات ومبرراتها سؤالاً مشروعاً، أما أن يأمن المصريون للغربان، ويعطونهم ذهبهم وفضتهم إعارة فذلك يضع أمامنا موقفهم موقفاً نبيلاً، ويدعو للتشكك فى قصة تلك الضربات جميعاً من أصلها.

وتأتى الضربة العاشرة، ويهبط يهوه بنفسه ليقتل بيده كل بكر من أبناء مصر:

> وقال موسى : هكذا يقول الرب : أنى نحو منتصف الليل، أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر

خروج ١١ : ٤ ـ ٦.

ويأمر يهوه شعبه أن يلطخ كل منهم عتبة بيته بدم الخراف، ليميزوها عن بيوت المصريين، قبل وقوع ضربة قتل الأبكار، أما السبب فهو كي :

> يكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب كل ارض مصر ـ خروج.

وهنا تأكيد آخر للتغشي في السكنى للإسرائيليين بين المصريين، أما الأهم، فهو أن يهوه يعلم هنا أنه سيصاب بلوثة القتل، وأنه لن يميز في تلك الحال بين بيوت جماعته وبين بيوت المصريين، إلا إذا رأى دماً على البيوت، تلك الدماء التى ستوعز له أنه قد أنتهى من أمر سكانه وقتل أبكاره، فيعبر عن تلك البيوت ولا يصيبها، وهو في حالة التخبط في دماء المصريين، وفي تلك الليلة، حيث «كان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت ـ خروج ١٢ : ٣٠» تقرر خروج بنى إسرائيل، دون عزاء لأصحابهم من مصريين، لكنهم قبل تلك الضربة، التى مارس فيها يهوه نزوته الدموية :

> فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى

اعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل إسرائيل
من رعمسيس

خروج ١٢ : ٣٥ ـ ٣٧.

وتأتي الضربة الحادية عشر عندما قام ملك مصر وجيشه يطارد الهاربين، حتى أدركوهم عند بحر سوف، وهنا كانت المعجزة الكبرى:

ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وأنشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.. فمد موسى يده على البحر، فرجع البخار عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين في وسط البحر — خروج ١٤ : ٢٧. (وبعد الخروج) كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيئ لهم، لكي يمشوا ليلاً ونهاراً

خروج ١٣ : ١١.

وعلى قصة الخروج تلك، بكل تفاصيلها، أقام الباحث الصهيونى إيمانويل فليكوفسكى عمله الهائل، الذى انتهى فيه إلى تأكيد كل الأحداث التى روتها التوراة، بكل تفاصيل ضربات يهوه ومعجزاته التي صاحبت الخروج، وهو الأمر الذى يرضى الجانب الإيمانى ليس فقط عند أصحاب يهوه إنما لدى المسيحيين، بل والمسلمين بدورهم، فهو يشرح لهم عملية إنشقاق البحر وتاريخيته، وما رافقه من قبل ومن بعد، من أحداث كسرت قوانين الطبيعة وقواعد الكون الثابتة، لكنه يأخذ الجميع فى سلة واحدة، بعد تأسيس المقدمات العلمية للقواعد الإيمانية، إلى نتائج لا بد من التسليم بها إذا كانوا متسقين مع إيمانهم ومع أنفسهم، وهى نتائج أبعد ما تكون عن أمانينا الوطنية والقومية، وإذا كان ثمة شرخ أصيل فى الذات، ما بين بعض المقررات الإيمانية التى تتناول بنى إسرائيل، وما بين الأمانى الوطنية والقومية، فإن فليكوفسكى لا يفعل شيئاً سوى وضع القواعد الإيمانية على محك العلمية، يثبت صدقها الكامل، ولا يبقى لدى قارئ طيب النوايا سوى الأخذ بالكفة الراجحة إيمانياً، وهو تسليم رسم له فليكوفسكى خطته ببراعة إلى محطة الوصول، بحيث يصادق الجميع من خلال عقائدهم على حق إسرائيل التاريخى، فى التاريخ، وفى الأرض، بل وفى صفتهم كشعب فضله الله على العالمين.

أما نحن، فلا بأس عندنا فـي البحـث عـن أسـس تلـك الأحـداث التي روتها التوراة والتي اكتست بثوب الإبهار الإعجازي في التـاريخ الإسرائيلي، ولا بأس لدينا، ولا علينا، إن وجدنا لها تبريراً لا يصـادم العقائد الثابتة، لكن دون افتئات على حقـائق التـاريخ وعلميـة المنهـج، وبغـرض وضـع ذلـك التـاريخ وتلـك الأحـداث فـي حجمهـا الصـحيـح ومقامها الفعلي من التاريخ، وهو ما نسعى وراءه الآن في بحـث بيـن أيدينا، ولا نعتقد أن الانتهاء منه يسير أو حتى قريب، وهو كما أشـرنـا بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نستطيع هنا الإدلاء بشهادت حول الأجـزاء التـي انتهينـا منهـا، لوضـع فرضيـات وقرائـن نتـاطح بها فليكوفسكي، فـالعمل لازال مشـروعاً قـابلاً للتعديـل كـل لحظة، فقط أردنـا هنـا القـول : إنـه بالإمكـان حـل إشـكاليات التـاريخ الإسرائيلي، ليـس بـنزوع عنصــري، إنمـا بغـرض علمـي تمامـاً، لا يسـتطيع أحـد أن يصــادر عليــه، وذلـك بالتعـامل مـع الأحـدث الإعجازية في ذلك التاريخ، باعتبارها مواداً قابلة للفحص، والإمسـاك بهـا، بحيـث يمكـن ضبطهـا ضبطـاً دقيقـاً، يضـعها فـي حجمهـا، دون إهمال بعضـها لصـالح بعض، أو تضـخيمها لتتحول إلى كتلـة ضاغطـة على ضميرنـا الوطني وحسنا القومي، الذي ربما كان يبحـث بعصبيـة وتوتر، عن مفاضلة قد تجرح بعد المقـررات الإيمانيـة التـي لا يصـح جرحها، و تصـادم في جانب آخر تطلعـات وطنيـة وقوميـة مشـروعة

بدورها ولا يصح التنازل عنها، كالمفاضلة بين شعب مصر القديم وتاريخه العريق وفراعنته، وبين جماعة إسرائيل التى اتسمت بالقداسة وامتلكت أنبياء ومعجزات ثابتة أقرتها الأديان التالية لهم كما حظيت بعلاقة خاصة بالإله ، سمحت بمنحهم تلك المنح والأعطيات، أوالمفاضلة بين ملوك إسرائيل وجماعتها، وبين ملوك كنعان وشعبها الفلسطينى، وهى المفاضلة التى يمكن أن تؤرق الضمير الوطنى، أو تجرح الحس العقائدى، فى حال لزوم الاختيار ما بين فرعون وموسى، أو المصريين والإسرائيليين، وكذلك ما بين جالوت وداود، أو الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم نسير بهدوء فى بحثنا المشار إليه، دون استعجال قبل تحقق واستبانة، لنقرأ حقائق الأحداث التى جرت على أرض مصر، وتحولت من أحداث مجتمعية وسياسية، وصراعات طبقية وقومية، ورافقتها ـ ربما ـ ظواهر طبيعية، إلى ورم هائل يجثم على صدر تاريخ العالم وضميره، لكن ذلك كله شئ، وتأجيل التعامل مع كتاب فليكوفسكي شئ آخر، لا يقبل الإرجاء، وما على قارئنا إلا أن يشمر عن همته، لنتابع معاً تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، وممكناتنا فى التعامل معها، فى بابنا الثالث (التضليل).

الباب الثالث

التضليـل

التأسيس

تأسيس ـ ١ ـ

ربما سمحت لي علاقة امتدت زمناً بالتراث القديم للمنطقة أن أجازف بالزعم : أنه إذا كان النبي (موسى) ـ حسب المأثور التوراتي ـ هو المؤسس الحقيقي للديانة اليهودية، والعقدة الرابطة للقبائل التي ائتلفت في كيان كونفودرالي عرف بعد ذلك بشعب اسرائيل، وأنه إذا كان (شاول) و (داود) و (وسليمان) هم أصحاب الفضل في إقامة أول كيان سياسي مركزي لذلك الشعب، فإن (إيمانويل سيمون فليكوفسكي) هو صاحب أهم وأخطر وأثرى تنظير تاريخي لما يسمينه هو (القومية الإسرائيلية)، في كتابه الذي اكتسب شهرة عالمية في الأوساط العلمية كافة، والموسوم بعنوان (عصور في فوضى)، والذي انتهى من كتابته في شهر فبراير من عام ١٩٥٢م[١].

---

(١) إيمانويل فليكوفسكي: عصور في فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد.

ملحوظة : بعد طبع كتابنا هذا طبعة أولى تمكن المترجم رفعت السيد من العثور على دار نشر تقبل نشر مخطوطته، وصدر فعلاً عن دار سينا بالقاهرة سنة ١٩٩٥ .

وقبل قراءتي لذلك الكتاب، والتي جاءت متأخرة، بل ومتأخرة جداً فيما يبدو، قضيت وقتاً أحاول فيه البحث لفهم سر الادعاء الاسرائيلي، بأن أسلافهم الغوابر هم بناة أهـرام مصـر، ومعظم أعلامها الآثارية، وأنهم أصحاب الاصل الرفيع لثقافات المنطقة الشامية منذ فجر التاريخ، ولما لم يهدني البحث إلى تفسير أي من تلك المعاني، لم أجد سوى أن القوم قد استمرأوا زهوراً تاريخياً زائفاً، وأن الأمر لا يزيد عن كونه مثل كثير من السذاجات والأساطير والمبالغات المسطورة بكتابهم المقدس، الذى هو كتاب لتاريخهم فى المقام الأول، حيث اكتست فيه أحداث التاريخ وتلّبست بألوان عديدة من المبالغات المغرقة فى الأسطرة، واحتسبت ذلك الادعاء كلون من مغامرات يشوع وشمشون وداود وسليمان، لكنـي عندما طالعت (عصور فى فوضى)، أكتشفت أن الأمر جد خطير، وأخطر بكثير من كتابات أسطورية قديمة كانت تلائم بنية التفكير فى عصرها، وأن احتساب دعواهم كبناة وكعمادة أساسي لحضارة المنطقة فى عصرها القديم مجرد سذاجة، لهو موقف فـى منتهـى السذاجة، لأن فـى الأمر أمراً، وللادعاء حيثيات وقرائن وشواهد ودلائل وبراهين، قام علـى جمعها وتصنيفها بأسلوب عصرنـا، وصياغتها بالمنهج العلمـي الصـارم، رجل من نوع نادر، وباحث من طراز فـذ، هـو (فليكوفسكى).

ورغم الواضح للوهلة الأولى، أن (عصور في فوضى) كتاب يخدم غرضا سياسياً وعنصرياً من ألفه إلى يائه، فإن الأوضح كان قدرة المؤلف على البحث الدؤوب الذى لا يكل، وامتلاكه جلداً على التقصي المضني لا يبارى، وسعياً لا يفتر ـ من أول كلمة خطها إلى الختام ـ وراء القرائن والبراهين التي تدعم فروضه وطروحاته لتحويلها إلى بناء راسخ القواعد، مع لهاثه خلال حقبة زمنية طويلة مكتظة بالأحداث والمتغيرات، وفي مساحة شاسعة من أثرى مساحات العالم القديم بالراسب الثقافي الذى لم يزل فاعلاً إلى اليوم، وبين متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تلاحقت في كافة الاتجاهات، وتركت بصماتها على نقوش ورسوم ودلالات حفرية، وكتابات ذات طرائق مختلفة باختلاف الأصول اللغوية لمواطن متباينة، مما كان كفيلاً بجعل أى باحث يقبع وسط شرك من خيوط عنكبوتية متشابكة وكثيفة، يحتاج فكها وفحصها ـ وإعادة نظمها مرتبة ـ إلى صبر قدرة ووعي نفاذ، وربما كان البحث مع البدء عن طرف الخيط فيها، كان لا يزيدها إلا تشابكاً واضطراباً، وهنا سر عظمة الرجل، الكامن في هذا القدر العجيب من الصبر، الذى لازمه طوال رحلته مع ذلك الرتل المختل بالأصول، في سياق قصصي لين سهل، صيغ بلون روايات التحرى المباحثية، مما جعله ـ في رأينا ـ بحق، صاحب أخطر تنظير معاصر لما يسمى القومية الإسرائيلية بحيث لا يتخلف

درجة عن موسى أو سليمان، وذلك بعينه ما جعله (النوتة) الأصلية لكل المعزوفات الصهيونية، التي لم تفعل أكثر من إعادة توزيع المعزوفة حسب المقامات المطلوبة، وهذا - أيضاً - ما جعله صاحب أخطر فكر يشكل قدراً هائلاً من الإقناع، حتى لدى الخصوم السياسيين، بل ولدى الخصوم المصيريين، وهذا - أيضاً - ما جعله - بعقد المقارنات - يزيد في تقزيم مؤسساتنا الفكرية، التي لم تقدم على عراقتها وممكناتها عملاً على ذات المستوى، وربما جاز لتلك المؤسسات مراجعة مناهجها وطرائقها وأدواتها، التي أثبت هذا العمل مدى هشاشاتها وهزالها رغم منتجها الكمي الضخم.

ولا يجوز أن يفهم من كلامنا هنا، دعوة إلى رد من النوع ذاته، رد عنصري أو قومي، فهذا أبعد ما يكون عما نريد، لكن ربما طلبنا عملاً على ذات الدرجة من الأصولية العلمية، وعلى ذات القدر من التمكن من أدوات العلم، والتي تمكن بها (فليكوفسكي) من تطويع مادته التاريخية، لخدمة أغراض أبعد ما تكون عن العلمية. مع رغبتنا في تسجيل ملحوظة لابد منها في حالة المقارنة بين عمل مثل (عصور في فوضى) وبين أعمال أخرى تزحم أرفف مكتباتنا، ولا حول لها ولا قوة إلا بالله طبعاً، وتكاد تأخذنا الريب والظنون بشأن ذلك الرتل من الزحام في المكتبة العربية، والذي يفصح - بتناوله - عن عمد للطرق السهلة، والابتعاد عن مكامن الإشكاليات الحقيقية في التاريخ القديم، لما يحتاجه تناولها من جلد وصبر ودأب.

ذلك فى الوقت الذى نؤكد فيه أن (عصور فى فوضى) لا يمكن احتسابه نتاج باحث فرد هو (فليكوفسكى)، فلا ريب يراودنا أنه كان (المايسترو) الذى خطط وقاد ووجه فريقاً من المتخصصين بالمراكز الأكاديمية العالمية، والتى بدون معونتها ودعمها ما كان ممكناً إخراج مثل ذلك العمل.

ولا ريب لدينا أن تلك المؤسسات قد عملت لحساب ذلك العمل، وجمعت له المادة العلمية النادرة من الوثائق القديمة، وبحثت له بين قوالب الأجر وقطع الفخار ونقوش المعابد، وباللغات المسمارية سومرية أو سامية، أكادية أو كنعانية أو حثية أو أرامية أو عبرية، أو خطوط هيروغليفية متناثرة، تجد نصف البردية منها فى نيويورك، والنصف الآخر فى لينتجراد، وقامت على ترجمة كل تلك الوثائق للباحث الفذ، مع إيضاح إمكانات الاحتمال فيها، مابين صدق نسبتها لعصرها أو لغيره، عبر مقارنات للنص بالعصور من حيث شكل الأسلوب والكتابة والبلاغيات وما يحكيه من أحداث، وهل يوافق ذلك العصر الفلانى أم ذاك، مع بيان مواضع الثغرات التى يمكن للرجل أن يتسلل من خلالها لدعم توجهاته، وباختصار قدمت له جهداً كان يحتاج أى باحث آخر لإتمامه، أن يعيش قرنين من الزمان على أدنى تقدير، مما أهله فى النهاية للخروج بسفره هذا، الذى يصح لأصحابه أن يضعوه بفخر فى مقدمة أسفارهم، ليقف منتصباً بين التوراة والتلمود والهجادا والمشنا والمدراش.

وحكمنا هذا، الذى نزعم فيه دعم مؤسسات أكاديمية عالمية لصاحب هذا العمل، يتأسس على معرفتنا، وبحكم درايتنا، بتلك المادة الوثائقية القديمة، وعلمنا اليقيني بالحدود القصوى التى يمكن أن تصل إليها قدرات باحث فرد، لإنتاج مثل ذلك العمل، وعلى حكمنا هذا نراهن بسمعتنا العلمية. والعمل مطروح على السادة المتخصصين، بل وكان موجوداً لديهم من زمن بينما نحن الذين تأخرنا فى إعطائه أهمية تجعله جديراً بالقراءة، ولا شك أن بعضهم قد طالعه ــ مع شهرته العالمية خلال الفترة ما بين ١٩٥٢ وحتى اليوم، ولا شك أيضا أن هؤلاء البعض قد آثروا السلامة، لأنه إذا كان الكلام من فضة، فإن مع فليكوفسكى سيكون السكوت من ذهب.

تأسيس ـ٢ـ

ولأن الباحث كثيراً ما يقابل مدهشات لا يجد لها تفسيراً، فمن الطبيعي أن تقابلنا مثل تلك المدهشات، لكن أشد ما أثار عجبي من بينها، هو دأب الباحثين العرب، في تنظيراتهم التاريخية للقومية العربية، الإشارة، والإشادة بمملكة عربية قديمة عظمى، بلغت سمت الإمبراطوريات [1]، وأن هذه المملكة شملت شرقي المتوسط كاملاً (بلاد الشام والرافدين وجزيرة العرب ومصر وبعض جزر المتوسط الشرقية)، وأن عرب تلك الإمبراطورية هم من جاء ذكرهم عن المؤرخ المصرى (مانيتون Manithon) الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد، باسم (الهكسوس)، وهو الأسم الذى ترجمه لنا المؤرخ (يوسفيوس Josphus) بمعنى الملوك الرعاة، بحسبان الكلمة (هكسوس) ملصقة من مقطعين :الأول (هك) بمعنى (ملك) في اللغة المصرية المقدسة (الهيراطيقية) والثانى (سوس) وهى فى المصرية الدارجة ـ فيما زعم ـ تعنى (راعى).

---

(١) أنظر على سبيل المثال فقط : د. أحمد شلبى : مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٤، ٥١، وما بعدها . أنظر ايضاً محمد حسين الفرح، أعداد محلة المنابر من ٣٢ إلى ٤٠ (هذا ما وصلنا حتى كتابة هذه السطور)، بيروت، والموضوع بكامله بعنوان الحضارات العربية الكبرى فى العصور القديمة.

وكان مصدر دهشتنا من باحثينا القوميين آنذاك، هو إطلاقهم ذلك الزعم مرسلاً، دون شواهد أو بينات أو دلائل أركيولوجية، أو حتى مستخلصات من قراءة للنصوص القديمة، أو من عمليات تحليل وتركيب لنصوص بعينها مقارنة بأخرى، مما دفعنا لهاجس أن رجالنا قد أقاموا الأمر برمته على كون (الهكسوس) بدواً رعاة، وأن العرب بدو رعاة، وكفانا بذلك دليلاً، لكن المأساة الحقيقية تكشفت لنا بعد قراءة (عصور فى فوضى)، حيث اكتشفت أن ذلك الكتاب الذى يضع النظرية التاريخية للقومية الإسرائيلية، كان هو المدد الأول لأصحاب فكرة إمبراطورية الهكسوس العربية، وبذلك قدم باحثونا رداً على ذات الدرجة من العنصرية، وإن لم يكن على ذات الدرجة من الكفاءة ولا الأمانة ونزاهة العلم، وهو الأمر الذى لا يتضح إلا بقراءة الكتاب، أو القسم الأول منه على الأقل، وهو الدعامة الأساسية للعمل بكامله.

ومن هنا تجدنا بحاجة إلى تقديم عجالة موجزة لذلك القسم الضخم من الكتاب، ولا شك أن أى عملية إيجاز له لن تؤدى ما يمكن أن تؤديه قراءة العمل ذاته، لأن كل كلمة فيه وضعت فى موضعها بمقاييس دقيقة، وكل عبارة فيه، وكل فقرة، كان عليها دور يجب أن تؤديه كما هو محسوب ومخطط له تماماً، وبدونها يفقد العمل بعض تأثيره وقدرته، لكننا هنا مضطرون لذلك، حتى يمكننا أن نقدم التحليل اللازم لذلك القسم من الكتاب، والذى قامت على أعمدته بقية فصول الكتاب التى جاءت فقط لدعم ومساندة القسم الأول منه.

تأسيس -٣-

من المستحسن هنا أن نبدأ بالإهداء الذى صدر به (فليكوفسكى) كتابه، والذى يستحق التسجيل كاملاً دون تدخل، لأنه يفصح بجلاء عن الرجل وهويته وأهدافه، والروح التى كتب بها كتابه. يقول:

> هذا العمل مهدى إلى أبى، وأحب أن أوضح فى بضعة أسطر، من هو سيمون إيمانويل فليكوفسكى؟ منذ ذلك اليوم، وهو فى الثالثة عشرة من عمره، حين غادر منزل والديه، وذهب سيراً على الأقدام، إلى واحد من تلك المراكز المتخصصة فى تدريس **التلمود بروسيا**، وحتى يوم وافته المنية فى ديسمبر ١٩٣٧ **على أرض إسرائيل**، كل ذلك العمر، مع ثروته وراحة باله وكل ما يملك، كرسه لتحقيق ما كان يوماً مجرد فكرة، ألا وهى **إعادة بناء نهضة الشعب اليهودى على أرضه القديمة**، لقد أنجز الكثير لإحياء لغة الكتاب المقدس، وتطوير العبرية الحديثة، بإنجازه مع الدكتور ج كلوشنر كمحرر للأعمال العبرية القديمة المجمعة، كما ساهم فى إحياء الفكر العلمى اليهودى، بنشر كتابه المخطوطة العالمية، من

خلال المؤسسة التي سبق له إنشاؤها، وكانت تلك الأعمال بمثابة البنية التحتية، التي قامت عليها أعمدة الجامعة العبرية بالقدس بعد ذلك، كما كان من أوائل من استعادوا الأرض في النقب، أرض الأحبار، وأنشأ هناك أول مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم : ردحاما، وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة شمالي النقب، ولا أعرف لمن أتوجه بالعرفان في إنجاز هذا العمل الفكرى، في إعادة بناء التاريخ القديم، إن لم أتوجه به إلى أبي سيمون.

الأمر واضح من البداية، لكنه رغم وضوحه، وإمكان اتخاذ مواقف مناسبة من جانب القارئ إزاء ما سيطالع بعد الصدمة النفسية لذلك الإهداء فإن الرجل غامر وصدر به الكتاب وهو واثق تماماً من قدراته، ويعلم سلفاً إلى أى حد يمكن أن يؤثر في قارئه ويزحزحه عن موقفه، إن لم يجعله يتبنى في النهاية كل أطروحات الكتاب عن قناعة، وهنا قمة خطورة الرجل والكتاب.

ولعل الغرض الأساسي للكتاب قد وضح في الإهداء، في قوله: « هذا العمل الفكرى في إعادة بناء التاريخ القديم »، وفي الفصل

لأول يشرح دوافع ذلك الغرض بقوله: « لقد تبنى الكثير من الدارسين رأياً خلاصته، أن إقامة الإسرائيليين بمصر واستعبادهم وخروجهم رحيلهم، مجرد تصورات دينية بحتة، وقد لقى هذا الرأى تعضيداً قوياً، فى غياب أى دليل مباشر علمى وقوع تلك الأحداث فى الآثار المصرية القديمة، أو فى المدونات البردية. وعلى العكس من ذلك تبنى آخرون وجهة نظر مضادة، فحواها أنه من العسير أن يخترع شعب أساطير عن العبودية، والتى لم يكن فى الحسبان وقتها، أنها ستحفز وتخلق كرامة قومية، وعليه فلا بد من وجود أسس تاريخية للقصة ». ولأن (فليكوفسكى) من أصحاب وجهة النظر الثانية، فقد كرر الحديث عن دوافع الكرامة القومية لشعب إسرائيل، كما فى قوله : « إن الرجوع الدائم بالذكرى اليهودية لتجربة البحر، يوحى بأن القصة كلها لم تكن من نسج الخيال... والغريب حقاً هو مثابرة الشعب اليهودى على التعلق بهذه القصة، جاعلاً منها بدايته الحقيقية، وجاعلاً منها فى الوقت ذاته، الحدث الأكبر فى حياته وتاريخه كأمة ».

ومن ثم تصبح الكارثة التى صحبت الخروج، وانشقاق البحر، الركن الأساسى فى عمل (فليكوفسكى)، حتى أنه يذهب إلى أن الخروج اليهودى من مصر ـــ لابد ـ قد حدث فى قمة فوران

الأحداث، وأن **الكارثة** بالذات، ربما يمكنها البرهنة على كونهـا كـانت **الحلقة الرابطة للتاريخ الإسرائيلى بالتاريخ المصرى، القديم** ". ومـن هنا يبدأ بتأسيس موطـئ قدم لقبـائل بنـى إسـرائيل فـى التـاريخ، ذلـك التاريخ الذى لا يعرف شيئاً عنهم فى وثائقه، وذلـك بـدءاً مـن أحـداث الخروج، تلك الأحـداث الأكـثر أسـطورية فـى الميثولوجيـات القديمـة، والتى ينجو فيها شعب إسرائيل ويغـرق المصريـون وفرعونـهم، لكـن ليجعل تلك الأحداث بعد عدة فصول ـ وسط إثارة رائعة حقاً وأسلوب متميز وقرائن منتقاة ـ من أشد الأمور قبولاً واعتيادية، بحيث لا يجـد القارئ بعدها مانعاً فى قبول ميثولجيات أقل إدهاشاً بالكتـاب المقـدس، والتى سيعالجها فى بقية أقسـام الكتـاب، والتـى لا ترقـى إلـى مستوى شق البحر إغراقاً فى الأسطرة، **معتمداً على إثارة الدهشـة وبأسلوب المباغتـة، التـى يتحـول فيهـا الواقـع إلـى منظومـة أسـطورية. بينمـا تتحول أحداث الأسطورة إلى وقائع حية وفاعلة.**

من تلك الحادثـة (حادثـة البحـر) ينطلـق (فليكوفسكى) ليؤسـس فروضه، تلك الفروض التى تقف بدورهـا كـأمر نـافر عسـير القبـول، لكنه مدهش ومثير وجديد، ومع مخالفته لكل ما تم التعارف عليه حتى الآن، والفرضية الأساس عنده تبدأ مـن كـون مدونـات التـاريخ القديم سواء فى مصر أو الشام أو الرافدين أو حتى فلسطين ذاتها، لا تعرف

شخصاً باسم (موسى) رغم أهميته القصوى في التاريخ اليهودي وفي تاريخ الأديان الكبرى في الشرق الأوسط عموماً، ولا تعرف ملكاً أسس مملكة لشعب إسرائيل باسم (شاول)، ولا عظيماً باسم (داود)، ولا حكيماً حاز شهرة فلكية في التاريخ الديني باسم (سليمان)، كما لا يعلم علم التاريخ شيئا البتة عن دخول قبائل بني إسرائيل إلى مصر، ولا عن خروجها ولا عن بحر ينشق ويبتلع جيوش دولة عظمى آنذاك، وهو الحدث الذي كان جديراً بالتسجيل في مدونات مصر والشام والرافدين وتركيا لأهميته وخطورته. بينما على الجانب الآخر نجد الكتاب المقدس في الأسفار من الخروج إلى **القضاة** لا يذكر مصر إطلاقاً، ولا يحكي أحداثاً عنها كعادته، وهو زمن امتد زهاء أربعة قرون، رغم المفترض تاريخياً أن الخروج قد حدث زمن الأسرة الثامنة عشر الفرعونية، أولى أسرات الدولة الحديثة المعروفة بدولة الإمبراطورية، وهو زمن كانت مصر تسيطر فيه على بلدان المتوسط الشرقية، وبضمنها فلسطين.

ومن هنا يتأسس العمل كله على فرضية تذهب إلى أن ثمة خطأ وقع في تأريخ التاريخ المصري القديم، حيث ـــ وهذا رأى (فليكوفسكى) ـــ **توقف تاريخ مصر عند لحظة محددة مع نهاية الأسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى، مع دخول الهكسوس الى مصر**، ولأن هؤلاء الغزاة كانوا بدواً برابرة لايحترمون الحضارة،

ولايعرفون حتى الكتابة، فقد حطموا حضارة مصر، ولم يحاولوا أن يتعلموا شيئاً من المصريين، لذلك لم يتم تدوين شئ ذى بال طوال فترة الاحتلال، هذا بينما كان بنو إسرائيل وقت دخول الهكسوس الى مصر، في طريق الخروج لشبه جزيرة سيناء، ووقت فوران أحداث جسام لم تسمح بتدوين واضح كامل لتلك الأحداث، أما كون بنى إسرائيل كانوا في مصر قبل دخول الهكسوس، وفي زمن أسبق سمح لهم بالتكاثر مدة طويلة في أرض النيل، فإن ذلك سيعود بنا الى عهد بناة الأهرام في الدول القديمة. ومكمن الخطأ، يكمن في أن المؤرخين قد قاموا بوصل نهاية الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة الوسطى (١٧٨٨ ق.م) ببداية الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة بعد التحرر من الهكسوس (١٥٨٠ق.م)، ولم يتركوا الأسر من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة سوى مئتى عام تزيد قليلاً، يتم تقسيمها على مجموعة الأسر المصرية والهكسوسية خلال خمس أسر كاملة، بينما يرى (فليكوفسكى) أنه قد سقط من ذلك التاريخ ـ بالإضافة الى المئتى عام المفترضة ـ مالايقل عن أربعمائة عام كاملة، هى زمن قضاة إسرائيل، وزمن احتلال الهكسوس لمصر، وعليه فيجب أن تكون بداية الأسرة الثامنة عشرة التى أسسها (أحمس) الذى قضى على الهكسوس، واقعة في تاريخ يبعد عما حدده

المؤرخون بأربعة قرون إضافية، أى يجب أن تكون بدايتها بين ١١٨٠ و ١١٠٠ ق.م على وجه التحديد.

والخطورة عند (فليكوفسكى) فى ذلك الخطأ، لا تكمن فى اختلال تاريخ مصر، أو فى سقوط ذكر بنى إسرائيل من التاريخ، إنما ينسحب الخطأ على عمليات التأريخ لحضارات المنطقة بكاملها، حيث **كان التاريخ المصرى هو المعيار الذى قيست بالنسبة إليه عهود الحضارات الأخرى وتم تزمينها وفقه**، ومن هنا جاز له القول : « إن تاريخ الآشوريين البابليين والفرس قد تم تشويهه وتخريبه، وتاريخ الإمبراطورية الحثية (تركيا القديمة) قد اخترع بأكمله، وكذلك التاريخ اليونانى فى عصره البرونزى لم يوضع فى موضعه الحقيقى من السياق الزمنى، كما تم تشويه التاريخ السابق للإسكندر الأكبر.. ومن ثم يتضح أن هناك ملوكاً قد وضعوا فى مواضع أحفاد أحفادهم، ووصفت إمبراطوريات وهمية، بينما كانت قطع الآثار نتاج قرون أخرى، وعصور تخالف ما نسبت إليه، وكان هذا هو الحال بالنسبة للإمبراطورية الحثية وفنونها، وكانت كذلك أيضاً بالنسبة للشعوب الحورية ولغاتها، لأنها ببساطة لم توجد أصلاً »، ومن هنا كانت فوضى العصور فى حاجة إلى (فليكوفسكى).

تأسيس ـ ٤ ـ

وحتى لا يبدو الرجل كمن يلقي القول جزافاً، كان عليه أن يقوم بأمرين : الأمر الأول هو عرض ما انتهت إليه النظريات التاريخية التقليدية بشأن الخروج، ومناقشة مدى مصداقيتها، بحيث إذا ثبت بطلانها انتقل إلى الأمر الثانى، وهو تقديم الأدلة الكافية لتأكيد فروضه، تلك الأدلة التى استغرقت كتابه حتى آخر صفحة فيه، ومن هنا يبدأ مناقشة التاريخ ونظريات المؤرخين، ومحاكمتها محاكمة عادلة تماماً، وربما ساعده على تلك المحاكمات أن حيثيات إدانة أى نظرية منها، سبق وقدمتها نظرية أخرى بديلة.

ويبدأ بأقدم نظرية قدمت عن حدث الخروج، وقد وردت عند المؤرخ المصرى (مانيتون). وتقرن تلك النظرية بين ظهور الهكسوس وبين ظهور الإسرائيليين، كما تقرن الهكسوس بخروج الإسرائيليين، حيث سجل (مانيتون) أن الهكسوس بعد طردهم من مصر اتجهوا إلى فلسطين، حيث أنشأوا هناك مملكة (أورشليم)، وقد أخذ المؤرخ اليهودى (يوسفيوس) بكلام (مانيتون). وذهب المذهب نفسه ـ من القدماء ـ الأب (يوليوس الأفريقى)، الذى روى أن اليهود تمردوا فى مصر بقيادة (موسى)، على ملك باسم (احمس)، وحتى

الآن، وبعد مضى أكثر من تسعة عشر قرناً على تلك النظرية، لم يزل هناك من يأخذ بها إلى اليوم.

لكن على الجانب الآخر نجد من يرفض تلك النظرية تأسيساً على مقدمة منطقية تماماً، وهى كيف يقع اليهود تحت نير العبودية فى مصر إذا كانوا هم الذين حكموها باسم الهكسوس، إضافة إلى المقدمة الثانية فى ذلك القياس وهى أن حكام مصر بعد (أحمس) قائد التحرير، كانوا من الحكام الأقوياء الذين فرضوا هيمنتهم على شرقى المتوسط بما فيه فلسطين، مما يستحيل معه أن يخرج بنو إسرائيل رغماً عن إرادة مصر، بل ويقومون بغزو فلسطين المفترض أنها خاضعة للحكم المصرى آنذاك، بل ويتمكن الإسرائيليون من إنشاء دولة فى فلسطين!! لذلك لجأ آخرون إلى البحث عن فترات ضعف إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة، يمكن أن تسمح بالخروج وبقيام الدولة، ومن ثم ذهبوا إلى احتمال حدوث ذلك بعد انتكاسة (إخناتون) فرعون التوحيد، لكن ما يدحض ذلك المذهب بدوره، أسانيد وثائقية تم العثور عليها بين وثائق مدينة (إخناتون) فى تل العمارنة، فى شكل رسائل من حاكم أورشليم، يحذر فيها الفرعون من مهاجمة قبائل بربرية لحدوده من عبر الأردن باسم (الخابيرو)، والتى تنطق أيضاً (عابيرو)، ويمكن أن تكون مسمى للعبريين اليهود، لذلك لا بد أن

يكون الخروج قد حدث قبل إخناتون بفترة كافية، وتسقط بذلك تلك النظرية بدورها.

ومن هنا ذهبت نظرية ثالثة إلى أن بنى إسرائيل قد غادروا مصر زمن (أحمس)، إبان طرده للعناصر الأجنبية مع الهكسوس، ووصلوا فلسطين زمن (إخناتون) باسم (الخابيرو)، لكن العقبة فى قبول تلك النظرية، أنها تهمل مئتى عام بين زمن أحمس وزمن إخناتون، وتعنى أمراً غير مقبول، هو أن يكون زمن التيه الإسرائيلى في سيناء قد استغرق مئتى عام بدلاً من أربعين عاما قررتها التوراة، وتعد بذاتها زمناً طويلاً جداً استغرقه الخارجون من مصر إلى فلسطين.

لذلك طرحت النظرية الرابعة رأياً مخالفاً تماماً، وهو أن يكون الخروج قد حدث ــ لابد ــ زمن الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رمسيس الثانى) حوالى ١٢٢٠ق.م فى الأسرة التاسعة عشرة، بعد العثور على غطاء تابوته الذى يعدد عليه البلاد التى أخضعها، وبينها عبارة تقول : «أبيدت إسرائيل ولم يبق لها بذر»، وهو أول ذكر لإسرائيل فى أى وثيقة مصرية على الإطلاق، مما يؤكد أن (مرنبتاح) هو فرعون الخروج، بينما كان أبوه (رمسيس الثانى) هو فرعون الاضطهاد، لكن تلك النظرية بدورها تبدو غير كاملة الإقناع،

لأن نص مرنبتاح يشير لإسرائيل ضمن إشارته لدول خارج مصر، وليس لقوم داخل مصر، بما يعنى حديثه عن دولة كانت قائمة بالفعل قبل أن يشن هجومه عليها، إضافة لعدم ذكر فرعون دمر إسرائيل باسم (مرنبتاح) ضمن الأسماء الواردة فى المأثور التوراتى لأعداء اسرائيل، كما لا يتفق ذلك مع أى محاولة لتزمينه مع أحداث التوراة وزمنها، حيث لا بد أن يكون الاسرائيليون قد دخلوا فلسطين بعد خروجهم من مصر، ولكن بمئة عام أى حوالى ١١٩٠ق.م، وبذلك لا يتبقى لعصر القضاة سوى قرن واحد، وهو ما يخالف بشدة الزمن المفترض، والذى يحتسب ثلاثة قرون كاملة على الأقل لذلك العصر، وربما أربعة، لذلك اعتبر عصر (مرنبتاح) كموعد للخروج موعداً متأخراً جداً وأكثر مما ينبغي، ورغم ذلك تعد هذه النظرية من أشيع النظريات حتى اليوم.

وبين النظريات التى حازت ذيوعاً أيضاً، تلك التى اعتبرت حدثي الدخول والخروج مسألة اعتيادية فى تاريخ مصر، باعتبار دخول البدو إلى مصر وخروجهم منها فى عصور متباينة، كان أمراً دورياً ومعتاداً، لذلك كان دخول بنى إسرائيل وخروجهم أمراً هامشياً فى اهتمامات المصريين، إلى الحد الذى لم يجدوا معه أى دا[illegible] للأهتمام بتسجيله، لكن ذلك لا يتفق مع إصرار التوراة على تفصيل الأحداث وهولها وشدتها، ومن هنا لجأ أصحاب نظرية مشابهة إلى

الاعتراف بما قالت التوراة، لكن مع النزوع إلى تأويل النصوص التوراتية لتبدو مقبولة، وذلك بإلباس الأساطير التى سبقت الخروج وصحبته ثوباً يظهرها كأمر اعتيادى، ومن هنا قامت تفسر الضربات التى أنزلها رب موسى بالمصريين من قمل وضفادع وبعوض وذباب، باعتبارها أموراً اعتيادية تماماً عند المصريين، بالنظر إلى أرض مصر الشديدة الخصب، والتى تسمح بكافة أنواع الحياة، بينما بدا ذلك غريباً على بدو رعاة، كذلك رياح الخماسين التى تهب من الصحراء الليبية محملة بالرمال والأتربة، مع ما تجلبه معها أحياناً من أسراب الجراد، يمكن أن تفسر ضربة الإله اليهودى (يهوه) لمصر بالظلام والجراد، أما مسألة انشقاق البحر فهى أسطورة متكررة فى الميثولوجيات القديمة عند مختلف الشعوب، وإذا كان لابد من الاعتراف بانشقاق البحر وانطباقه، فلن يكون له تفسير سوى موجة مد عالية ضاعفها إعصار مفاجئ. ثم تستكمل النظرية مسوغاتها بالميل الإسرائيلى المعهود، والواضح فى كتابهم المقدس، للصياغات الإعجازية والميل الشديد للخوارق، حتى أن شعلة بيد قائد الخروج، تتحول فى نص التوراة إلى إله يسير أمامهم فى عمود دخان ونار.

وقد ذهب أحد هؤلاء، وهو (تشالزبيك) إلى أن جبل سيناء الذى عبروا إليه كان بركاناً، والبركان هو الظاهرة الوحيدة التى

تعطى صورة عمود دخان بالنهار ونار بالليل، ولأنه عادة ما تصاحب ثورات البراكين النشطة ضربات زلزالية، فإن زلزالاً قد سحب الماء ليلة الخروج بعيداً عن الشاطئ، ثم ارتدت المياه لتحطم كل ما جاور البحر وتبتلعه، وهو ما يفسر معجزة البحر الموسوية، لكن المشكلة الكبرى التى واجهت هذا التفسير.. رغم براعته.. أن منطقة سيناء لم تكن منطقة بركانية، إضافة إلى أن المنطقة الواقعة ما بين البحر المتوسط وخليجى السويس والعقبة تفتقد تماماً ظاهرة المد الإعصارى، ناهيك على كون (بيك) اضطر فى النهاية، وفى نهاية حياته، إلى الاعتراف بخطئه، وسحب نظريته.

الوثائق والأدلة

وهكذا أصبح الميدان خالياً من نظرية تامة الصدق تفسر حدث الخروج وزمانه، ومرة أخرى تبيبت الحاجة ماسة إلى (فليكوفسكى)؟!، ولا يبقى سوى أن ندخل مع الرجل إلى عالمه، بادئين بقوله : «سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار باعتراف مباشر وصريح، أن الكلمات (يقصد كلمات الكتاب المقدس) تعنى ما تقوله تماماً، وأن مدى الكارثة كان يفوق بدرجة كبيرة أية نتائج أخرى يمكن أن تنجم عن ثورة بركان لقد ساهمت الارض والبحر والسماء فى الثورة المفاجئة، البحر غمر الأرض، والحمم الساخنة تدفقت من أرض ممزقة، وقد وصفت النصوص المقدسة فوضى العناصر التى انطلقت من عقالها:

إرتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال .. تحركت واهتزت .. دخان ونار .. ظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة. هو المزعزع الجبال، ولا تعلم الذى يقلبها في غضبه .. هو المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها ».

لكن قبل تلك الأحداث الهائلة، وقبل حدث انفلاق البحر، فإن «النص التوراتي يصرّ على حدوث البلاء بمصر قبل رحيل الإسرائيليين عنها، وكانت نذيراً سابقاً للدمار الذى سببته عناصر الطبيعة التى أفلتت من عقالها.. إن الأسئلة المنطقية التى تفرض نفسها فى هذا الموضع هى: هل هذه الشهادة مزيفة بأكملها؟.. هل من الممكن ألا يكون المصريون قد لاحظوا شيئاً من تلك الأحداث؟.. هل هناك أى زلزال على الإطلاق تم ذكره فى السجلات المصرية القديمة؟ إن التسجيلات المصرية التقليدية لاتحتوى على أى ذكر لهزة أرضية، ولاتحتوى على أى أثر لكوارث، ولكننا نصر.. فقد نحصل على مفتاح هام لمشكلة مستعصية، اختلف الكثيرون بشأنها واختصموا، وظلت حتى الآن ما يقرب من ألفى عام دون إجابة قاطعة» وبالفعل، ولأول مرة فى التاريخ، يقدم لنا (فليكوفسكى) ما عثر عليه من وثائق وأدلة.

الوثيقة الأولى :

بردية ليدن :

تحت عنوان «شاهد عيان مصرى يشهد بحدوث البلاء»، وبأسلوبه المتميز، يقدم لنا (فليكوفسكى) فيما يبدو أنه كشف خاص

وخطير، بردية (إبيور) المعروفة ببردية ليدن، فى قالب لا يخلو من ملابسات الغموض، وضبابية الماضى السحيق، ودخان ما قبل الكشف عن اللغز وغموض الأمر، بحيث يبدو كما لو كان يقلب البردية بين يديه، ويصفها وصفاً دقيقاً، بادئاً بالقول : "ليس من المعروف تحت أية ظروف، تم العثور على البردية التى تحتوى كلمات (أبيور)، وطبقاً لرواية (أنستاسى) مالكها الأول، فقد عثر عليها فى منف، وهو ما يشير للمنطقة المحيطة بهرم سقارة، ثم انتقلت ملكيتها فى عام ١٨٢٨م إلى متحف ليدن بهولندا، وأدرجت بقائمة محتويات المتحف تحت رقم ٣٤٤ ليدن.. إلخ "، وفى عجالات سريعة يشير إلى ما قدمه المتخصصون من تفسيرات بشأنها، فهناك من اعتبرها عملاً فلسفياً، وآخر لم يجد فيها سوى مجموعة أحاجى وألغاز، وذهب ثالث إلى أنها نبوءة بأوقات شدة كانت مقبلة على مصر، لكن الوثيقة ــ فيما يرى (فليكوفسكى) ــ تنطق بلسان مبين لشاهد عيان مصرى عاصر الأحداث التى سبقت الخروج بأيام أو بأسابيع، وبتطابق مبهر مع نصوص التوراة بذات الخصوص، ويبدأ بأخطر النصوص دلالة، والتى تشير بوضوح إلى كارثة أصابت الأرض، مصحوبة باصوات الطبيعة الهادرة :

٢ :٨ أنظروا الأرض تدور حول نفسها كما تدور عجلة صانع الفخار.

٢ :١١ المدن دمرت .. وصعيد مصر أصبح يباباً.

٣ : ١١ الكل خراب.

٤ : ٧ انقلب المسكن فى لحظة.

٢ : ٤ سنوات من الضجيج ولا نهاية للضجيج.

٦ : ١ آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج وتنقطع الجلبة.

ويعقب على مدلول (الضجيج) فى البردية، بأنها « الأصوات التى تصم الآذان وعادة ما تصاحب الزلازل، ويبدو أن الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى حطام وانهار نظام الدولة فجأة، وأصبحت الحياة لا يمكن أحتمالها ».

ثم يدلف مباشرة إلى المقارنة بين مقاطع من البردية، وبين مقاطع من سفر الخروج التوراتى،، وهى تفصح بوضوح عن ضربات (يهوه) رب التوراة لأرض مصر قبل الخروج مباشرة:

بلاء تحويل ماء النهر إلى دماء :

الخروج ٧ : ٢٠ فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً.

البردية ٢ : ٦٥ النهر دم.

الخروج ٧ : ٢١ وكان الدم فى كل أرض مصر.

البردية ٢ : ٦٥ البلاء انتشر ففى كل أنحاء البلاد .. الدماء فى كل مكان.

الخروج ٧ :٢٤ وحفر جميع المصريين حول النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر.

البردية ٢ : ١٠ عاف الناس شرب الماء.

الخروج ٧ : ٢١ مات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر.

البردية ٣ : ١٠ ـ ١٣ هذه مياهنا، وهذه سعادتنا، فماذ سنفعل بعد الأن؟..الكل حطام.

بلاء البرد والنار:

الخروج : ٩ : ٢٥ فضرب البرد فى كل أرض مصر، جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل.

البردية : ٦ : ١ لا فاكهة ولا محاصيل موجودة.

الخروج ٩ : ٢٣ ، ٢٤ وجرت نار علـى الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد.

البردية ٢ : ١٠ التهمت النار البوابات والاعمدة والحوائط. والنار التي أهلكت الأرض لم تنشرها ايد بشرية، لكنهـا سقطت من السماء.

الخروج ١٠ : ١٥ لم يبق شئ أخضر فى الشجر، ولا فى عشب الحقل في كل أرض مصر.

البردية ٦ : ٣ أحقا اختفت الحبوب في كل مكان؟

البردية ٥ : ١٢ أحقا.. اختفى ما كان بالأمس مرئياً؟

فليكوفسكي : يعقب هنا بأن حصر زمن تدمير المحاصيل بيوم واحد، يستبعد الجفاف كسبب تقليدى لقلة المحاصيل، فقط النار والصقيع والجراد هي التي كان بإمكانها ذلك.

بلاء وباء الطاعون :

الخروج ٩ : ٣،١٩ يد الرب تكون على مواشيهم التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها طاعون .. جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل.. ينزل عليهم البرد فيموتون.

البردية ٥ : ٥ كل الحيوانات قلوبها تنتحب ... والماشية تئن.

البردية ٩ : ٢ ـ ٣ انظروا تركت الماشية شاردة ولا يوجد من يجمعها، كل إنسان انشغل بنفسه.

بلاء الظلام :

الخروج ١٠ : ٢٢ فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام.

البردية ٩ : ١١ لم تكن الأرض نوراً.

بلاء ضربة البكر :

الخروج ١٢ : ٣٠ فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت إلا فيه ميت.

الخروج ١٢ : ٢٧ الرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا.

الخروج ١٢ : ٢٩ فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر، وبكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الاسير الذى فى السجن، وكل بهيمة.

البردية : انهار المسكن في لحظة

البرديـة ٤ : ٣ أحقـاً كـل أبنـاء الأمـراء سـحقت أجسـادهم في الحوائط؟

البردية ٦ : ١٢ أحقاً تشرد أبناء الأمراء في الطرقات؟

البردية ٣ : ١٤ النواح في كل أنحاء البلاد يختلط بالنحيب.

(فليكوفسكي) يعقب: إن موت كـل هذا العدد فـي ليلـة واحـدة، وفي ذات الساعة من منتصف الليل لا يمكن تفسيره بوباء كالطاعون، إنما بكارثة أرضية ضربت كل أرض مصر.

تكسير آلهة المصريين :

الخـروج ١٢ : ١٢ وأصنـع أحكامـاً بكـل آلهـة المصرييـن، أنا الرب.

البردية ٣ : ١٤ وسقطت تماثيل الآلهة مهشمة إلى أجزاء.

خروج كفن يوسف من قبره :

النص من الهجادا: عندما سحقت الأرض في مصـر آخـر ليلـة وجد الأسرائيليون كفن يوسف على سطح الأرض فحملوه معهم.

(فليكوفسكى) يعقب : ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم فالمقابر لفظت موتاها وتمزقت الأكفان.

البرديه ٤ : ٤ أحقاً أولئك الذين كانوا محنطين فى أكفانهم، صاروا ملفوظين على سطح الأرض؟

ويشرح (فليكوفسكى) أن البردية قد تضمنت ، تمرد السكان وفرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك فى ظروف غامضة.. والحقيقة الثانية هنا، هى أن زلازل متتابعة صاحبتها ظواهر طبيعية أخرى، قد اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء، سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، وأتلف كل مصادر الحياة، .. ونظر المصريون إلى ذلك كله على أنه من فعل رب العبيد.. وأسرع العبيد الفارون باتجاه حدود الدولة، يسبقهم نهاراً عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار.

الخروج ١٣ : ١١ وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضئ لهم، لكى يمضوا نهاراً وليلاً.

البردية ٧ : ١١ يا ويلاه، النار ارتفعت إلى الأعالي وامتد لهيبها أمام أعداء البلاد.

.. مع ما سجلته البردية ٧ : ١ـ ٢ أن الفرعون قد فقد في ظروف غير عادية، وأن ذلك لم يحدث من قبل قط لأي فرعون آخر ».

ثم يبرز (فليكوفسكي) حدث دخول الهكسوس البلاد « البردية ٣ : ١ أحقاً صارت الدولة خراباً كالصحراء، وأصبحت الأقاليم يباباً، واقتحمت البلاد قبائل غريبة من وراء الحدود؟ إن الكارثة التي حولت مصر إلى دمار شامل بلا قوة متماسكة تدافع عن أرضها، أغرت الغرباء، وكانت حافزاً لقبائل الصحراء العربية لينقضوا عليها. البردية ١٥ : ١ ماذا حدث؟ لقد علم الأسيويون بحال البلاد ».

الوثيقة الثانية :

حجر العريش :

وحجر العريش كتلة جرانيت سوداء، حفرت عليها نصوص هيروغليفية ورغم أهميته فإنه لم يحظ باهتمام كاف، ولم يعد يذكره أحد إلا لماماً، رغم احتوائه على أسماء ملوك ومدن وأماكن جغرافية، وغزو غرباء للبلاد في عصر ملك يدعى (توم)، ونص الكتابة في

رأى (فليكوفسكى) يتطابق كلية مع نص التوراة بشأن الأحداث التى صحبت الخروج من البحر، ومما اقتبسه (فليكوفسكى) من تلك النصوص: «لقد مرت البلاد بلوى عظيمة، سقط الشر على أرضها، وثارت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد، ولم يغادر أحد القصر الملكى لمدة تسعة أيام كاملة، وأثناء هذه الأيام التسعة من جيشان الأرض، كانت هناك عاصفة بلغت قوتها حداً لا يستطيع معه الإنسان ولا الإله أن يرى وجوه الآخرين».

وحجر العريش ليس ـ عند (فليكوفسكى) ـ سوى تسجيل للقصة الكاملة للبلاء العاشر، الذى أنزله الرب الإسرائيلى بمصر فى شكل ظلام وعواصف برية، فالحجر يتابع «وفى خضم المحنة، وتقلبات الطبيعة الوحشية، جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه إلى مناطق، وعدهم أنهم سيرون فيها النور من جديد (سنرى أبانا رع حر أختى فى منطقة باخيت المضيئة).. وفى هدأة الليل، وتحت ستار الظلام، إقتربت جافل الغرباء من حدود مصر ثم إجتازتها (وذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته.. وحين قاتل جلالة الملك رع حرماكيس، حين قاتل إله الشر **بالقرب من البحر** فى مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، **ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر)**.

وبعد شروح يعود الكاتب إلى المكان الذى انتهت إليه مسيرة الملك قبل غرقه فى البحر، وأنها محددة بالاسم فى النص «ووصل جلالته إلى مكان يسمى **بى خاروتى**»، ثم يأتى بنص التوراة «فسعى المصريون وراءهم، وأدركهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسان جيشه، وهم نازلون عند البحر، عند **فم الحيروث** ــ خروج ١٤ : ٩»، ثم يوضح «وبى خاروتى فى المصدر المصرى هى (بى حيروث) أو (فم الحيروث) فى المصدر العبرى، إنه المكان نفسه والمطاردة نفسها.. وبعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون (صاحب السموجب) باحثاً عن أبيه (وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى يات نيبيس، والصراع الذى خاضه الملك توم)، ويحكى النقش أن كل من رافقوا الأمير فى رحلته للبحث عن أبيه قد ماتوا حرقاً، أما الأمير نفسه صاحب السموجب، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث وهو يائس من العثورعلى أبيه الذى لقى حتفه، ومن غبرة الصحراء فى طريق يات نيبيس وصل الغزاة واحتلوا مصر (أتى أبناء أبوبى المتمردون الذين كانوا يعيشون فى أوشيرو .. وساروا على طريق يات نيبيس، وحلوا على مصر مع حلول الظلام، لقد غزوا البلاد ليحطموها ويدمروها)، وبمرور الوقت برد الجوفى مصر وجفت الأرض، ولم يعرف ماذا حدث بعد ذلك

للأمير التعس، ولكن نهايته كانت بائسة بالتأكيد (لقد دمرت مصر بالإعصار فأكلتها النيران، أما العاصمة فقد احتلها الآمو).. إن النقش الموجود على حجر العريش يحدد اسم الفرعون الذى هلك فى دوامة البحر، كان توم أو تووم، ومن المثير ان اسم (بى توم) تعنى مسكن أو مقرتوم، و(بى توم) كانت إحدى المدينتين اللتين شيدهما العبيد الإسرائيليون للفرعون الطاغية وبأمر منه، وطبقاً لمانيتون فإن الفرعون الذى حل غضب السماء على مصر عهده قبل غزو الهكسوس، كان يدعى توتيماوس أو تيمايوس ».

الوثيقة الثالثة :

بردية الارميتاج :

وهى بردية الحكيم (نفروحو) المحفوظة بمتحف الأرميتاج بلينجراد بروسيا ويرى فيها (فليكوفسكى) ترديداً لذات نص بردية ليدن، وإن اختلفت فى كونها نبوءة ألقاها صاحبها أمام أحد الفراعين، وأهم ما يريده (فليكوفسكى) منها قولها فى مقاطع :

ملء قلبى رثاء لهذه الأرض التى نبع منها الفن..

ستهلك هذه البلاد وما عليها ولن يبقى سوى الشر

فانية هذه البلاد

ستحتجب الشمس ولن يرى إنسان النور

لن يبقى أحد حيا

النهر جاف

ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية

وتكابد الأرض بؤساً لم تعرفه

ويحتل البلاد البدو حين يأتون من الشرق

سينزل الآسيويون أرض مصر

ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر

أرى هناك الأرض مقلوبة رأساً على عقب

ويردف (فليكوفسكى) : « إن الرائى نفررحو يتنبأ بعد ذلك بتحرير مصر على أيدى ملك مصرى، يولد من أم نوبية، ويسمى (أمينى)، وهو الذى سيقتل الآمو (البدو) بسيفه، وبعدها سوف يبنى سور الحاكم حتى لا تتكرر عودة الآمو إلى مصر.. واسم (آمنى) يشير إلى (آمن حوتب) الأول، وهو واحد من الملوك الذين حكموا مصر بعد أن تم تحريرها من الهكسوس، وكان وقت بداية حروب التحرير مازال أميراً، وكانت صوره على الجدران المعابد تشير إلى

لون بشرته الأسود، وهو ما يتفق مع مقولة أنه سيولد لأم نوبيـة، وقد تم تبجيله فيما تلا ذلك من عصوره ».

الوثيقة الرابعة :

نبوءة الخزاف :

وهى أثر أدبى ممـاثل فـى مضمونـه للوثـائق السـالفة، لخـزاف عاش فى عهـد (أمينحوتب) يقـول : « إن نهـر النيـل سيمتلئ بالميـاة، ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العـام، وتستعيد الشـمس مجراهــا الطبيعـى »، ممـا يشـير إلـى خلــل قــد أصــاب النظــام الطبيعى الكونى.

الوثيقة الخامسة :

مقياس سمنة :

« ولاحظ (ليبيسيوس) أن مقياس النيل عند (سمنة) الموجود منذ عصـر الدولة الوسطى، يظهر ارتفاعاً عظيماً لمستوى المـاء فـى ذلـك المكان، حيث يجرى النهرى فـوق أرض صخريـة، ومقدار الارتفـاع يزيد عن أعلى ارتفاع للمياه مسـجل فـى العصـر الحديث بمقـدار ٢٢ قدماً، ونظرياً فإن هبوط مستوى الماء فى ذلك المكان بعد ذلك بمقـدار اثنين وعشرين قدماً قد يعزى إلى واحد من احتمالين: فإمـا إلـى تغير

كمية المياة المتدفقة من نهر النيل، أو إلى تغير فى التركيب الصخرى والطبقى للأرض، ولو كان النهر يحمل هذا القدر العظيم من الماء قبل الكارثة، فإن العديد من المعابد والمساكن كان من المفترض أن تغطى تماماً بالمياة بانتظام كل عام مع الفيضان، لكن الواضح أن التغيير المرصود عند مقياس سمنة، يدل على حدوث تغيرات ضخمة فى التكوين الصخرى وفى طبقات الأرض بمصر، فى أواخر الدولة الوسطى أو بعدها ».

الوثيقة السادسة :

نقش حتشبسوت :

وهو نقش حجرى فى عهد الملكة (حتشبسوت) التى حكمت بعد جيلين أو ثلاثة من طرد الهكسوس، وتقول فيه الملكة: « إن مقربة كيس قد تحول إلى انقاض، وابتلعت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزالت عنه ما تراكم، وأعادت بناءه.. فقد كان هناك مقر ربه فى وسط الدلتا، وفى حاوار (حواريس عاصمة الهكسوس)، وكانوا هم من دمورا كل المبانى القديمة، وحكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع »، ويعقب (فليكوفسكى) : « إن السطور السابقة تحمل الدليل على أن تلك المعابد قد ابتلعتها الأرض.. وصحيح أن

الهكسوس قد دمروا المباني، لكنهم لم يدفنوها في الأرض »، وهو بذلك إنما يشير إلى كارثة طبيعية ليست في رأيه شيئاً آخر سوى كارثة الخروج.

وينهي الباب الأول من القسم الأول بعبارة تلخص نظريته تماماً، وتقول: «لو كانت كل المقارنات السابقة، والنتائج المترتبة عليها، صحيحة، فإن خروج الإسرائيليين يكون قد سبق غزو الهكسوس لمصر بأسابيع أو بأيام قليلة ».

امبراطورية الهكسوس العربية

وربما الأمر هنا لا يشبه مجموعة الوثائق التي جمعها (فليكوفسكي) للتدليل على صدق أحداث الخروج كما وردت بالكتاب المقدس، إنما هي مجموعة شهادات عربية على القسم الثاني من نظريته، والذي يذهب إلى أن الهكسوس كانوا من عرب شبه الجزيرة العربية، وليسوا كما ذهب المؤرخون إلى احتسابهم من منطقة أرمينيا. فهو يلتقط طرف الخيط من (مانيتون) في شذرة تقول: « البعض قالوا أنهم كانوا عرباً » ، وهم من أطلق عليهم المصريون اسم (آمو). وكان الهكسوس من الشعوب التي تشربت حتى النخاع بروح التدمير والتحطيم، وعلى قدر ما هو معروف، لم يترك الهكسوس أثراً أو نصباً تذكارياً ذا قيمة تاريخية أو فنية طوال فترة حكمهم، وأن هؤلاء الهكسوس ليسوا سوى التسمية المصرية لمن ذكرهم سفر الخروج باسم العمالقة، حيث « أتى عماليق وقاتلوا إسرائيل عند رفيديم » في طريق الخروج بسيناء، لذلك قال الرب لموسى: « أكتب هذا تذكاراً في الكتاب وضعه في مسامع يشوع، فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ١٧ : ١٤ ».

وإن هؤلاء العماليق في هجرتهم انقسموا خطين عظيمين: الأول احتل كل منطقة شرقي المتوسط، بينما احتل الثاني مصر، وعند خروج بني إسرائيل من مصر وقت انهمار سيول العمالقة على المنطقة، « وبسبب وجود العماليق في جنوب فلسطين، اضطر الإسرائيليون للبقاء في الصحراء على مدى جيل كامل »، وبذلك يفسر (فليكوفسكي) مسألة التيه أربعين عاماً في سيناء.

ولتأكيد فروضه حول كون الهكسوس هم ذاتهم العمالقة، وأنهم كانوا من غرب شبه الجزيرة، فإنه يؤكد أن ما حدث للطبيعة من هياج مفاجئ في مصر، قد حدث أيضاً على الضفة الأخرى من البحر الأحمر في جزيرة العرب.

وبصبر غريب ينقب الرجل عن كل ما يدعمه في كتب التراث الإسلامية، وما جاء فيها من تاريخ جزيرة العرب في عصورها الأولى. ومعلوم أن حديث العماليق من الأحاديث المتواترة في كتبنا الإخبارية بحسبان العماليق من أشهر قبائل العرب البائدة، وأنهم بادوا كما جاء في مستندات (فليكوفسكي) بنصوص من (المسعودي) وصف فيها الغضب الإلهي الذي حاق بهم، وكيف أرسل عليهم الله سيلاً هربوا على إثره من البلاد متتبعين سحباً قادتهم إلى أماكن دمارها أشد هولاً. يقول المسعودي : « ودمرت مكة في ليلة واحدة بضجيج

يصم الآذان، وتحولت كل المنطقة إلى صحـراء بلقـع، وأصبحـت كـل الأرض من الحجون إلى الصفا صحراء قفرا .. وصل العمـاليق إلـى سوريا ومصر وامتلكوا البلاد، وكان طغاة سورية وفراعنة مصر من أولئك العمـاليق، .. وقـدم ملـك العمـاليق الوليـد بـن دومـا مـن سـوريا وغزا مصر وقهرها واستولى على العرش.. وغـزا العمـاليق مصـر بعد أن عبروا حدودها وبدأوا فى نهب البلاد، وحطموا أعمالهـا الفنيـة وخربوا كـل آثارهـا (ويلفت فليكوفسكى نظرنـا إلـى تشابه تعبيرات المسعودى مـع نـص حتشبسـوت)، كذلك طعّم مسـتنداته بأسانيد مـن شهادة الطبرى "ثم مات ملك مصر، وارتقى ملك آخر عرش البـلاد وكان من العماليق، كان يدعى قابوس بن مصعب بـن مويـا بـن نمير بن سلواز بن عمرو بن عماليق"، ومن شهادة أبـى الفدا "كـان هنـاك فراعنـة مصريـون من أصـل عمـاليقى"، ومـن شـهادة أبـى الفـرج الأصبهانى "إن العماليق انتهكوا حدود الحرم فحلت عليهم نقمـة اللـه، فتركوا مكة.. وساقهم الله إلى منشئهم حيث أغرقهم بالطوفان".

وحسب (مانيتون)، فقد أنشأ الهكسوس لهم عاصمة شرقى الدلتا باسم (حواريس)، وكان أول ستة ملوك منهم يشـكلون الأسـرة الأولـى مـن الفراعنـة الهكسـوس، وأشـهرهم الملـك الرابـع فـى هـذه الأسـرة (أبو فيس)، وهنا يصدر فليكوفسكى بعض الأحكـام مـن قبيـل "وكـان

حكم الهكسوس قاسياً، ولم تدرك قلوبهم شفقة ولا رحمة »، ثم يضيف «ولم تقتصر هيمنة الآمو الهكسوس على مصر وحدها فقد وجدت جعارين وأختام رسمية في العديد من البلدان تحمل اسم الملك المصرى (أبوب = أبو فيس) والملك (خيان)، كما وجد اسم خيان أيضاً على تمثال لأبى الهول اكتشف في (بغداد)، وعلى غطاء آنية في (كونسوس) بجزيرة (كريت)، كما وجد نقش يعود للملك (أبوب) ذكر فيه «أن أبوب الملك، ست رب حواريس، قد أخضع كل البلاد تحت قدميه .. ووجد بعض المورخين أنفسهم مجبرين على قبول حقيقة أن الهكسوس كانوا أصحاب إمبراطورية كبرى، ولو لفترة محددة من الزمن .. وطبقاً لمانيتون .. كان آخر ملوك الفراعنة الهكسوس ملكاً قوياً يدعى أبوب الثانى» .

ولأن الإسرائيليين غادروا مصر وقت دخول الهكسوس، ولأنهم لقوهم في سيناء، ولأن تلك النظرية لاتجد نصاً توراتياً واضحاً بشأنها، فإن (فليكوفسكى) يعثر على ذلك النص، ويكتشف أن الإسرائيليين قد عرفوا بالفعل الكارثة الحادية عشرة التي حلت بمصر ممثلة في غزو الهكسوس، والنص في سفر المزامير، ويقول : «أرسل الله عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة

أشرار ـ ٧٨ :٤٩ »، ويكتشف أن تعبير (ملائكة أشرار) خطأ في القراءة والترجمة، حيث (ملائكة) و (ملوك) تتشابهان في العبرية، ثم تأتي زيادة حرف (ألف) إلى كلمة (رعاة) فتحولها إلى كلمة (أشرار)، ومن ثم فقد كان الأصل: **أرسل الله عليهم جيش ملوك رعاة، وهو الأصطلاح المأخوذ من كلمة (هكسوس)** » .

وتأسيساً على كل تلك القرائن، وإعمالاً لتلك الشواهد الغزيرة، ينتهي (فليكوفسكي) إلى إعادة التزامن الصحيح للتاريخ، ويعيد إليه أربعمائة سنة مفقودة بين نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، إضافة للمئتي عام المفترضة من قبل المؤرخين لتلك الفترة الزمنية وهو الفرض غير المقبول منطقياً. ليصبح الزمن ما بين سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة القديمة، وبين الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة، ستة قرون كاملة، **ومن ثم يكون زمن التيه، ويشوع، والقضاة، الذى استغرق في تاريخ إسرائيل أربعة قرون، يقع في توقيت واحد مع حكم الهكسوس العماليق لمصر**، وتبقى المئتي سنة الأولى لأسر مصر متهالكة فيها يعرف بالعصر المتوسط الثاني.

ومن هنا يستمر (فليكوفسكي) في دعم فرضيته ليسوق المزيد من الأدلة على صدقها، ويقف مع نص العراف (بلعام) بالتوراة،

والذى يمتدح فيه إسرائيل ويقول : «يجرى ماء من دلائه، ويكون زرعه على مياه كثيرة، ويتسامى فى ملكه على أجاج وترتفع مملكته.. ثم رأى عماليق فنطق بمثله وقال : عماليق أول الشعوب وأما آخرته فإلى هلاك ـ عدد ٢٤ : ٧،٢٠ »، ويستنطق (فليكوفسكى) ذلك النص مالم يخطربباله أحد حتى اليوم، فعماليق أول الشعوب تشير أن العمالقة كانوا أصحاب إمبراطورية عظمى، لكن آخرته ستكون الهلاك على يد بنى إسرائيل، و(أجاج) الملك بالنص ليس سوى (ابوب الثانى) آخر ملوك تلك الأمبراطورية، حيث كانت العبرية القديمة تحمل تشابها يؤدى إلى اللبس بين حرفى (ج) و (ب).

ومن بردية ساليه يخرج (فليكوفسكى) بمدى الازدراء والاحتقار الذى كان يعامل به الهكسوس أمراء الولايات المصرية، وكيف حكت تلك البردية عن رسالة مهينة من (أبوب الثانى) إلى (سقننرع) أمير طيبة، وكيف «ظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل، ولم يدر بم يجيب على رسالة الملك أبو فيس» ومن ثم «قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك **أبوب الثانى إلى حواريس**، ونهاية البردية مفقود ».

لكن الأمير (كاموس) ابن الملك الطيبي (سقننرع) قاد أولى عمليات المقاومة **ضد الهكسوس العرب، بمعاونة قوات أجنبية**، كما هو مسجل بلوح كارنارفون، كما أن قصة طرد الهكسوس محفورة على جدران مقبرة الضابط (أحمس)، وكان ضابطاً في جيش الملك (أحمس) الذي حمل الاسم ذاته، أخي الملك (كاموس)، وقد قاد الكفاح ضد الهكسوس بعد أخيه، وهنا يقول (فليكوفسكي): « **إن الأمراء المصريين المتمردين على حكم الهكسوس، لم يكونوا هم من حرر مصر، لكن مقاتلين أجانب من خارج مصر** هم المحررون الحقيقيون لها، فالنقش بمقبرة الضابط أحمس يقول : تابعت الملك سيراً على أقدامي في حين ركب عجلته الحربية، في طريقه إلى خارج الولاية.. **كانوا هم** يحاصرون مدينة حواريس، أظهرت بسالة في القتال مترجلاً أمام سموه.. **كانوا هم يحاربون** من جهة قناة المياه في حواريس، ثم نشب قتال جديد في ذلك المكان.. وشاركت في القتال مرة أخرى.. **حاربواهم** في مصر هذه جنوب تلك المدينة.. ثم استطعت اقتياد أسير حي.. **استولوا هم** على حواريس **وهم حاصروا** شاروهين لاربعة أعوام، ثم أخذها جلالته » .

ويتوقف (فليكوفسكي) مع أولئك الأجانب المشار إليهم بإشار الغائب (كانوا هم) في النص، ليشير إلى أنهم أصحاب الفضل الحقيقي

في تحرير مصر من العرب العمالقة الهكسوس، ليقرنه مباشرة بنص الكتاب المقدس، حيث يقول (صموئيل) آخر قضاة إسرائيل، (لشاول) أول ملوك إسرائيل: « هكذا يقول رب الجنوب : إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل، حيث وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، واحرموا كل ماله (أحرموا اصطلاح توراتي بمعنى أبيدوا، والإشارة من عندنا) ، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، حملاً وحماراً... ثم جاء شاول إلى مدينة عماليق وكمن في الوادي .. وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر وأمسك أجاج ملك عماليق حيا ــ صموئيل أول ١٥ : ٢ ــ ٨ »، ويعقب « كانت عبارة مدينة عماليق عقبة دائمة أمام دارسي التوراة.. فقد كانوا يفترضون أن العماليق ليسوا سوى قبيلة صغيرة.. والأدلة الوحيدة على موقع تلك المدينة هي العلامات الطبوغرافية لموقعها، فالمدينة حوصرت من جهة مجرى قناة للمياه، أو نهر ـ ناخال .. ولا يوجد في كل تلك المنطقة سوى نهر وادي العريش ... حيث تجري مياهه غزيرة بالشتاء، ويجف مجراه صيفاً » .

ونكتشف أن مدينة العماليق ليست سوى (حواريس)، وأن أجاج هو (أبوب)، وأن (هم) ليسو سوى بني إسرائيل بقيادة الملك (شاول)،

ومن ثم وجد (فليكوفسكى) أن من واجبه إعلان « أن هناك ديناً تاريخياً يدين به الشرق الأدنى لنيله حريته، وتخليصه من نير عبودية الهكسوس على يد شاول، لكن أعماله العظيمة لم تقدر، بل حتى لم يعترف بها، لقد كان سقوط حواريس وتدمير جيوش العماليق، تغييراً حاسماً لمسار التاريخ، ومن جديد نهضت مصر لتبنى قوتها مرة أخرى، وتستعيد إشراقها بعد أن تحررت من العبودية التى دامت مئات السنين، **وكان محررها واحد من بين أحفاد اليهود الذين كانوا عبيداً بمصر** » .

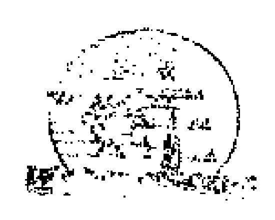
بل أن حصار (شاروهين) بعد ذلك حيث أنسحب الهكسوس، والذى دام ثلاث سنوات لم ينته على يد المصريين كما يظن علم التاريخ التقليدى، لكن على يد أحد قادة جند الملك (داود) خليفة (شاول) والمعروف باسم (يوآب)، والذى تتواتر عنه أسطورة تقول أنه اخترق بمفرده أسوار عاصمة العماليق، وقد كتب الضابط (أحمس) : « لقد **حاصر هو** شاروهين لمدة ثلاثة أعوام ثم أخذها جلالته » .

وقبل أن يصل (فليكوفسكى) إلى إغلاق القسم الأول والأساس الصلب لنظريته لايفوته القول : « لم يستطع الإسرائيليون أبداً أن

ينسوا معاناتهم فى مصر، ولكنهم لم يحملوا أبداً أية كراهية للمصريين، أو للشعوب الأخرى فى تلك المنطقة القديمة، لكن العماليق وحدهم هم الذين أصبحوا رمز الشر فى نظرهم، ومن ثم هدفاً لكراهيتهم.. إن الشر الهائل فى ذلك الشعب ظل يتكرر حتى الملل فى آداب الفكر القديم، وكيف كانوا يمتصون دماء الشعب المرهق فى تيه الصحراء (يقصد بذلك الشعب المرهق اليهود)، وكيف كانوا ينصبون الكمائن بكل خسة وجبن، ويستولون على الأقوات القليلة، وكيف كانت حقارتهم ووضاعتهم ووحشيتهم تظهر فى مهاجمتهم للضعفاء فى مؤخرة القافلة، وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم ويهرطقون ويجدفون بكفر صارخ، بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء، ويسخرون من الرب .. لقد خلف الهكسوس ذات الكراهية فى نفوس المصريين، فقسوتهم البالغة، ووحشيتهم التى لا تعرف رحمة، تركت آثاراً من المستحيل محوها من ذاكرة الشعوب.. لقد كان قدر شاول أن يحمل مهمة تحرير إسرائيل ومصر على عاتقه، **ولم يذكر المصريون إسرائيل بالتقدير المناسب، وأشار إليهم المصريون بـ(هو) و(هم)** وكان ذلك بعض الظلم، وكانت مكافأتهم للاسرائيليين ما قام به المؤرخون المصريون بجمعهم الإسرائيليين مع المخربين الهكسوس فى سلة واحدة، مع أن الإسرائيليين هم من طردوا الهكسوس من

مصر ومن حواريس.. وفي عالم الإغريق وإمبراطوريتهم لم توجد إشارة واحدة إلى كراهية عنصرية لليهود، حتى بدأت **قصص المصرى (مانيتون) فى الانتشار والذيوع .. وحين عرف اليهود كسلالة منحدرة من العماليق الغزاة المتوحشين** .. وكانت هناك كراهية موازية لا تقل عنها ومتأججة على الدوام من نفوس اليهود وذاكرتهم نحو العماليق. إن الكراهية من الممكن أن تدوم وتمتد عبر الزمن حتى ولو لم يعد المستهدف بالكره موجوداً على ظهر الأرض. وكم كان يصبح عليه مقدار هذا الكره، إن لم يكن **المكروهون قد ذابوا بشخصيتهم القومية من آلاف السنين فى شعوب شبه الجزيرة العربية** .. لقد رأى المؤرخ المصرى مانيتون أن اليهود هم البذرة الخسيسة للطغاة المتوحشين.. وتسللت تلك الكراهية إلى كل الأجيال.. **إن اللعنة التى وجهت إلى العماليق تحولت لتنصب على بنى إسرائيل** .. ومحيت ذكرى العماليق حتى لم يعد هناك من يعرف أن العماليق كانوا هم الهكسوس، واستمر الإسرائيليون يعانون أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ، وحملوا آلام إدراجهم فى سلالة العماليق، **وبدأ ذلك العقاب التاريخى حين أطلق مانيتو أحكامه الخاطئة، مانيتو المصرى الذى تحررت أمته من الهكسوس على يد اليهود؟**».

ومن هنا يبدأ (فليكوفسكي) مشواره الطويل لإعادة كتابة تاريخ العالم وترتيب فوضى العصور، مع الإصرار على معالجة ذلك التشويه الظالم الذى لحق بنى جلداته، وإلى هنا نوقفه، لنبدأ رحلتنا معه مرة أخرى من البداية، ورغم اعترافنا بقدرته العظيمة على البحث، واحترامنا لجهده الهائل، ووصفنا له بأنه رجل من نوع نادر وفذ. فإن ذلك لا يمنعنا من وصفه الآن بأنه أبرع رجل علم ، تمكن من استخدام أدوات البحث العلمى لإجراء أروع بل وأمتع عملية **تزييف وتلفيق وتزوير، فى تاريخ العلم والعالم.**



التحـــــــدى

وعود على بدء، ومع مقدمة (عصور فى فوضى)، تلك المقدمة الهادئة المغلفة داخل طرح علمى لأهم الإشكاليات التى سيتناولها ذلك التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، دون أن تبدو أية ملامح لتلك النقمة الشديد على التاريخ الذى أهمل شأن شعب إسرائيل، ورماهم بكل ما فى قاموسه من اصطلاحات عدائية فى كتاباته المتأخرة من بعد الميلاد، ـ لذلك استحق أن يعاد النظر فيه، لأنه بخطيئته كان خاطئاً ـ يوحى كاتبنا بمدى ما أصيب به من عسر ومشقة وهو يبحث فى مدونات العالم القديم، وهو لا شك محق فى ذلك تماماً. لكن الإيحاء يتوسع فى دلالاته، حيث يصف الكاتب نفسه بأنه سيكون كرجل المباحث، الذى لا يهمل فى بحثه وراء الجريمة شيئاً مهما بدا تافهاً و «حتى لو كان شعرة على عتبة نافذة»، لكن ما وضح لنا بعد أن أتممنا قراءة العمل، وسعينا وراء مصادره، وفى ضوء معرفتنا بالتراث، أن الرجل فعلاً لم يهمل شعرة على عتبة نافذة، ولا خطا عفوياً على حائط، ولا كومة قمامة ملقاة فى ركن غرفة، لكنه أهمل عن قصد مبيت وعن رغبة، عوارض خشبية تسد الطريق، وألواحاً من حديد لا يمكن النفاذ من خلالها، وهنا مكمن خطورة الكتاب على قارئ ذى اهتمام عام بشؤون التراث، لا يمتلك

أدوات كافيــة للتعــامل مــع الكتــاب ومؤسســاته، وإمكانيــات اللعــب بنصوص ذلك التراث لعبــة تلفيقيــة، ذات أغـرض سياسـية عنصريــة، مغلفة بأردية شديدة الكثافة، ومُخاطة بقدر عظيم من الذكـاء، مادتهـا عقلانية ساطعة وعلم باهر. لذلك كان الرجـل فخوراً بعملـه إلـى حـد وصفه في مقدمته أنه « إنجازه الأعظم على الإطلاق »، ثـم لايلبـث أن يقدم تحديه للجميع سافراً: « وأنـا أقـدم هنـا معركـة كـبرى للتـاريخيين والمؤرخين » ورغم أن الرجل يطلب عراكاً، ويقفز على الحلبـة طـول الوقت دون أن يستقر ودون أن يلهـث، مستفزاً الجميـع داعيـاً إيـاهم للنزال. فإننا فيما نعلم، وفى حدود بلادنا على الأقل، لم نجـد مـن قبـل النزال، إنما ما بدا حتى الآن هو القبول بقفازه المرمى علـى الوجـوه، ثم يقول عن عمله « إعادة بناء التاريخ القديم للعـالم مـن جـذوره » إنـه عمل « غير مسبوق بمحـاولات مثيلـة » بـل « إنـه ليســت هنــاك أيـة فرضيـات قويـة، ولا أدلـة ولا براهيـن، يمكنهـا أن تواجـه أو تدحـض إعادة صياغة التاريخ التى أوردناها ».

لكن؛ وفق أى معيار يقوم بإعادة كتابة التاريخ وإعادة تزمينـه، مادام الأصل المصرى فاقداً السلامة؟ إنـه كمـا عرضنـا سـار بنـا مـع وثائق وبرديات وحفائر وأحداث وكوارث، لكن كان يلقى بنا كل مـرة فى قبضـة التاريخ الإسرائيلى، حيث ينتهى إلى قياس كل شـئ بمعيـار

التاريخ اليهودى وحده، والكتاب الذى دون ذلك التاريخ، الكتاب اليهودى المقدس وحده، والعقل الذى صاغه، العقل اليهودى وحده. لكنك لا تلمس بطول كتابه نزوعاً إيمانياً حقيقياً، ولا يبدو الرجل كحبر من الأحبار، ولا حتى ذا ميول دينية، بل إنك تلمس رغبة الرجل فى ألا يبدو رجل دين تقليدي، بل يكاد يفصح أحياناً بإلحاده. لكن لأن قيام الدولة الإسرائيلية حالياً، لا يجد أى دعامات من مقومات الكيانات السياسية، ولا يجمع عقدها المتنافرة سوى الدين وتلك الذكريات التاريخية، كأسس للقومية الإسرائيلية. فإن (فليكوفسكى) بكتابه هذا. سجل أعظم نقطة فى رصيد القوميات العنصرية، بقراءة موثقة، وتنظير قلّ أن يوجد مثيلا له لتاريخ إسرائيل المقدس، وبحيث تطابق ما كنا نظنه خرافة وميثولوجيا، مع وثائق أخرى رصدت ما بدا أنه حدث موضوعي واقعي، سحبت مصداقيتها على النصوص التوراتية فى أدق تفاصيله، وفى منمنمات تلك التفاصيل وفسيفسائها، حتى بدا كتاباً لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وربما من باب التحدى لمن يفكر فى النزال، قام الرجل يروعنا بمغامراته التى صاحبت نشر كتابه الأسبق (عوالم فى تصادم)، ويقول :

« إن مجموعة العلماء التى هاجمت عوالم فى تصادم وأدانت مؤلفه، ولعدم قدرتهم على إثبات أن الكتاب أو حتى جزءاً منه قد جانبه الصواب، أو أن إحدى الوثائق الواردة به مزيفة، فإن تلك المجموعة

من العلماء انزلقت إلى موجة من التعصب الأعمــى، بلا أدنى أسـس علمية، وحـاولوا وأد الكتـاب فـي مهده، وهو بين يدى أول ناشــر، بالتهديد بمقاطعة كل ما تنتجـه تلك الدار من كتب ومراجـع.. وبلـغ الأمر حدتـه حيث أجبروا عالماً وكاتباً صحفياً علـى الاستقالة مـن عملهما، لكونهما اتخذا موقفاً موضوعياً علنياً من الكتـاب، ممـا حـدا بكثير من المفكرين الأكاديمين بالجامعات، إلـى السعى لقراءة كتـاب عوالم فى تصادم سراً، والاتصال بكاتبه في الخفاء ».

نحن إذن بإزاء كاتب ألجأ علماء الدنيا للتخلى عن موضوعيتهم وحيادهم ووقارهم العلمى، والتحول إلى استخدام أساليب قمعية إزاءه، عندما لم يجدوا لديه تزييفاً في الوثائق، أما نحن، فنعقب « كاد المريب يقول خذونى » لأننا رغم كوننـا غير محسوبين علـى علمـاء العرب، ناهيك عن علماء الدنيا، قد كشفنا فى كتابه (عوالم فى فوضى) تزييفاً، لكن من نوع جديد وخطير.

أما لماذا كل ذلك الهجوم الذى تعرض له كاتبنا؟ فيرجع ـ فيما يوعز به للقارئ ـ إلى أن كتابه احتسب مروقـاً علـى الدين، وتجديفاً على الملة اليهودية، وهو مـا يتضـح بقولـه فـى المقدمـة : « لقد كـان حراس العقيدة، وما زالوا، متحفزين دوماً لمهاجمة أى جديـد وإدانتـه بأساليب رجعية، بعيدة عن الحجة الموضوعية وعن النقـاش، فضـلاً

عن تحقير صاحب كل فكر جديد في أعين الرأى العام .. وفي مسوح من يريدون إظهاركم هي خطأ تلك الأفكار المتمردة والمنشقة عن الدين »، وهكذا فالكاتب يطمئن القارئ على أمرين : الأول : أن الذين يهاجمونه رجال دين تقليديون متعفنون يترصدون لكل جديد بعقلية متخلفة، وبذلك يكسب اشد القوى استثارة، لأن معنى ذلك اتخاذه موقفاً، علمياً موضوعياً لا ينحاز لرأى أو عقيدة. أما الثاني، فهو أنه سيقول ما يعتبر تجديفاً في عرف بني ملته، وأنه قد قبل بذلك الموقف التزاماً من جانبه لوجه الحق بغض النظر عمن سيغضب ومن سيرضى.

وبين المقدمة والتمهيد، يعمد إلى فصل يبدو كنتوء مقصود تحت عنوان (اعتراف بالفضل)، وهو ما اعتدنا كباحثين إدراجه بالمقدمات لتقديم التقدير لمن ساهم في إنجاز البحث وقدم العون للباحث، لكن (فليكوفسكى) قصد ما هو أكثر من تقديم الامتنان، حيث أورد مجموعة أسماء لعلماء ومتخصصين في صيغة الشكر على المعاونة، لكنها ملتبسة بما يشير إلى موافقتهم على عمله واقتناعهم بفروضه ونتائجه، وبشكل لحظنا فيه مالا يبدو واضحاً من التواء يعسر مؤاخذته عليه، وخرجنا بنتيجة مفادها أنه لا العلماء المذكورون وافقوا وأيدوا... ولا هم - في ضوء الأسلوب الملتوى - بقادرين على

الاحتجاج، ولا القارئ سيلتفت إلى الخدعة المبيتة، ونضرب لذلك أمثلة لأهميتها كنموذج لأسلوبه الذى احتذاه بطول كتابه :

يقول « أشعر بامتنان أيضاً للدكتور (والتر فيديون) بمعهد دراسات آسيا بنيويورك، الذى لم يتوان عن مد يد العون بمعلوماته الغزيرة عن الأدب القديم، ويزيد من إحساسى بالعرفان أنه لم يحاول أبداً أن يقحم نفسه بأى شكل على فرضياتي الخاصة بالكتاب، ولقد **اقتضى الأمر ما يزيد على ستة أعوام، حتى اقتنع** وأقر بأن التاريخ التقليدى كما نعرفه، غير مبنى على أسس ثابتة. »، ولا أخفى القارئ سراً، أنى رغم اهتمامى الواسع بالتراث القديم، فلم يصادفني إطلاقاً عالم باسم (والتر فيديون)، واحتسبت ذلك للوهلة الأولى تقصيراً ينبغى تلافيه. أما كلام فليكوفسكى فيشير إلى اقتناع (د.فيديون) أخيراً برأى (فليكوفسكى) وموافقته على إعادة صياغة التاريخ المبنى على أسس غير ثابتة، ومع قراءة متأنية تكتشف أن (فيديون) كان لديه تحفظات وآراء ترفع بها عن الإقحام فى عمل (فليكوفسكى) ، لكن الأهم هو أن فيديون احتاج ست سنوات ليقتنع أن التاريخ القديم يقوم على (أسس غير ثابتة)، أما التعبير الأصدق (غير يقينية أو قاطعة)، وهو أمر معلوم لدى جميع العارفين بذلك التاريخ، ويعلمون أيضاً أن ذلك ليس لعيب فيه أو خلل ينتظر (فليكوفسكى) ليصلحه، إنما هو ناتج

حلقات مفقودة لم تقدمها لنا الحفائر الأركيولوجية حتى الآن، والتى تقدم كل يوم جديداً يملأ مثل تلك الثغرات. والقول باحتياج (فيديون) لست سنوات للاقتناع بفرضية الكتاب ... اسلوب فيه التواء يسمح بتسرب المعنى الآخر للذهن، لكن إن كان حقاً، قد احتاج (فيديون) ست سنوات ليقتنع بأمر معلوم، فربما فسر لنا ذلك أننا لم نسمع به من قبل بين العلماء المتخصصين.

ثم يقول : «كما أدين أيضاً للدكتور روبرت هـ. فايفر المرجع الفذ لدراسات الكتاب المقدس، ومدير بعثة التاريخ القديم بجامعة بوسطن، ومحرر جريدة الكتاب المقدس، ومؤلف العمل المميز عن العهد القديم (لاحظ الألقاب التى يعددها فليكوفسكي للمرجع الفذ، محذراً فيما يبدو أى متواضع مثلى لا يحمل مثلها من محاولة التعرض له)، وهو من الشخصيات التى يركن إلى آرائها،.. إن فايفر اقترح علىّ أن أحاول إثبات فرضياتى على أسس من الوثائق الآثارية، وهو ما أخذت به»، وهنا واضح من رؤية فايفر ما يشير إلى خلل تلك الفرضيات، وعدم قناعته بما قدم كاتبنا، مع رفضه التورط بالتأييد لفليكوفسكي.

وللأختصار نصل مباشرة إلى قوله : «كما قرأ أيضاً البروفيسورج . جارستانج المنقب فى آثار جيركو، النسخة الأولية

للقسم الأول (الذى نحن بصدده)، وأقر بأن وصف الوثائق المصرية القديمة للكارثة التى صاحبت الخروج، يتطابق تماماً مع وصف الكتاب المقدس، مما يثبت أنهما وصفان لحدث واحد »، وهنا أرى من واجبي الإشارة إلى أن (جارستانج) هذا هو صاحب كشف لجعران في (جيركو) المزعوم أنها (أريحا)، وأن هذا الجعران المصرى عليه كتابة تشير بالقطع وباليقين أن النبي موسى هو ابن الفرعونة (حتشبسوت). بينما نرى نحن من جانبنا أن تلك كانت أكبر تلفيقة في تاريخ علم الآثار، وكارثة علمية حقيقية، ولا يمكن أن تتفق بأية حال مع بقية الشواهد والقرائن التى جمعناها لكتابنا (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة). ولأن عملنا هذا مازال قيد البحث، فمن الأفضل تأجيل نشر الفضائح الآن، ومؤقتاً، لأننا مع (فليكوفسكى) مع ما هو أكثر من فضحية. وعليه يبدو أننا قد غامرنا بنزلو الساحة أمام (فليكوفسكى) ، وقبلنا التحدى، الذى لا نقدم فيه الآن بديلاً لفروض وطروحات فليكوفسكي، قدر ما سنثبت أن تلك الفروض والطروحات قامت على تلفيق وتزوير، إحتاج كشفها صبراً وجلداً، ربما لا يصل إلى صبر (فليكوفسكي) وجلده على البحث بطول كتابه، لكنه كان كافياً لتقويض كل ما قدمه لتأسيس خرسانته المسلحة، بحيث إذا نجحنا في مهمتنا تلك فإن ذلك سيكون كفيلاً بسقوط كامل التنظيرة التاريخية للقومية الإسرائيلية، في كتابها (عصور في فوضى)، التى تم وضعها

أصلاً لشعب إسرائيل ودولته الحديثة، وللجميع لا شك. لكن في المقام الثاني بعد إسرائيل فهي موجهة بشكل خاص للمصريين، الذين يجب عليهم أن يلحظوا في ضوء ما قدمه، أن انهيارهم، وتحولهم من دولة عظمى وحضارة كبرى قديمة، إلى دولة من دول العالم الثالث الآن، يجب أن يقارن فيه الحالي بالماضي، وإن صورة اليوم طبق أصل ماض، وأن ذلك السقوط لم يكن إلا ناتج سيطرة بدوية عربية متخلفة، تلقى بمرآتها في مرآة القرون الخوالي، أيام احتلال أسلافهم الهكسوس لمصر. وأنه كما تحالف (شاول) أو ملوك إسرائيل مع الفرعون (أحمس) للقضاء عليهم، فلا خلاص إلا بتحالف مماثل للقضاء على هكسوس العصر، بما يعيد للمملكتين : الإسرائيلية والمصرية ماضيهما التليد، وكان هذا قمة أهداف العمل غير المعلنة. لكنا قبل البدء في التعامل مع (فليكوفسكي)، نؤكد مرة أخرى أنه عقل من نوع نادر، **ولا يصح بحال مقارنته بالمضحكات المبكيات فيما قدمه باحثونا بذات السبيل عن تاريخ بني إسرائيل وعقائدهم، وهي أعمال تنضح بالعنصرية وتدعي العلمية، لكنها بجوار عمل كهذا تصبح لوناً من خطب أيام الجمعة، وصفحات الإنشاء القلقشندي،** الذي لا يؤثر إلا منفراً، ناهيك عن سطحيته وسذاجته، وما يتركه من انطباعات أن تلك الأعمال كانت لديهم اهتماماً جانبياً، لأنه لا يصح ــ إيمانياً ــ إلا الصحيح، وأن عقائد بني إسرائيل وتاريخهم لا يحتاج

لأكثر من جرة قلم وينتهي الأمر[1]، هذا بينما كرس (فليكوفسكي) عمره كله من أجل عمله هذا، فأين نحن من ذاك؟ استفسار - لا شك - أشد سذاجة من أعمال باحثينا.

لقد بدأ (فليكوفسكي) من حدث الخروج، والأحداث التي صاحبت ذلك الحدث، وبنى كل عمله على التاريخ لزمن الخروج، الذي استدعى بدوره إعادة النظر في تاريخ المنطقة برمتها، بعد كشفه لخطأ هائل، سببه ذهاب التاريخ التقليدي إلى كون ذلك الخروج قد حدث في عصر الدولة الحديثة (الإمبراطورية) بينما هو حسب إعادة الصياغة والتزمين، ينبغي الرجوع به إلى العصر المتوسط الثاني، مع نهاية الاسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى، مما يشير إلى أن دخول بني إسرائيل إلى مصر يجب أن يكون قد سبق ذلك الزمن بفترة مناسبة، معتمداً خلال ذلك كله على قياس تلك الفترة الزمنية مقارنة بالكتاب المقدس، الذي أثبت صدقاً مذهلاً، وتطابقاً يفوق الوصف مع الوثائق التي أكتشف (فليكوفسكي) أنها تشهد بأحداث الخروج.

---

(١) انظر مثلاً : د. صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام (في مجلدين فاخرين ومُذهبين)، دار الجيل ، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

لكن ماذا عن الدخول ؟

إن (فليكوفسكى) لا يتعرض لهذا الأمر بالمرة ولا مرة؟! وهو الأمر الذى يضع عدداً من علامات الاستفهام، ودونه لا يمكن البدء فى التعامل مع حدث الخروج وباقى عمل (فليكوفسكى) المثير. وحدث الدخول يبدأ من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وأبيهم (يعقوب) الملقب بإسرائيل، ومع بداية الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين، حيث يلقى الأسباط المكرمين بأخيهم المميز (يوسف) فى بئر، حيث تلتقطه قافلة تجار (إسماعيليين) أو (مديانيين) ـ يتضارب الكتاب المقدس هنا ـ يبيعونه لفوطيفار رئيس شرطة مصر إلى أن يعلم الفرعون بقدرات يوسف على التبصير وقراءة الطالع فى الأحلام فيقربه منه. وبمهارة يوسفية يتمكن ابن إسرائيل ذو الجمال الأخاذ من الوصول إلى كرسى وزارة خزانة مصر، ويرسل فى طلب أبيه وأخوته ليقيموا معه فى بلاد النيل، ويستقر الرعاة فى مصر، وكانت «جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون ٤٦ ـــ ٣٧» و «سكن إسرائيل فى مصر فى أرض جاسان ٤٧ : ٢٧» «ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشرة سنين فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر ٥٠ : ٢٦».

ثم يستكمل سفر الخروج قصة الدخول، فيقول « وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً، وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هل نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس ١ : ٧ ــ ١١ »، ثم يلي ذلك سرد الاحداث المعروفة مع ظهور (موسى) من نسل يعقوب (اسرائيل) حتى الخروج الإعجازى، وحسب النص التوراتى اليونانى المعروف بالسبتواجت (السبعينى)، فإن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر كانت ٢١٥ سنة، أما النص العبرانيالمازوروى وهو الأصل الذى ترجمت عنه النسخة العربيةالمتداولة الآن، فيذهب إلى أن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر استغرقت ٤٣٠ سنة وتشهد على ذلك عدة نصوص توراتية، منها بالنص العبرانى : « ودور ربيعى يشبوا هنا » وتعنى « فى الجيل الرابع يرجعون إلى هنا »، وقد احتسبت كلمة (دور) بمعنى مئة سنة كاملة، بدليل نص آخر يقول فيه الرب لإبراهيم، « إعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة ــ

تكوين ١٥ ـ ١٣»، وبالاستناد إلى نص آخر واضح تماماً يقول: «وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر، فكانت أربع مئة سنة وثلاثين ـ خروج ١٢ ـ ٤٠ »، هذا بينما يحدد لنا الإصحاح السادس من سفر الخروج أسماء لأربعة أجيال فقط من نسل يعقوب عاشت فى مصر إلى زمن الخروج، فقد أنجب (لاوى) أخو يوسف وابن يعقوب (كوجات)، وأنجب كوجات (عمران) وانجب عمران (موسى) الذى قاد رحلة الخروج، ولو افترضنا أن كلاً منهم قد انجب ابنه وله من العمر خمس وعشرون عاماً، فإنهم يكونون قد لبثوا فى مصر حوالى مئة سنة ربما تزيد قليلاً، وليس اربعمائة سنة، ذلك الزمن المعمول به لدى الباحثين التوراتيين لمدة بقاء الاسرائيليين بمصر، وهو رقم (أى الاربعمائة سنة) بجمعه لستمائة ساقطة من تاريخ (فليكوفسكى) ، يذهب بنا إلى عصر بناة الأهرام، **ويكون بنو إسرائيل اليوم، هم فعلاً أحفاد بناة الأهرام، الذين استعبدوا فى مصر.**

هذا بينما على الجانب الآخر، يعطى لنا سفر الخروج عدد الخارجين من بنى إسرائيل في قوله: «فارتحل بنو إسرائيل .. نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد ١٢ : ٣٧ »، وبإضافة الأولاد والنساء ربما ارتفع الرقم إلى أكثر من مليون، وربما ارتفع إلى مليونين إذا أخذنا بالاعتبار بقية النص «وصعد معهم لفيف كثير

جداً أيضاً ـ ١٢ : ٣٨ »، وإن كان لا يحدد جنس هؤلاء اللفيف الذين لن يكونوا بالطبع جنساً آخر غير المصريين، بما يشير إلى خروج أعداد من المصريين مع الخارجين.

وهكذا فإن (فليكوفسكى) لا يتعرض بالمرة لهذه الإشكالية، التى دفعت المؤرخين إلى قرن بنى إسرائيل بالهكسوس بالنظر إلى عدد الخارجين الهائل، وهو ما كان مناط احتجاجه ورفضه، وقد أسس هؤلاء المؤرخون رأيهم بالإضافة إلى عدد الخارجين، على الزمن الذى استغرقوه بمصر وهو أربعة قرون، مع الأخذ بالحسبان أن رقم الخارجين لا يتناسب بحال مع سبعين فرداً دخلوا مصر وعاشوا فيها لأربعة أجيال فقط. هذا بينما أهمل (فليكوفسكى) مسألة الدخول بالمرة، حتى لا يتعرض لإشكالية : كيف ينجب سبعون شخصاً ما يزيد عن مليون شخص خلال أربعة أجيال فقط، وهو ماكان ممكناً أن يضطره إلى الأخذ بأحد احتمالين، لا بد أن يكون الكتاب المقدس بموجبه كاذباً فى الاحتمال الآخر.

ـ فإما أن يأخذ بكون الخارجين نسلاً لأربعة أجيال فقط، وفى هذه الحال لن يزيدوا بحال عن **خمسمائة شخص**، مع افتراض فحولة لا تبارى فى الرجال، وخصوبة عظيمة فى النساء، وهو ـ أساساً ـ ما لن يلتقى مع فروضه ونتائجه، حيث أنتهى إلى أن

(شاول) ملك اليهود، مع **مئات الألوف** من جنوده، وهم من دمروا عاصمة الهكسوس (حواريس) وحرروا مصر.

ـ وإما أن يأخذ بالاحتمال الثاني الذى يؤيد فروضه، وهو أنهم عاشوا فى مصر أربعمائة سنة ليتيسر لهم إنجاب هذا العدد الهائل، **لكنه فى هذا الحال كان لابد أن يقر بنظرية أنهم كانوا هم ذات عين الهكسوس.**

وحتى لايقع بين شقى الرحا، فقد أهمل تماماً الإشارة إلى حدث الدخول، وهو الأمر الذى ربما غرب على بال القارئ، وسط زحمة الإثارة وكم الإدهاش، لكنه بتعمده هذا أثبت غرضية واضحة بعيدة عن روح العلم، وأول شروط العلم هو الأمانة فيما نعلم، وهذا أول الغيث الفليكوفسكي، كان لا بد من الإشارة إليه، قبل البدء فى مناقشة فروضه وطروحاته ووثائقه وبراهينه واحداً واحداً.

ونعود الآن لكلامه « إننا سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار وباعتراف صريح مباشر، أن الكلمات ـ فى الكتاب المقدس ـ تعنى ما تقوله تماماً »لنجدها حسب ما أوردنا الآن لا تعنى ما تقول، ولا تلتقى مع أى فروض، وكان كلامه تمهيداً للاستشهاد بالنص الذى أورده هكذا « إرتجت الأرض.. وارتعشت أسس الجبال.. تحركت

واهتزت.. دخان ونار.. فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة » (أسقط هنا الإشارة إلى موضع النص بالكتاب المقدس؟!).

هنا عمد (فليكوفسكى) مباشرة إلى النص التوراتى الذى رآه أهلاً لتصوير الكارثة التى صاحبت الخروج، وربما مر القارئ على النقاط الأفقية بين العبارات مرور الكرام، وهى فى عرف الباحثين مواضع لجمل أو فقرات تم الاستغناء عنها لعدم صلتها بالموضوع، وحتى لا تصرف ذهن القارئ عن جوهر الموضوع، وهى إحدى ادوات البحث العلمى ولا أعتراض، لكن كل الاعتراض يكون عندما نعلم أن للكاتب مقاصد غير أمينة، وأنه قد عمد إلى الإسقاط والحذف لأن المحذوف كان ممكناً أن يتعارض مع فروض الكاتب وما يريد الوصول إليه، باختصار هى انتقائية وعدم أمانة واضحة، وللتأكد إليك النص الأصلى من الكتاب المقدس :

« وفى ضيقى دعوت ربى، وإلى إلهى صرخت، فسمع من هيكله صوتى، وصراخى قدامه دخل أذنيه، **فارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال**، ارتعدت وارتجفت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمراً، اشتعلت فيه، طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروب

وطار، وهف على أجنحة الرياح، جعل الظلمة ستره،
حول مظلته ضباب المياه وظلال الغمام، من الشعاع
قدامه عبرت سحبه، برد وجمر ونار، أرعد الرب
من السماوات والعلي، أعطى صوته برداً وجمراً
وناراً، أرسل سهامه فشتتهم، وبرقاً كثيرة فأزعجهم،
فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من
زجرك يارب، من نسمة ريح أنفك، أرسل من العلى
فأخذني .. المزامير ١٨ : ٦ ــ ١٦».

هذا هو النص، وقد عمدنا إلى إبراز ما انتقاه (فليكوفسكى) ببنط مميز، انظر مثلاً «صعد دخان من أنفه ونار من فمه»، أصبحت في النص الذي استشهد به «دخان ونار» حتى تشير إلى صورة الكارثة التي صاحبت الخروج كما صورها، ولا بأس علينا إن لفق الرجل في نصوص الكتاب المقدس، لأن بني ملته أدرى بالنصوص الأصلية، لكن البأس أن زور علينا وعلى العالمين!!

واضح أن الرب (يهوه) هنا استجاب لدعوة الداعي بغضب، ولغضبه اهتزت الأرض والجبال، وفي حنقه ترك عرشه السماوي وركب كروباً (الكروب نوع من الثيران المجنحة، وهي بالقلب اللساني - الميتاتيز- تصبح بروكاً أو براقاً)، وهبط ينفث غيظه دخاناً

من أنفه وناراً من فمه. وهـي صفـات اعتياديـة لـرب التـوراة يعرفهـا جيداً المعتاد على التعامل مع المقدس الإسرائيلي، فعادة ما يظهر الإله فـي صـورة التنـانين، وهـي الصـورة التـي دفعـت البـاحثين، ودفعتنـا (في كتاب : منابع سفر التكوين) إلى جمع الأدلة لتأكيد أنه ليس أكثر من رمز لقوى بركانية، لكن فليكوفسكي الذى انتوى **أن يجد لكل كلمة بالتوراة نظيرها في الواقع وفي التاريخ** وما يتبع ذلك بالضرورة مـن موضعة النص التوراتي وعقلنته، فقد قام من البداية **باستبعاد كل مـا يمكن أن يعطي دلالات أسطورية**، هذا نـاهيك عـن كـون هـذا النـص تحديداً من النصوص التي كتبت متأخرة عـن كتابـات أخرى بالكتـاب المقدس، ويذهب الباحثون إلى احتمـال كتابتهـا إبـان أسـر اليهـود فـي بابل أو ربما قبله بقليل، أى أنها لا ترقـى أصـلاً لعصـر قائلهـا النبـي (داود) في الألف الأولى قبل الميلاد. وحتى (لو) كـانت نسبتها لـداود صحيحة، وحتى (لو) كانت نسبتها للألـف الأولـى قبـل الميـلاد، ومـا قبلها بقليل صحيحة، وحتى (لو) دونت وقتها فوراً (بـالفرض)، وفـي كل (لو) كسـر لحقيقـة علميـة، فـإن النص يبعـد عـن زمـن الخـروج، وحسب تزمينه هو للعصـور حوالـي ستة قرون كاملـة، فهـل يصلـح للشهادة على واقعة مضى عليها ستمائة سنة؟ مع ملاحظة إن كاتبنا لم يشر بالمرة إلى كل تلك الملابسات المحيطة بالنص، وإنما أورده كمـا لو كان شهادة شاهد عيـان علـى الكارثـة، أمـا الأجـدر مـن كـل هـذا،

ويدفعنا لنصح القارئ بإلقاء تلك الشهادة في أول صندوق قمامة يقابله، فهو ماجاء في مقدمة ذلك النص ويشرح الظروف التى قيل فيها، حيث يقول : « المزمور الثامن عشر لإمام المغنين، لعبد الرب داود، الذى كلم الرب بكلام هذا النشيد، في اليوم الذى أنقذه فيه الرب من أيدى كل أعدائه، ومن يد شاول » .

ولإيضاح المقصود فى تلك المقدمة التى سبقت النص، نورد قصة من أطرف القصص التوراتية المقدسة، بإيجاز: بعد أن هزم الفلسطينيون بنى إسرائيل ايام القضاة، اجتمعت قبائل إسرائيل وطلبت من القاضى الكاهن (صموئيل) أن يختار لهم ملكاً كبقية الشعوب، يجمع صفوفهم وينظمهم ويقودهم باسلوب الجيوش النظامية لحرب الفلسطينيين، «فالآن أجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب ـ صموئيل أول ٨ : ٥ »، فاختار لهم (شاول) كأول ملك لإسرائيل، وكان أهم صفاته التى أهلته للملك، أنه كان «شاب، وحسن الصورة، ولم يكن رجل فى بنى إسرائيل احسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من جميع الشعب ـ ٩ : ٢ »، ودخل (شاول) عدة حروب منها حربه مع العمالقة التى أهتم بها (فليكوفسكى)، لكن شاول أبقى على الغنائم من الأطفال والبهائم، وأطلق سراح زعيمهم (أجاج) بعد إذلاله وكسر شوكته، فغضب يهوه على (شاول)، لأن أوامر الرب كانت:

« أذهب واضرب عماليق، وحرموا (أى أبيدوا، وهو اصطلاح توراتى معروف ومتواتر) كل ماله، ولا تعف عنهم، **بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً**، بقراً وغنماً، جملا وحماراً -صموئيل أول ١٥ : ٢، ٣ » (لاحظ أن فليكوفسكي **لا يأتى أبداً على ذكر بربرية بنى إسرائيل الوحشية تلك بالمرة بطول كتابه، ولا يذكر شيئاً عن إبداتهم للرجال والنساء والاطفال حتى البهائم**، لأى شعب يوقعه سوء الحظ في أيديهم، لكنه ينعي وينعب طوال كتابه على العرب الهكسوس، دونما دليل واضح على وحشية مشابهة اتسم بها الهكسوس تشابه وحشية وقسوة بنى إسرائيل وربهم يهوه).

المهم أن الرب يغضب على (شاول) لرحمته بملك العماليق (أجاج)، ويسلط عليه عفريتاً يلبسه، لذلك احتاج شاول إلى إقامة حفلات الزار بالطبول والزمور لتصرف عنه العفاريت، وكان رجل الزار هو (داود بن يسي إمام المغنين والزمارين)، الذى دخل البلاط ولمس حلاوته فطمح إلى الاستيلاء على العرش، بالتعاون مع الكاهن (صموئيل)، وبدأ الصراع الذى انتهى بمقتل (شاول) وتسلق (داود) سدة الحكم، ومن هنا قام (داود) يغنى على مزماره تلك الأنشودة، التى يقدم فيها الشكر للرب عرفاناً، ولا علاقة لهذه التزميرة البتة بحدث الخروج، وقد أرفق (فليكوفسكى) معها شهادات أخرى،

كالاستشهاد بمقاطع من سفر (أيوب) المتأخر بدوره عن الأحداث بما لا يقل عن ألف عام، من قبيل «وهو المزحزح الجبال .. إلخ»، وهي عبارات تجدها في التوراة بطوله، أو في أي نص ديني في أي دين آخر لتمجيد عظمة الإله، أي إله، وتصوير قدراته على اللعب بأركان الطبيعة الثابتة.

وهكذا يعزف (فليكوفسكي) مع داود على مزماره مرة، وينوح مع بكائيات (أيوب) على حاله المتدهور وتوقعه تدخل الغضب الإلهي مرة أخرى، بنزوع غير خاف لنزع النصوص من سياقها، وتفريغها من دلالاتها الأصلية، لتشهد معه على حدث الخروج الأسطوري.

مناقشة الوثائق

١ ـ تزييف دلالات بردية ليدن :

من المعروف أن بردية ليدن (إيبور) قد نسخت من قبل شخص عاش فى الأسرة الثامنة عشرة أو بعدها، عن أصل يعود إلى بداية العصر المتوسط الأول بعد الدولة القديمة، وقد انتهى إلى هذا الرأى ـ بقرائن لاتتهم تفاصيلها إلا المصرولوجيين ـ السير آلن هنرى جاردنر)، ووافقة عليها بعد نشرة الترجمة كاملة جمهرة العلماء. والبردية على حالها الراهن تتكون من أربع عشرة صفحة، تشمل فقرات نثرية، وست قصائد شعرية طويلة، وربما كان من الأفضل هنا استحضار كلام (جاردنر) نفسه حول تلك البردية حيث يقول « أن الفوضى التى ظلت قائمة بصفة مستمرة أو متقطعة حتى الأسرة الحادية عشرة، إنما هى صورة لثورة حقيقية انطبعت فى أعجب واهم بردية من الأدب المصرى، الذى استطاع أن يبقى رغم مخاطر الأيام، **ولا ترجع هذه البردية المحفوظة فى مجموعة ليدن إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة**، ولكن حالة البلاد التى تناولتها بالوصف، لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية، ولاهى تصلح لأن توضع فى أى مكان من التاريخ المصرى، سوى **الفترة اللاحقة**

لنهاية الدولة القديمة، أما المقدمة فضائعة لسوء الحظ، وقد فقد معها كذلك تسجيل الظروف التي دفعت المتحدث لإلقاء موعظته، وهناك أول الأمر مجموعة كبيرة من الفقرات المختصرة تصور حالة الدمار والغزو، التي سقطت البلاد فريسة لها نتيجة عدوان مغامرين منحطي الأصول، وآسيويين يشقون طريقهم إلى الدلتا.. إنها تعكس صورة لما آلت إليه الارستقراطية المنهارة.. أما الملك الذي يهيل إيبور اللوم على رأسه من جراء ضعفه وتراخيه، فربما كان من آخر فرع بين الملوك المنفيين (آخرهم هو آخر ملوك الأسرة السادسة بيومي الثاني، والإضافة من عندنا) ومهما كان من أمر، فإنه لا نزاع في أصالة بردية ليدن وصدقها، من حيث هي وصف لمصر في العهد الوسيط الأول »[1].

وكان حرياً بأي باحث غير مختصص في المصريات وأركيولوجيتها، أن يترك الأمر لأهل مكة فهم أدرى بشعابها، وربما جاز له أن يأخذ بأرجح الشهادات، ليبني بعد ذلك عمله أو كشوفه، لكن (فليكوفسكي) ليس باحثاً عادياً، لذلك رفض كل ما قيل بشأن تلك البردية وركن إلى احتمال ضعيف قدمه (زيته)، ومن ثم رفض نسبتها

---

(١) جاردنر (آلن هنري) : مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص١٣٠،١٣١.

للعصر المتوسط الأول، وألحقها بالعصر المتوسط الثاني، لأنها في هذه الحال ستوافق ما ذهب إليه، بينما نحن سبق أن أقمنا عملاً كاملاً تأسس على إشارات لجاردنر وبيت وبرستد وإرمان وسليم حسن ونجيب ميخائيل وعبد العزيز صالح.. إلخ)، وهي شذرات تشير إلى تصوير البردية لحال يبدو **كلون من ألوان الثورة، ثم أقمنا** عمد العمل وجمعنا له الدلائل والشواهد مع مالحقها من استنتاجات، بحيث أثبتنا في كتابنا (أوزيريس عقيدة الخلود في مصر القديمة)[1]، أن الظلم الذي حاق بالجماهير في عصر بناة الأهرام، والفوارق الطبقية الهائلة التي اكتمل نضجها في ذلك العصر، أدت إلى ثورة شعبية عارمة، كانت هي السبب في سقوط الأسرة السادسة والدولة القديمة، وأن بردية (إيبور) ليست سوى واحدة من رجع الصدى الأدبي لتلك الأحداث الجسام.

وهنا أجدني مضطراً لتقديم اعتراف متواضع، مضمونه أني ما كدت أنتهي في قراءتي الثالثة لكتاب عصور في فوضى حتى كان (فليكوفسكي) قد أنشب كل إمكاناته وبراعته في دماغي، حتى وصلت إلى لحظة كادت تكون هي التسليم له بكل ما ذهب إليه، ومن ثم كان لابد أن أعيد النظر فيما سبق أن وصلت إليه في أعمالي المنشورة

---

(١) د. سيد محمود القمني: دار الفكر، القاهرة ط١، ١٩٨٨.

لى على الأقل، وأن أعلن فى أقرب مناسبة تراجعى الكامل عن كل ما وصلت إليه فى أبحاثى من باب أمانة واجبة علمياً، كما كان ينبغى إذا أردت الاستمرار أن أبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى، واعيد النظر فى كل ما وصلت إليه حتى الآن فى قراءتى للتراث، وهذا طبعاً عدا كم المعاناة التى عشتها ما بين انتماءاتى الوطنية والقومية، وبين إصرارى على التزام نتائج العلم الصادق ـ وهى ما تصورت (فليكوفسكى) قد انتهى إليها - حتى لو خالفت أشد الأمور حميمية، وكان الحل هو العزوف الكامل عن البحث والدرس بشكل نهائى.

ولولا محاولة أخيرة فى قراءة رابعة لعصور فى فوضى، تسعى للاطمئنان اليائس قبل أن أنفض يدى من شؤون البحث، قصدت منها مراجعة أخيرة لمكمن سقطاتى البحثية قياساً على نتائج (فليكوفسكى)، لأضعها بين يدى باحث صديق أطمئن لإخلاصه ليأخذ الخطوة المناسبة أقول: لولا تلك القراءة ما كان ممكناً أن أكتب هذه الصفحات، فسرعان ما بدأت تتالى اكتشافاتى لمكامن الشراك والفخاخ، وبدأ التلفيق يظهر ثم تزييف الدلالات آخذاً بعضه برقاب بعض، تلك الشراك التى تمت صياغتها وتربيتها بحرفية عالية الجودة، وبإتقان غاية فى الكفاءة.

وهنا لا أجد مندوحة من إطلاع قارئى على فكرة أساسية تتعلق بذات الوثائق التى استشهد بها (فليكوفسكى) من نصوص مصر القديمة، وأدت فيها تلك الوثائق - عندنا - دوراً يختلف تماماً، وسنكتفى بتلك الفكرة الأس فى عملنا (أوزيريس..) والتى استغرقتها ثلاث أسر فى الدولة المصرية القديمة (الرابعة والخامسة والسادسة)، وما أفرزته تلك الأحداث من بنى فكرية، مع عدد من القرائن والبراهين التى تشير إلى ثورة جماهيرية شعبية حقيقة، صاحبتها حركة فكرية نشطة أفرزت للثورة تنظيرها ووضعت لها أيديولوجيتها، تلك الأيديولوجيا التى تمثلت فى ديانة جديدة، ورب جديد، يهتم بشؤون المستضعفين، ويضع أسس النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى طمح إليه الثوار، وقد تمثلت الأدلوجة فى ديانة الإله (أوزيريس)، وهو ما دفعنا لجمع عدد آخر من البراهين لدعم فكرة محورية، هى حداثة ذلك الإله بالنسبة للآلهة الرسمية وشبه الرسمية، وأن ظهوره وافق مقدمات تلك الثورة، مما استدعانا للرجوع إلى ما تركه العصر من تراث أدبى ينطق بما حدث، وكان على راس تلك الأدبيات (بردية ليدن).

ولا يبقى الان سوى موقفين يجب أن يثبت أحدهما صدقه الموضوعى: الأول: أن تكون الأحداث التى سجلتها البردية تصويراً حقيقياً لكارثة الخروج كما رواها الكتاب المقدس، والثانى : أن تكون تلك الاحداث تصويراً لثورة شعبية، واعية لأهدافها الطبقية، دلت

عليها ــ في رأينا ــ روح ثورية في أشعارها، متضمنة مطالب بالعدل الاجتماعي، والتقريب بين الطبقات، مع بعض المحافظة التقليدية الطبيعية تماماً، من شاعر حكيم، أتاحت له ظروفه الاجتماعية ذلك القدر من التعليم.

وحتى لا نفعل فعل (فليكوفسكى)، فسنقدم الوثيقة كما ترجمها المتخصصون من علماء المصريات عن الهيروغليفية، ولن نتدخل في النص إطلاقاً ، فقط سنسقط الأبيات التي يعاد تكرارها نصياً، مع الاستعانة الأساسية بـ (سليم حسن)، مع التدخل بالاستعانة بترجمة (جاردنر) في بعض المواضع لم نجده غير واضح أو مفهوم لتيسيره على القارئ، كذلك سنستعين بترجمة (هنرى برستد) لذات الغرض في أحيان أخرى، وللمدقق أن يراجع وراءنا.

ويقول الحكيم (إيبور):

حقاً فإن (.. تالف)، وملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه،.. وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون في كل مكان.

حقاً إن النيل في وقت الفيضان، ولكن لا أحد يحرث من أجله ..

حقاً لقد أصبح المعوزون يمتلكون ـ الآن ـ أشياء جميلة، ومن كان يرقّع نعليه أصبح صاحب ثروة.

حقاً إن القلب لثائر، والوباء قد أنبث فى كل الأراضى، والدم صار فى كل مكان، ولفائف المومياوات تتكلم.

حقاً لقد أصبح الحزن يملأ أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً، وأضحت كل قرية تقول : دعونا نقصى العتاه من بيننا.

حقاً لقد أصبحت **الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، وصار اللص صاحب ثروة ..**

حقاً لقد تحول النهر دماً فهل يشرب الإنسان منه؟

حقاً إن (... تالف) والعمد والجدران قد التهمتها النيران... حقاً **إن حجرة الملك لا تزال باقية وتقف ثابتة..**

حقاً لقد **أصبحت التماسيح متخمة بما تقتصه بعد** أن ذهب إليها الناس عن طيب خاطر..

حقاً لقد أصبح ابن الاصل التليد مجهولاً، وأصبح ابن زوجته ابن خادمته...

ونزل اقوام من الخارج إلى أرض مصر..

حقـاً إن الذهـب والفضـة واليـاقوت والكرنيليـان والـبرونز و المرمر (..تـالف). **تحلى جيد الجوارى، والنبيلات مشردات فى** الشوارع، **وربات الخدور. يقلن : ليت عندنا شيئاً نأكله.**

حقاً فإن (..تـالف) أعضـاء النبيلات فى حالـة يرثـى لهـا إذ **يرتدين الخرق الممزقة ..**

حقاً إن صناديق الأبانوس تتكسـر وخشـب سسنم الثمين يقطـع لصنع الأسرة..

حقاً إن (ألفنتن) و (طينة) لا تؤديان الضرائب بسـبب الحـروب الداخلية.. فما فائدة وجود خزانة للدولة بدون دخل؟.. هذا مأوانا وهـذه سعادتنا ولكن ما العمل؟ وكل شئ ينحدر إلى دماء .. حقاً إن الأموات أصبحوا كالاحياء .. **وأصبح لا يميز بين ابن رفيع الأصل وبين من لا أب له**، والجلبة لـم تكن بهذه الشدة فى سنى الجلبـة، ولا نهايـة للضوضاء..

حقـاً لقد أصبـح أولاد الأمـراء يضـرب بهـم عـرض الحـائط، وأطفـال الشـهوة يلقون علـى قارعـة الطريـق، وأصبـح الإلـه خنـوم يئن تعباً..

حقاً هؤلاء الذين يرتـدون الكتـان الراقـى أصبحـوا يضـربـون، واللاتى لم يسبق أن شاهدهن نور النهار قد خرجن، واللاتى كن علـى

أسرة أزواجهن بتن ينمن على مضاجع مقضة، وأصبحت السيدات يتألمن كالإماء...

حقاً لقد أصبحت الخادمات يوجهن ألسنتهن حيث شئن، وعندما تتكلم السيدات فإنهن يبدين الملل..

حقاً لقد أصبح الولاة بائسين جياعاً.

حقاً لقد أصبح الأحمق يقول : « لو عرفت أين الإله؟ قدمت له القرابين!. حقاً إن قلوب الماشية تبكي والقطعان تندب حال البلاد...

حقاً لقد عمت الوقاحة كل الناس.

حقاً لقد دمر ماكان بالأمس مرئياً..

حقاً لقد أصبح القوم يأكلون الحشائش ويشربون الماء.. وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير... وجرد الملأ من الملابس والعطر والزيت.

حقاً لقد ذبح الموظفون الرسميون وسلبت منهم سجلاتهم، ودمرت دفاتر كاتب الضرائب، وأصبحت غلال مصر مشاعاً.

حقاً لقد وضعت قوانين الحكم في الساحات، وأخذ العوام يدوسونها بالأقدام في الطرقات والفقراء يمزقونها في الأزقة.

حقاً لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسع.. وازدحمت قاعات المحاكم العليا بالغوغاء، وأخذ الفقراء يروحون ويجيئون في البيوت العظيمة.

حقاً لقد أصبح أولاد ولاة الأقاليم يلقون في الشوارع...

انظر إن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد.

انظر لقد حدثت أمور لم تحدث من عهد بعيد فقد **اختطف الفقراء الملك.**

انظر إن الذى دفن كصقر يرقد الآن على نعش وما أخفاه الهرم بات خاوياً..

انظر إن الناس يظهرون العداء لليورايس (ثعبان التاج الملكي، التوضيح من عندنا) حامي الدرع، الذى جعل الأرضين في سلام..

أنظر إن الأرض ملأى بالعصابات.. والثاوين في المقابر ألقوا على قارعة الطريق، ومن لم يكن بمقدوره الحصول على كفن أصبح يملك ثروة.. ومن لم يملك حجرة صار يمتلك فناء مسوراً.

انظر إن كبار القدماء قد طردوا ليهيموا في الأرض...

أنظر إن النبيلات يرقدن على الفراش الخشن.. ومن لم يكن ينام على مصطبة حجرية بات يمتلك سريراً..

انظر إن الرجل الغنى يمضى ليلة عطشان، ومن كان يتلقى فضلاته أصبح يمتلك الجعة الفاخرة..

انظر إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس الكتانية أصبحوا فى خرق بالية، ومن كان لا ينسج لنفسه يلبس الكتان الراقى..

انظر إن الذى ما كان يستطيع صنع قارب لنفسه أصبح يمتلك سفينة بينما صاحبها ينظر إليها بعد أن سلبت منه...

انظر إن من كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك الهارب البديع، ومن كان لا يغنى له أحد بات تغنيه آلهة الطرب..

انظر إن من كان ينام بلا امرأة لفقره أصبح يجد الأميرات

أنظر إن الفقير أصبح يمتلك ثروة تجلب له مديح العظماء.

أنظر إن من كانوا يملكون خوى وفاضهم..

أنظر إن الأصلع الذى لا يعرف الزيت أصبح يمتلك أوانى العطور الزكية

أنظر إن التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة

أنظر إن أبناء البلاط فى ملابس ممزقة وماشيتهم منهوبة.

انظر إلى القصابين يذبحون الماشية للفقراء.

أنظر أن **القصابين يذبحون الأوز ويقدمونه للآلهة على أنه ثيران(؟!)**

أنظر أن من كانوا ينامون على أسرة ينامون اليوم على الأرض، وذاك الذى كان ينام فى الأوساخ يتدثر فى سرير.

أنظر أن من كان لا يمتلك أتباعاً أصبح صاحب عبيد، ومن كان من السادة أصبح ينفذ الأوامر. إن الفقراء يستيقظون وهم لا يخشون نور النهار، وأنها لخيام صنعوها مثل المتوحشين.

أنظر أين هو ليحاسب الناس؟.. إنه يطفئ اللهيب، يقال عنه راعى كل الناس، ولا يحمل فى قلبه شراً، وحينما تكن قليلة العدد، فإنه يصرف يومه فى جمعها إلى بعضها وقلوبها محمومة.. فأين هو اليوم؟ هل هو بالمصادفة نائم؟ إن بأسه لا يرى (تلفيات شديدة).

إن القيادة معك والفطنة وأسباب العدالة، لكنك نشرت الفوضى فى البلاد مع الفتن، الغوغاء يحدثون الضوضاء. بينما تتلى عليك الأكاذيب والبلاد كالقش الملتهب.. ليتك تذوقت بعض هذه المصائب بنفسك.. (بعد ذلك تلفيات لا تسمح بتكوين فكرة صحيحة أو جملة مفيدة)[1]...

---

(١) أدرجت تلك البردية فى متحف ليدن تحت إسم ورقم Leyden Papyrus, No. 344 وقد اعتمدنا هنا ترجمة د. سليم حسن : الأدب المصرى القديم، كتاب اليوم، ١٩٩٠، ج١،ص٣١٠، ٣٣٢ .

وتأسيساً على تلك المعاني، اعتمدنا بردية ليدن كوثيقة دالة على الثورة، التي بدات عملياً وفعلياً بانتشار الكفر بالآلهة الرسمية للدولة، حتى صار الرجل الاحمق يقول: إذا عرفت أين الألة قدمت له القرابين، و(الأحمق) هنا تترجم أيضاً (المنفعل، ما هو ضد الرزانة والتصرف الكيس عموماً). وبينما كان القصابون مشغولين بذبح الثيران للجوعى، كانوا يقدمون للآلهة الأوز على أنه ثيران، إشارة وسخرية من آلهة لا تميز في توزيع الأرزاق، ثم الأحداث التي تلت ذلك لإقصاء العتاة وتدمير مباني القضاء الظالم وسجلاتها، ونهب ثروات مقابر الأغنياء والملوك، ويبدا أن كل شئ ينقلب رأساً على عقب، فالأرض «تدور حول نفسها كعجلة صانع الفخار »، والشطر الثاني من البيت يشرح مباشرة «وصار اللص صاحب ثروة »، وتمكن الثوار من القبض على الملك الذى لم توضح البردية مصيره، وهو معلوم على أية حال، وانفلتت الجماهير من عقالها لتدمر بدون تمييز حتى صار نهر النيل بلون الدم لكثرة القتلى وما كانت تلتهمه التماسيح، مع إشارات نادرة ويتيمة لتسلل أغراب للدلتا، بحيث بدا الحدث هامشياً بجور الأحداث الأخرى الجسام، وهو التسلل الذى تم القضاء عليه مع استقرار ملك أسرة أهناسيا الإقليمية إبان العصر المتوسط الأول، حتى يقول أحد ملوكها (خيتى) لولده (مرى كارع) :

« لا تزعج نفسك بالآسيوى التعس، إن هو إلا آسيوى »، ثم تابع حكام الأسرة الحادية عشرة تطهير البلاد منهم، ولم يأت زمن الاسرة الثامنة عشر ونجد أى ذكر لوجود آسيوى على أرض مصر، وإن كان المعلوم أن ذلك التسلل قد تكرر لكن فى شكل غزو كبير للهكسوس جاء بعد سقوط الدولة الوسطى، ولعل إشارة (إبيور) إلى أن الفقراء إبان الثورة ، قد أقاموا لأنفسهم خياماً فى الشوارع مثل المتوحشين، إشارة ساطعة تقطع بأن هؤلاء كانوا ثواراً مصريين يأتون تصرفات تشبه المتوحشين، وهى الوصف المصرى للبدو، أما أن تذكر البردية الإله رع والإله خنوم، ولا ذكر إطلاقاً للإله آمون، فذلك فى رأينا يشير إلى وجوب نسبة البردية للعصر المتوسط الأول وليس إلى العصر المتوسط الثانى كما يريد فليكوفسكى، حيث لم يكن آمون قد ظهر بعد، لأنه ظهر مع الملك امنمحات الأول فى الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى.

هذا ما كان عن بردية ليدن ودلالاتها، فماذا عن تلك الدلالات عند (فليكوفسكى)؟ مع الانتقاء، وملء الثغرات من عنده، لا يجد المرء نفسه إلا أمام حدث كونى عظيم « الأرض تدور حول نفسها، المدن دمرت، الكل خراب، سنوات من الضجيج »، هذا مع المقاطع التوراتية مع كل مقطع مقتطع من البردية، مع كلام من لون « إن تلك

الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى أنقاض، وانهار نظام الدولة فجأة واصبحت الحياة لا تطاق، فيقول إيبور : آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج، إن بردية إيبور تحتوى على دلالة على حدوث كارثة أرضية مصحوبة بزلزال » .

ولا يفوت المدقق هنا أن تصدير هذه الفصول بعنوان (أرض مصر في جيشان) أو (في ضجيج)، عمد واضح لتزييف الدلالات في البردية، حيث عمد إلى الكلمة المصرية (هرو) التي تعني عدداً من المعاني مثل (الركض، الثورة، أصوات الشغب والجدل والصراخ، الزمجرة، نفثات الغضب، الصراع)، ليأخذ منها فقط بمعنى زمجرة الأرض القاصرة على جيشان الزلازل، وغني عن البيان هنا، أن أسلوب المصري القديم في التدوين، له سمات خاصة، وتعبيرات خاصة، ويقصد إلى دلالات يجب الاعتياد عليها مرتبطة ببلاغيات العبارة وتراكيبها، وهو اعتياد من لزوم ما يلزم للفهم السليم لتلك الدلالات، فمثلاً عندما كان المصري القديم يقول (الأرض) نفهم فوراً أنه يقصد مصر تحديداً دون العالم أجمع، وعندما يقول (الناس) يقصد الشعب المصري وحده دون الناس، حتى أنه في البرديات المتأخرة وفي عصور الانحطاط كان المصري يبدى أسفه لأن الأجانب قد

مرت عليها أجيال. أما انتحاب الماشية على أحوال البلاد، وهو تعبير شائع في الكتابات المصرية، فيتحول بقدرة قادر ليلتقي مع قول التوراة : «يد الله تكون على مواشيهم التي في الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها طاعون»، والمثير أن مصر لم تعرف في تاريخها القديم ولا نقوشه ولا ألفاظه ما يشير إلى معرفتها بالجمل، أما الأكثر إثارة فهو أن فليكوفسكي قد فاته أ المصريين لم يعرفوا الحصان والعجلة التي تجرها الخيل إطلاقا والقطع، قبل قدومهما مع الهكسوس الغزاة. وحسب نظريته هو، فإن بني إسرائيل خرجوا من مصر قبل دخول الهكسوس إليها؟!.

ولأن التوراة تتحدث عن ضربة البرد، ولا يرد في البردية، فإن (فليكوفسكي) يتقصى حتى يجد معلومة يتيمة من كتاب وضعه (أرتبانوس) عن أحداث غير معلومة المصدر، نقلها عن (إيسابيوس) يحكي فيها عن صقيع وزلازل أثناء ليلة البلاء الأخير «حتى أن أولئك الذين فروا من بيوتهم خوفاً من الزلزال قتلهم البرد»، والمعلوم أن (إيسابيوس) راوية مرتبط بروايات التوراة في كثير من تخريجاته، أما الكتاب الأصلي الذي وضعه (ارتبانوس) ونقل عنه (إيسابيوس) فهو كتاب مجهول، ولم تُكتشف منه نسخة واحدة إلى اليوم !.

وكان معنى أن يسقط (فليكوفسكي) من اعتباراته الإشارات الكثيفة والواضحة والمتكررة إلى الثورة الطاحنة، أن يلحق الشك عمله بكامله، ولأنه أذكى من ذلك، فقد خصص فصلاً بعنوان (البكر أو المختار) ليفرغ فيه المحتوى الثوري ودلالته، ليصب في دلالات أخرى توافق التوراة، ولأنه من جانب آخر لم يجد في التوراة ذاتها ما يشير إلى تلك الثورة الشعبية الطبقية، فقد جعل من فصله متاهة للقارئ بعبقرية يحسد عليها، مهد له بفصل (الليلة الأخيرة)، وألحقه بملاط لاصق جيد التماسك في فصل (تمرد وفرار). بحيث أصبحت كل نصوص البردية التي تتحدث عما لحق الأغنياء والفقراء من تحولات، وماآل إليه أبناء النبلاء من مصير بالقتل أو التشرد، إنما حديث واضح عن الضربة الأخيرة في الليلة الأخيرة، حيث سفك الرب دم المصريين في تلك الليلة، ولم يعد قانعاً بقمله وذبابه وبعوضه وجراده وضفادعه، فنزل تقتيلاً لكل بكر في كل بيت، إنسان أو بهيمة، مع الأخذ بالحسبان أن تلك الضربة لم تلحق أياً من بني إسرائيل او مواشيهم، بعد أن ميزوا بيوتهم للرب الذي هبط يتخبط كرهاً وفظاظة، والتائث روحه برائحة الدماء، وذلك بأن قام بنو إسرائيل يرشون دماء الحيوانات على أبواب بيوتهم كعلامات للرب الهائج، كي يظن أنه قد سفك دم أهلها فيعبر عنها[1].

---

(١) انظر : سفر الخروج، الإصحاح الثاني عشر

ويؤكد الرجل وجهة نظره فى مقتل المختارين من مصر بنص البردية « إنهيار المسكن فى لحظة »، بحيث إن الزلزال قتل سكان المنازل الفخمة، والبيت الملكى تحديداً (رغم نص البردية على سلامته)، لكن السؤال المشروع هنا هو : كيف أمكن لزلزال بهذه الشدة أن ينتقى إنتقاءين متميزين: الأول: أن يصيب المصريين ولا يصيب الإسرائيليين (ولا يمكن فى هذه الحال قبول حجة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون بعيداً عن المصريين فى مصر، وإلا ما ميزوا بيوتهم بالدم، وما تيسر لنسائهم استعارة ذهب المصريات الساكنات معن ونزيلات بيوتهن لسلبه ليلة الخروج حسب نصيحة موسى لهن وحسب نص التوراة)[1]، أما الانتقاء الثانى غير المفهوم، فهو **كيف أمكن زلزال أن ينتقى أغنياء مصر ويميز أمراءها ويصيبهم دون الفقراء**؟ إن الكارثة الوحيدة والوباء الوحيد الذى يمكن أن يفرز هذا الفرز هو ثورة طبقية واعية، وهو ما يفسر لنا بقاء المعابد الضخمة والأهرام وغيرها من آثار سبق بناؤها العصر الذى نحن بصدده، ولم يشر إليه (فليكوفسكى) إزاء زلزاله العظيم.

ويلاحظ القارئ هنا أن كاتبنا ــ وهو بسبيل التغلب على العقبة الكأداء بالبردية، وما تحمله من أحداث تشير إلى ثورة الجماهير

---

(١) انظر : سفر الخروج : الإصحاح ٣ : ١٨-٢٢.

المصرية ضد طغيان النبلاء والملك – يروح ويجئ قبل إلقاء ما فى جعبته فيقلب أكثر من حقيقة رأساً على عقب. فهو يحول الحديث عن السجن الذى حطمه الثوار لإطلاق المعتقلين، إلى حديث آخر يقول: «لقد حرك مشهد أبناء الأمراء المسحوقين على أرض الشوارع الصخرية المظلمة (لا توجد فى مصر شوارع صخرية بالمناسبة)، والجرحى والموتى بين الأنقاض، حرك لوعة وأسى الشاهد المصرى، ولم ير أحد ما حدث فى أقبية السجن، تلك الأقبية التى حفرت تحت الأرض وأغلقت أبوابها على السجناء (الرجل هنا يصور لنا مصر كما لو كانت أوروبا العصور الوسطى)، ولم ير أحد العذاب الذى تعرضوا لـه حين انهارت تلك الأقبية فوق رؤوسهم ودفنتهم أحياء تحت الارض »، وكل ذلك جاء فيما يرى فى العبارة اليتيمة، التى بحثنا عنها عبثاً، وتقول « السجن حطام »، وأبداً لم نجدها .

أما كفر الناس بالآلهة الرسمية وتطاولهم عليها، فهو ما يشير إلى قول التوراة « وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين »، ونبش قبول الموتى الأثرياء أصبح عنده « ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم، فالمقابر لفظت موتاها وتمزقت الاكفان » أم الدليل فمن الهجادا التى كتبت بعد ذلك بما يصل إلى ألفى عام.

كل هذا وورطة الأحداث الثورية قائمة، لكن الآن قد خفت حدتها في ذهن القارئ، ويسهل عندئذ أن يسوق تخريجه الضعيف المتكلف والمبتسر، في كون إصرار البردية على تعرض أبناء الأمراء والحكام فقط للقتل والتشريد، هو موافقة تامة للتوراة، التي قررت قتل الرب لأبكار المصريين. والأبكار في تفسيره ليست سوى أبناء النخبة والطبقة البكر المصطفاة، ولأنه لا يمكن - عقلاً - قبول أن يكون يهوه قد أمضى ليلته يمارس نزوته الشاذة في قتل أطفال الأغنياء، فلم يبق أمام (فليكوفسكي) سوى مزج فكرة الثورة ـ التي يعترف بها بسرعة وبألفاظ غير حاسمة ـ بإرادة الرب (يهوه) ـ وينتهي إلى أن ربه انتقم من المصريين بقتل المختارين المميزين من النبلاء والمترفين. ثم يردف فوراً بما يشعر القارئ بمدى موضوعيته ونزاهته فيقول: «**وبرغم أن البردية المهترئة لم تحتو على أي ذكر للإسرائيليين صراحة أو تلميحاً، ولم تشر إلى أي من قادتهم (؟!)،** فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح تام كنتيجة للكارثة، أو مجموعة الكوارث المتتالية، وهي : تمرد السكان، فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك في ظروف غامضة، وبالرغم من التطابق الوصفي للكوارث بين ما ذكرته البردية، وما سردته أحداث الكتاب المقدس، فإنني ان حاولت أن أستخرج من البردية أكثر من الحقائق، فقد أعرض نفسي للريب والظنون، بمحاولة

استغلال الحالة السيئة التى وجدت عليها البردية، لإثبات نتائج مسبقة بتضمينها مالم تتضمنه، لكن الإشارة للكارثة، والجماهير التى تمردت وفرت ليست غامضة، ومعناها واضح وليس فيها أى مجال للبس أو غموض.. وهى زلازل متتابعة صاحبت ظواهر طبيعية أخرى اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، واتلاف كل مصادر المياة » .

والرجل هنا، وهو يلبس ثوب العالم النزيه والأمين، يقوم بأكثر من تلفيق، وأكثر من تزوير لدلالات الوثيقة، فإذا كان السكان قد تمردوا فهذه حقيقة، وأن يكون المعتلقون قد فروا من الحبس فهى حقيقة أخرى، لكنها لا تشير بالمرة إلى فرار بنى إسرائيل من عبودية مصر إلى فلسطين، أما ما يسميه اختفاء الملك فى ظروف غامضة، فهو إشارة ذات تخابث واضح على عقل القارئ، وتذهب به فوراً إلى فكرة الغرق فى البحر.

أما أن يطابق بين النص البردى « انظروا أن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد » وترجمها هو « أمام أعداء البلاد »، وبين نص التوراة « وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضئ لهم » فهو افتئات

واضح على اللفظة المصرية التي تفيد معنى (مقابل) والتي ترجمها (سليم حسن) بمعنى (ضد)، والتي تحمل ضمنياً معنى أن لهيب الثورة كان إشارة للبدو بتجاوز حدود مصر وهى فى حالتها المتردية، وهو ما توضحه البردية دون لبس فى قولها ــ حسب ترجمته هو ــ « ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد » .

وعن قول (إيبور) فى النص الفليكوفسكى « إن ذلك لم يحدث لأى فرعون آخر قط » فهو ليس إشارة لغرق جلالته إنما لخطف الفقراء لجلالته، وربما محاكمة جلالته، وربما إعدام جلالته.

إننا نقرر مع التاريخ التقليدى، الذى لم يعجب (فليكوفسكى)، والذى لم يذكر بنى إسرائيل بالمرة إلا فى نص مرنبتاح المعروف، **أن البدو الذين تسللوا إلى البلاد إثر الثورة، فى العصر المتوسط كانوا شيئاً يختلف تماماً عن غزو الهكسوس الذى دخل بجحافله فى العصر المتوسط الثانى**، وأن الغزو الأول كان تسللاً غير ذى بال و« لا تزعج به نفسك، إن هو إلا آسيوى » وإن أصحاب الغزو الاول أطلق عليهم اللسان المصرى « العاموحريشع » أى البدو فوق الرمال، أما الغزو الثانى فكان باللسان المصرى « حقاو ـ خاسوت » التى

نطقت عند (مانيتون) « هكسوس »، ولم يخلط التاريخ فى وثائقه بينهما ولا مرة واحدة.

٢ ـ تزييف دلالات حجر العريش :

من سيهتم ـ حقاً ـ بالبحث وراء رجل بهذا القدر من الأجتراء؟ أو من سيشك أصلاً فى قرائن تركب بعضها فوق ذهن قارئ أسلم قياده لمفكر يبدو بهذا القدر من النزاهة؟ وعليه من سيهتم مع الصدمة النفسية والوجدانية بالبحث والاهتمام؟ أو من سيجد نفعاً يرجى بمراجعة نصوص قديمة بعد الصدمة العقلية لكل ما تعارف عليه التاريخ والمؤرخون؟ أو من سيجد فى ذاته بواعث تدفعه للسعى وراء نص لا تجد له ذكراً فى أغلب المصنفات التى تناولت مصر القديمة؟ وربما كان على الباحث المصرى على التأكد أن يذهب بنفسه إلى متحف الإسماعيلية ليستفسر عن (حجر العريش) ومصيره، وعن ترجمته الصادقة، وربما عاد بعد ذلك يائساً من كل شئ، بعد كم اللامبالاة والاستهانة والاستخفاف التى سيلقاها من موسقد جاء مدونا على حجر العريش سائتنا العتيدة.

فما هو حجر العريش؟

لقد حكى لنا (فليكوفسكى) قصة العثور عليه بكثير من الصدق، ثم حكى لنا القصة المدونة عليه بما هو أكثر من الإفك، فحمّل النص

فوق ما يحتمل، وأنطقه بدلالات لم يقصد إليها ولا خطرت ببال الرجل الذي قضى ينقره بالإزميل زمناً. فالنص عند (فليكوفسكى) يحكي بلسان مبين عن بلوى عظيمة تعرضت لها مصر القديمة، من عواصف، وجيشان للأرض، ودمار، مما حدا بالفرعون المدعو (توم) ـ والذى أكد كونه كان ملكاً أن اسمه قد جاء مدونا على حجر العريش فى خرطوش ملكي ـ إلى جمع جيوشه، ووعد جنوده فى ظل الظلام الذى حل بالبلاد، أنهم سيرون النور من جديد بقول «سنرى أبانا رع حر أختى فى منطقة باخيت المضيئة»، و(رع) هو إله الشمس المصرى كما هو معلوم، هذا بينما الملك قد أضمر غرضاً آخر، فقد «ذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته»، لكن النتيجة كانت وخيمة على الفرغون وجنده، لأنه «حين قاتل جلالة الملك رع حرمساكيس (نظراً للتضارب بين حر أختى، وبين حرماكيس، يضع فليكوفسكى هنا علامة استفهام وعلامة تعجب)، حيث قاتل إله الشر بالقرب من البحر مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، **ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر**».

وإذا كانت المنطقة المضيئة اسمها (باخيت) فإن (فليكوفسكى) بعد صفحتين، وبعد مرور كثير من الأسماء الغريبة الكفيلة بنسيان

الاسم الأصلي، يعود لذات النص ولكن الكلمة تصبح هذه المرة (بي خاروتي)، وذلك كي تلتقي مع كلمة (بي هحيروث) العبرية، التي تشير للموقع الذي توقف فيه الإسرائيليون قبل عبور البحر مباشرة والمترجمة في التوراة العربية إلى (فم الحيروث)، ولأن (باخيت) بعيدة فيلولوجيا عن (بي هحيروث) فإنه يضع بينهما متوسطاً مزوراً لم يرد بحجر العريش هو (بي ـ خاروتي).

ونستمر مع (فليكوفسكي) : «خرج ابن الفرعون صاحب السمو جب ليبحث عن أبيه، وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع في بات نيبيس .. والصراع الذي خاضه الملك توم »، ولا شك ان المدقق سيتوه هنا وهو يحاول معرفة اسم ذلك الذي خاض الصراع وغرق في دومات البحر، هل هو ملك باسم (رع) أم باسم (توم)، لكنه يعلمنا بعد ذلك أن أبناء (أبوبي) قد غزوا البلاد ليحطموها، وسلبوا الإبن (جب) عرشه، بينما اعتزل هو في مسكن ناء، ربما كان منفي اختيارياً أو إجبارياً.

وبينما يهمل (فليكوفسكي) الاسم (رع) تماماً كما لو كان غير موجود، وركز على (توم)، لأنه الاسم الذي سيلتقي مع الاسم الوارد في التوراة، للمدينة التي استعبد الإسرائيليون في بنائها لفرعون الخروج، واسمها (فيثوم)، ويمكن نطقها (فيتوم) و (بي توم)، وفي

هذه الحالة يصبح معناها (منزل توم). ولا ينسى أن يربط ببراعة، بين إشارة (مانيتون) ـــ الذى سبق أن هاجمه وسفه آراءه وتاريخه لكنه احتاجه الآن ـ إلى فرعون الخروج باسم (توتيماوس)، ويرى أن الاسم يحوى فى تركيبه شقاً هو (توم).

لكن أى مهتم بالتاريخ الدينى لمصر القديمة، سيعرف كم كان (فليكوفسكى) ملفقاً؟ وكم كان بارعاً؟ لأن القصة المنقوشة على حجر العريش ليست سوى ترديد لأسطورة دينية قديمة، اعتقد فيها المصرى منذ فجر التاريخ، وأن الأسطورة قد صيغت فى أسلوب التعاويذ السحرية، التى يتم ترديدها فى زمن محدد، لدرء خطر عظيم سيلحق بإله الشمس المصرى، وبالتالى بمصر جميعاً. وكان إله الشمس ذاك يحمل الاسم المركب (رع أتوم) او (أتُوم رع). ومنذ استقرار الإنسان فى الوادى، أدرك أهمية الشمس فى تجفيف التربة والمستنقعات، وفى نضوج النباتات، لذلك حظيت بأهمية بلغت بالشمس سمت السيادة بين الآلهة، وبحيث أصبحت الرب الرسمى للدولة، وقد ارتبطت الشمس بعناصر أخرى لازمة لحياة الإنسان و النبات، هى حسب أهميتها : الهواء، والرطوبة أو الندى، والتربة أو الأرض، والسماء التى هى مقر (رع آتوم). وفى واحدة من الصياغات الدينية لمدينة (أون) المقدسة، نجد إله الشمس يخلق من ذاته بالاستمناء ـ إيغالا فى توحيده وحتى لا تكون له شريكة ـ إلهاً ذكراً هو (شو) إله الهواء، وإلهة أنثى هى (تفنوت) إلهة الندى أو الرطوبة. ويتزوج (شو) و (تفنوت) لينجبا

إله الارض (جب) الذى يحتسب وفق تلك الصياغة حفيداً لـرع آتـوم، وابناً لـ (شو) و (تفنوت)، بينما فى صياغة أخـرى يـأتى (جـب) كـأب لإلـه الشمس (رع).

ولأن أهم وسيلة نقل للمصريين هـى الإبحـار فـى النيـل، فقـد تصوروا أن هناك نيلاً آخر فـى السماء، هـو الـذى يـؤدى إلـى سقوط الأمطار أحياناً [1]، وأن دورة الشمس اليومية تتـم بإبحـار (رع) فـى النيل السماوى، في مركب اسموه (مركب الشمس)، تجوب به السماء من الشرق إلى الغرب نهاراً، لتنتقل إلـى زورق آخـر مـع الغـروب لتعبر بـه سماء سفلى أثنـاء الليل من الغـرب إلـى الشـرق، وهكـذا دواليك. أما تلك اللحظة التى يتم فيها الانتقال فكانت أخطـر اللحظـات إطلاقاً، حيث كانت غالباً ما تدور حرب هائلـة ودموية يظهـر أثرهـا فى لون الغسق النارى وفى لون الشفق، فالرحلة الإلهيـة لـم تكـن تتـم دومـاً فـى بهـاء وسـلام، لأن هنـاك إلهـاً للشر هـو الأفعـى الضخمـة الإفعوانية (أبو فيس) وجنوده، يكمن فى لحظـة الظـلام ليداهـم زورق الشمس ويبتلع إله النور، لذلـك كـان يحرس الإلـه فـى مركبـه بحـارة وجنود وحاشية عظيمة، تخوض معارك شرسة ضد إله الظلام والشر (أبو فيس)[2]، حتى لا تسمح لـه بـابتلاع الشمس الـذى يعنـى خـراب

---

(١) جون ولسن : ما قبل الفلسفة .. سبق ذكره، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٦٣.

الزرع والضرع، وتحول البلاد إلى بادية جرداء، لذلك الحق المصريون باسم (أبو فيس) العلامة الهيروغليفية الدالة على الصحراء والجدب، وهي ذات العلامة المستخدمة لكل ما يمت للصحراء والشر والجفاف بصلة.

ومن هنا لا بد من وجود جيوش الخير بصحبة (آتوم رع) لقهر التنين (أبو فيس) وجنوده، وهو اعتقاد مرده إلى اعتقاد آخر شاع في أقطار الشرق القديم ـ ولم يزل ـ وهو أن كسوف الشمس أو خسوف القمر، ناجم عن ابتلاع ثعبان ضخم أو شيطان أو مجموعة من الجن للجرم السماوى. وما زال الأهلون في قرانا يخرجون بالطبول والعصي والسيوف في جماعات منظمة تمثل جنود الخير تهلل وتكبر لمساعدة الجرم عند ظهور حالة الخسوف، لتخويف الثعبان ليطلق الجرم السماوى. ومن هذا اعتقد المصرى القديم في تعرض (آتوم رع) أحياناً، بل وفي أى وقت، للالتهام أثناء إبحارة في دوامات النيل السماوى، لذلك وضعوا تلك الترتيلة السحرية المعوذة لمساعدة إله الشمس على الهروب من (أبو فيس) والإبحار السريع في مياه السماوات العظيمة، حيث لا يتمكن (أبو فيس) من اللحاق به أمام جحافل جيش الخير التي تعطله دوماً عن غايته الشريرة. وقد صيغت ترتيلة (فشل التنين) عدة صياغات متواترة في نقوش متعددة في مواضع مختلفة بالوادى، وليس على حجر العريش وحده، وتستخدم

التعويذة خاصة عند الغروب حيث تختفي الشمس في الظلام وتكون أكثر تعرضاً للابتلاع، وربما لا تعود للظهور في اليوم التالي، وإن الشمس ما كانت تتأخر في الظهور شتاء (هو فصل الجدب) إلا لأنها كانت تخوض حرباً مريرة مع جيشها كل ليلة ضد الشيطان (أبو فيس)، الذى لا يستقوى إلا في فصول الجدب الباردة.

ومطلع النص معنون بـ «فاتحة قهر أبو فيس عدو رع وعدو الملك أون نفر (اصطلاح ملكي يشير لأى فرعون بمعنى له الحياة)، له الحياة والفلاح والصحة .. كتاب معرفة الخلق لرع وقهر (أبو فيس)، الكلام الذى يتلى» ، ثم يبدأ المقطع الأول بترديد عظمة آتوم رع باعتبار الخالق «قال إله الجميع بعد أن جاء إلى الوجود .. (هنا حديث طويل عن خلقه للآلهة من أبنائه وأحفاده ومنهم (جب رب الأرض).. **أمرتهم بإبادة أعدائي بواسطة السحر الفعال** لحديثهم، وأخرجت هؤلاء الذين جاؤوا إلى الوجود من جسمي أن تصب عليه لعنة.. **ينتصر رع عليك.. هكذا تكون في مركبك**، ستعبر السماءين في سلام ...الخ» [1].

---

(١) بريتشارد (جيمس): نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم، ترجمة وتعليق: د. عبد الحميد زايد، نشر هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص٤١، ٤٣.

وهكذا يهمل (فليكوفسكي) اسم (رع) تماماً من النص، ويفصل عنه (آتوم)، ويحذف الهمزة ليصبح (توم) حتى يلتقي باسم الموضع التوراتي للخروج (بي توم). ثم تصبح المعركة ضد ظلام الكسوف، معركة الفرعون (توم) الملك الهكسوسي (أبوب) عند موضع عبور بني إسرائيل المياميين (بي حيروث)، ويتحول إسراع (آتوم رع) بالهرب من أبو فيس (حيث كانت مهمته الهرب دوماً والحفاظ على ذاته بينما يحارب جنوده عنه ليهرب) إلى خضم الماء السماوي، يتحول إلى فرعون يندفع من جيشه إلى دوامات البحر (وعليه نفهم أنه غرق رغم أن القصة ليس فيها أي غرق)، وبكل براعة يطابق بين اسم التنين (أبو فيس) اسم الملك الهكسوسي (أبوب) مع استثمار عدم معرفة القارئ غير المتخصص لمعنى (خرطوش)، فيشير إلى أن وجود اسم (توم) محفوراً على خرطوش يشير إلى كونه كان ملكاً لأنها الصيغة المصرية المتبعة لكتابة أسماء الملوك. بينما المعلوم لدى أي مهتم بالمصريات أن الخرطوش كان لتدوين اسماء الآلهة، في المقام الأول، ثم لتدوين أسماء الملوك المؤلهين، أو الحاكمين بحق النسل الإلهي في المقام الثاني. لذلك كان طبيعياً أن ينقش أسم (رع آتوم) داخل خرطوش، أما اسم حالة ما بين النور والظلام المضيئة بين ذهاب النهار الذي أظلم، وبين قدوم ظلمة الليل، فيتحول من التسمية (باخيت) التي تدل على الخوف من الظلام وماقد يحيق برب الشمس، ولم يزل يقولها المصري اليوم تخويفا (بخ)، تتحول إلى (بي حيروث).

ثم إن (فليكوفسكى) يضع علامة استفهام وعلامة تعجب من تلقيب (رع) مرة بلقب (حر أختى) ومرة بلقب (حرماكيس)، وهو ما يشير إلى أنه يوحي لقارئه، أنه قد لمس خطأ في النص ربما يرجع لجهل من كاتبه. لكن معنا ربما انصرف الذهن الأن إلى جهل في (فليكوفسكي) ذاته. لكن الرجل حتى الآن أثبت براعة تجعلنا ننأى به عن صفة الجهل، لكنها لا تنأى به عن العمد إلى التزوير، لأن (حر أختى) هو اسم الشمس أو لقبها في حالة الشروق، أما (حرماكيس) فهو عندما تكون في حالة الغروب ويمثلها أبو الهول، واللقب الحورى لإله الشمس (رع آتوم) يشبه الشمس بالحر أو (حور) الصقر، إنها تطير كالصقر، إضافة لما يحمله لفظ (حر) من معنى الحرارة.

و (فليكوفسكى) وهو يقوم بهذه التلفيقة الكبرى، يعمد إلى ترجمة (نتر) ومرادفاتها بالقصة إلى ملك، وهى إن صلحت للدلالتين إله وملك، فإنها تستعمل عادة للإشارة للآلهة، أما (جب) إله الأرض، وحفيد (رع آتوم) فيصبح عند (فليكوفسكى) الأمير الملكى الذى فقد عرشه بعد غرق أبيه بمعجزة البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأن حجر العريش فيما يبدو كان تسجيلاً لحالة هامة من حالات الكسوف، فقد قام جب بالدور المطلوب منه حسب نص التعويذة والذى من أجله وجد أصلاً هو وأشقاؤه من آلهة، فخلقهم كان بغرض حماية (رع آتوم) من (أبو فيس).

لكن من المهم هنا أن نسجل للعالم البارع (فليكوفسكى) سقطة لا تليق به، فالسرد هنا جميعه يتناول حرباً خاضها الفرعون - حسبما يقول - ضد الملك الهكسوسى (أبو فيس)، إذن لم تكن مطاردة ضد الإسرائيليين ــ حتى لو أخذنا بتزويره ــ، وحتى يلتقى النص مع الزمن الذى حدده لدخول الهكسوس، وهو ذات الوقت الذى خرج فيه بنو إسرائيل، فلا بد أن يكون الملك الهكسوسى ليس (أبو فيس)، إنما يجب أن يكون (سالاتيس) أول ملوك الهكسوس على مصر، لأن (أبو فيس) الأول وليس الثانى أو (أبوب الأول) هو الملك الرابع من ملوك الهكسوس الفعليين على مصر، وليس ملك الغزو، ولو ذهبنا إلى كونه ربما كان (أبو فيس) أو (أبوب الثانى)، فإن ذلك يعنى أن تلك الحرب قد حدثت فى آخر عصر الهكسوس، وهو ما يبعد أربعة قرون عن عصر خروج بنى إسرائيل حسب تاريخه هو وتزمينه للأحداث.

الحقيقة أن الرجل رغم براعته، ورغم أنه أمتعنا فعلاً بأكبر عملية تزوير وتلفيق، فإنه كبا حتى الآن أكثر من كبوة، أما هذه فكانت سقطة شديدة.

٣ ــ تزييف دلالات بردية الارميتاج :

إكتشف بردية الأرميتاج المصرولوجى (جولنشيف)، وقام بترجمتها ودرسها وتحقيقها وتحليلها كل من (بيت وبرستد وإرمان

وجن وجاردينر)، وهي محفوظة الآن بمتحف (ليننجراد)، وتحوى نبوءات الكاهن المرتل (نفررحو). وتدعى البردية أنها ألقيت في حضرة الفرعون (سنفرو) أحد أوائل ملوك الأسرة الرابعة من الدولة القديمة. وفى رأينا أنه قد دخلها على حالتها التى وصلتنا أكثر من خدعة: الأولى في كونها تحكي عن أحداث تخص عصراً، وكتبت في عصر آخر ونسبت إليه، وقد ذهبنا في كتاب (أوزيريس..) **إنها كتبت في عصر الثورة في العصر المتوسط الأول، وأعطيت قيمة تقليدية ـ حيث القديم يكتسي القداسة والتبجيل ـ بنسبتها إلى عصر موغل فى القدم، عصر (سنفرو) قبل عصر الثورة بقرون طوال.**

أما الخدعة الثانية فهي في نسبتها لعصر موغل فى القدم قبل الأحداث التى تروج لها بالفعل، مما يكسبها قدرة أعظم على التنبؤ.

والخدعة الثالثة التى ربما جازت على كثير من الباحثين، فهى أنها استُثمرت مرة ثالثة في عصر يخالف العصرين السابقين : عصر (سنفرو) وعصر الثورة، بأن أضيف إلى متنها الأصلى نصاً إضافياً ألحُق بآخرها، وهو النص الذى ـ بعد سرد أحداث الصراع الاجتماعى، وتسلل الآسيويين إلى البلاد ـ يضيف نبوءة بملك منقذ يأتى ويخلص البلاد من كبوتها، أشارت إليه باسمه المختصر (آمينى)، وذهب المؤرخون إلى أنه هو (أمنمحات الأول) مؤسس

الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى، مما حدا بهم إلى تزمينها **بإثبات تاريخها فى عصر ذلك الفرعون، وأنها كتبت فى عهده ثم نسبت إلى أيام (سنفرو)، كى تتحول إلى لون من ألوان الدعاية لأمنمحات كملك عادل منقذ**، وهو ما نوافق عليه تماماً، لكنا سقنا فى المقابل عدداً من القرائن التى تشير إلى **أن الجزء الأخير الذى يتنبأ بالملك المنقذ** (آمينى) **هو فقط الذى تصح نسبته لعصر** (أمنمحات)، وأنه أضيف بالفعل أيامه أو قبل صعوده سدة العرض بزمن يسير، وكان معلوماً باليقين للكاتب الذى اضاف تلك النبوءة أن (أمنمحات) لابد سيصبح ملكاً للبلاد، أما بقية متن الوثيقة فكان بالفعل يسبق عصر (أمنمحات) بزمان، **وأن ذلك الأصل قد تم تدوينه زمن الثورة، وبالتحديد أيام فوضى العصر المتوسط الأول**، وهكذا اصبحت الوثيقة تبدو بكاملها كرؤية تنبؤية بقدوم (أمنمحات).

أما السر فى عدم اليقين من التأريخ الصادق لزمن الأحداث الواردة بها، أنها لم تدون بالفعل على النسخة التى وصلتنا إلا فى عهد الدولة الحديثة، من قبل كاتب عاش فى القرن ١٥٠٠ق.م، حيث ظهرت له أهمية النص الأصلى الذى بدا موشكاً على التلف، فقرر نسخة والاحتفاظ به، ولما لم يجد بردية خالية عنده قام بنسخها على ظهر بردية كان يستخدمها لإجراء حساباته الخاصة، وبذلك وصلتنا نبوءة (نفررحو) بالصدفة البحتة، بما تحويه من غموض ومن أغلاط

كثيرة حدثت نتيجة النسخ عن نص قديم يختلف فى أسلوبه عن أسلوب عصر الناسخ.

وترجع أهمية الوثيقة لكونها ـ في رأينا ـ **دونت لأول مرة فى عصر الثورة بالعصر المتوسط الأول**، لكنها بعكس (إيبور) الذى ركز أهتمامه على أحداث الثورة، فإنها ركزت **أهتمامها على تسلل الآسيويين للبلاد**، فألقت الضوء على ما أهمله (إيبور) وساقه فى شذرات لا تعطى تفصيلاً عن ذلك التسلل بشكل واف، وهنا يجدر بنا أن نضيف أنه ليست فقط مؤخرة البردية هى التى أضيفت إليها فى عهد (أمنمحات)، بل إن بالمدخل شواهد واضحة على كونها بدورها تمت إضافتها في عهد (أمنمحات).

الوثيقة تبدأ بالملك (سنفرو) جالساً وسط حاشيته : «وقال لهم جلالته: يا إخوتي لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لى .. عن أى شخص يتحدث بكلام جميل وألفاظ منتقاة، عندما أسمعها أجد فيها تسلية، عندئذ سجدوا.. وقالوا .. يوجد مرتل عظيم للإلهة باستت يا أيها الملك، اسمه نفررحو، وهو **رجل شعبى قوى الساعد** وكاتب حاذق الأنامل... فقال جلالته : اذهبوا وأتتونى به.. فقال المرتل نفررحو: هل تريد كلماتي عما حدث أو ما سيحدث يا مولاى الملك؟ فقال جلالته: لا، مما سيحدث، لأن الحاضر قد أتى إلى الوجود يمر بنا، ثم

مد يده إلى صندوق مواد الكتابة، وأخذ قلماً وقرطاساً ومداداً وكتب: كتابة ما تحدث به الرائي نفررحو. ابـن مقاطعة عين شمس، حينما كان يفكر فيما سيحدث في الأرض، ويفكر في حالة الشرق حينما أتى الآسيويون بقوتهم »، (ولنلحظ أن نفررحو من عين شمس بالدلتا، مما يجعله أقرب إلى معايشة أحداث التسلل البـدوي بل وكان في مركز هذا التسلسل في بوبسطة معبد الربة القطة باستت)، ويقول نص كلام (نفررحو):

فؤادي، لطالما تألمت من أجل تلك الأرض التي نشأت فيها

وقد أصبح الصمت نقيصة

وثمة أمور يتحدث القوم عنها...

وقد ولى زمان الرجل الكفء..

فمن أين تبدأ؟..

لا تراع فؤادي

فالأمر واضح أمامك وعليك أن تقاومه

لقد أصبح حكام البلاد يأتون أموراً ما كان ينبغي حدوثها

وخربت الأرض وليس من يأسى عليها

..يتحدث الجميع عن الحب ... لكن الخير اختفى

تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا

جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت

قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع

واقتحم القبليون أرض مصر

وما من مدافع ليسمع أو يجيب تباعد (رع) عن الناس

وأصبح الكليل صاحب سلاح

وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم..

لكن سيأتى ملك من الجنوب اسمه آمينى

ابن سيدة من تاستى

طفل خن نخن

سوف يتسلم التاج الأبيض

ويلبس التاج الأحمر

والناس فى زمنه سيكونون سعداء

إن ابن أحدهم (أو ابن الإنسان) (*)

سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين [1]

أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة

فقد أخرسوا أفواههم خوفاً منه

والآسيويون سيقتلون بسيفه

واللوبيين سيحرقون بلهيبه

والثوار سيستسلمون لنصائحه

والعصاة لبطشه

سيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه

وسيقيم أسوار الحاكم

حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر

وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة

(*) هذا التعبير يعني ما يعنيه ذات التعبير في الدراجة المصرية الآن (ابن ناس)، وهو تعبير لا يشترط الأصل الثرى بقدر ما يقصد الأصل والمنبت الطيب.

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص ٣٦٥.

حتى ترده أنعامهم

وستعود العدالة إلى مكانها

وينفى الظلم من الأرض

فليبتهج من سيراها

ومن سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتى[1].

هذا، وكنا قد ذهبنا في كتابنا (أوزيريس..) إلى أن تولى (أمنمحات الأول) عرش مصر، يوحي أن تلك الولاية كانت قمة أغراض العمل الثورى، استنادا إلى شواهد أهمها:

ـ أن (أمنمحات) لم يكن من سلالة ملكية، ولا حتى من أبناء النبلاء، بل كان رجلاً من سواد الشعب، وإن كان طيب المنبت، أثبت صلاحيات عسكرية وحربية أوصلته إلى وزارة الحرب، ويعلمنا (سليم حسن) مستفيداً من (جاردنر) أن تعبير (ابن أحدهم)

---

(١) استندنا هنا إلى ترجمة د/ سليم حسن (سبق ذكره ج١، من ص ٣٣٣ : ٣٣٩) والتعديلات التي أدخلناها على الترجمة هنا مستندة إلى:

- Gardiner, the jomal of Ehgption Archaeology, voll, pp.100ff.
- Gunn, vol x ll, 1926, pp. 250ff.

أو (ابن الإنسان) تعبير متواتر يشير إلى شخص من نسل غير ملكي أو نبيل، وإن كان ابن أسرة طيبة[١].

ويقول (جيمس برستد) صراحة، « إن أمنمحات قد اغتصب الملك قهراً »[٢]، ويذهب معه آخرون إلى أنه كان وزيراً قوياً في عهد (منتوحتب الرابع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشر، واستطاع ـ أثناء وزارته ـ أن يركز بيديه سلطات كبيرة، وأن يشرف إشرافاً فعلياً على شؤون الدولة، وانتهز وفاة مليكه فوثب على العرش[٣]، هذا ناهيك عن الاتفاق شبه الكامل على أنه هو ذاته (آمنحتب سحتب أب رع) رئيس الجند في عهد (منتوحتب الرابع)، وأنه استغل رياسة الجند للإطاحة بمليكه والقضاء على شبأفة أسرته، وقد أكد (برستد) وهو مصر ولوجي ثقة أنه هو ذاته (آمنمحات سحتب أب رع) صاحب آخر حملة مشهورة تم تجريدها لتطهير البلاد تماماً من بقايا الآسيويين، وذلك قبل قيام الأسرة الثانية عشرة بزعامته بزمان يسير[٤].

---

(١) سليم حسن : سبق ذكره، ج١، ص٣٢٨.

(٢) جيمس هنري برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة د. حسن كمال. وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٧٩، ص٩.

(٣) محمد العزب موسى : أو ثورة على الإقطاع، دار الهلال، القاهرة ، ١٩٦٦، ص٩٩.

(٤) برستد كتاب تاريخ .. سبق ذكره ، ص٩.

ـ والشاهد الثاني هو أن قائد الجند (أمن محات) ينتمي باسمه الذي يعني (آمن في الطليعة) إلى إله كان مغموراً حتى ذلك الحين هو (آمن)، مما يشير إلى اتباعه عقيدة تخالف عقيدة سادته، المناتحة التابعين للإله (منتو) إله أرمنت، وهو أمر غريب مع وزير في حكومة فرعونية، ومنذ تولي (آمنمحات) الحكم يرتفع شأن (آمن) حتى يصبح أهم الآلهة على الإطلاق حتى نهاية العصور الفرعونية. والخطير في رأينا هو أن (آمون أو آمن) كان في العقيدة الشعبية هو « .. روح أوزيريس »[1] ذلك الإله الذي احتسبناه أدلوجة الثورة.

ـ والشاهد الثالث هو أن (أمنمحات) اعتبر في نظر رجال الفكر المصري القديم ـ كما عند (نفررحو) ـ المخلِّص المنتظر، إضافة إلى كونه الرجل الذي وجه همه إلى كسر شوكة النبلاء الذين بقوا من العصور القديمة[2].

وقد أسسنا على ذلك تكهناً مفاده أن أمنمحات كان رجل الشعب المنتظر، وربما كانت القيادات الشعبية وراء الترويج له كما في إضافة النبوءة به لاشعار (نفررحو)، مع تمهيد السبيل له بكل الوسائل

---

(١) أدولف إرمان ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، د.ت. ص١٠٩.

(٢) العزب: سبق ذكره، ص ٩٩.

للوصول إلى الحكم. ولعل في نص البردية ما يشير إلى حميمية العلاقة بين (أمنمحات) والثوار، فإن الآسيويين سيقتلون بسيفه «واللوبيون سيحرقون بلهيبه»، و«العصاة ببطشه»، لكن «الثوار سيستلمون لنصائحه». وقد استطاع أمنمحات بالفعل أن يجعل من عصره أزهى عصور الدولة الوسطى، ولكن (أندريه إيمار) و(جانين إيوايه) يذهبان إلى تأكيد أنه قد مال آخر أيامه إلى عقد لون من المصالحة مع النبلاء الأقوياء .. الذين بدءوا يستعيدون نفوذهم بعد سكون الأحوال، بحيث أرتضى السماح لهم باستعادة قسط من النفوذ القديم مقابل طاعته[1].

وهنا عثرنا على نصوص تشير إلى مؤامرة قد دبرت في الخفاء لاغتيال الملك، وبلغت حداً بعيداً حيث دخل عليه الجناة غرفة نومه، وهجموا على شخصه الملكي بالسيوف، مما أضطره للدفاع عن نفسه بنفسه حتى هرع الحراس لمساعدته، وقد احتسبنا تلك المحاولة قد جاءت من جانب القيادات الثورية إزاء سياسته الجديدة مع النبلاء، بحيث إعتبر خائناً لقضية الثورة، مما استدعى تصفيته جسدياً. ويدل حديث (أمنمحات) عقب محاولة اغتياله على ذلك المعنى، فهو يأسف لخيانة حلفائه الذين وثق بهم ، ويقول:

---

(١) إيمار وإيوايه الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، ١٩٦٤، مج ١، ص٦٣.

لقد أحسنت إلى اليتيم

وأطعمت المساكين

وتحدثت مع الوضيع كمحادثتى مع الأمير

لكن كل من أكل خيرى

قام ضدى[1]

والمعنى الواضح أنه كان حليفاً لطبقة محددة، يصفها باليتم والمسكنة والوضاعة، مؤكداً أن هؤلاء الحلفاء هم من حاولوا اغتياله، وإن كان (برستد) يؤكد أن المتآمرين كانوا من رجال حاشيته[2]، فإن ذلك يدعم مذهبنا، لأنه من الطبيعى أن تكون حاشيته متشكلة ممن مهدوا له السبيل إلى العرش، ومن هنا نفهم لماذا قام بتصفيتهم جميعاً بعد ذلك؟

كما أن فى بردية (نفررحو) معانى كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه، ونسوقها هنا كأدلة جديدة لم ندرجها بكتابنا المذكور، فالمعتاد أن يسبق اسم فرعون ويتبعه عدد غفير من ألقاب التشريف والسيادة والتفخيم إلى حد مبالغ فيه، ويثير عجباً شديداً بين الباحثين،، وهو الأمر الذى

---

(١) برستد كتاب تاريخ .. ص ١٦٦.

(٢) نفسه : ص ١١٥.

تخلو منه هذه البردية تماماً، وهو أمر خارج على المألوف بالمرة. ناهيك عن كون الملك يخاطب حاشيته بالنداء (إخوتي) ويتوجه بالحديث لأحد رعيته بالقول (يا صاحبي)، وبدلا من أن يأمر بإحضار الكاتب الملكي، يقوم هو بهذا الدور ليسجل ما يقول أصغر رعاياه. وهي مشاهد لا يمكنك أن تجدها قبل أو بعد تلك الوثيقة النادرة، في تراث مصر القديمة، أما أن يطلب صاحب الجلالة مرتلاً يؤنسه فيخبره رجاله لزيادة سعادته وإدخال السرور على قلبه إن مثل ذلك الرجل موجود، وأنه ليس رجلاً عادياً، ويبشرونه بوصف الرجل المطلوب بالوصف «رجل شعبي قوي الساعد»!! فهو أمر في غنى عن التعليق.

والآن ماذا قدم لنا (فليكوفسكي) بشأن بردية الأرميتاج !

بعكس الجميع فإن كلمة (آميني) تشير عنده إلى (آمنحتب الأول) ابن الملك (أحمس) ملك التحرير، ويعد (آمنحتب الأول) ثاني ملوك الأسرة الثامنة عشرة. والاسم هنا بدوره ملصق من مقطعين (آمن+حتب)، ولأنه يريد من كلمة (آميني) أن تشير إلى محرر مصر من الهكسوس، ولأنها لا تلتقي مع المحرر (أحمس)، فلتلتق مع ولده، ولأن (آميني) من (تاستي) بالنوبة، فلا بد أن يكون أسود اللون وهو لون (آمنحتب الأول)، لكنه أيضاً لون (أمنمحات) وأغلب حكام مصر

من ملوك طيبة. (أمينى) إذن يحتمل أن تشير (لأمنمحات) حتى يتزامن التاريخ مع زمن التوراة، ولأن الفاصل بين الرجلين (أمنمحات الأول) و (آمنحتب الأول) يصل إلى ستة قرون، إلا أن أخطر ما يدحض (فليكوفسكى) تماماً، هو نص البردية الذى يصف (آمينى) بأنه ابن أحدهم، اى ليس سليل بيت ملكى، بينما الملك (أمنحتب الأول) هو ابن الملك (أحمس) بن الملك (سقننرع).. الخ، أما (آمنمحات) فرجل من عامة الشعب، وهكذا لا ينطبق الوصف على الملك الذى اختاره (فليكوفسكى) ليتزامن مع تاريخه، وقصد به أن يطابق (آمينى) مع (آمنحتب الأول) ليستطيع أن يجعل من بردية الأرميتاج برمتها شهادة على أحداث الخروج ودخول الهكسوس.

أما الدحض الثانى لهذا السند لإعادة كتابة التاريخ حسب التزمين الفليكوفسكي، فهو ما جاء، فى نص البردية " .. الآسيويون سيقتلون بسيفه.. وسيقيم أسوار الحاكم حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر "، والمعلوم أن سور الحاكم الذى كان يشار إليه بالتعبير (حائط الحكم التى أقيمت لصد الآسيويين والقضاء على عابرى الرمال) قد بنيت فى عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة [1] أسرة (أمنمحات) وقبل زمن (آمنحتب الأول) بستة قرون كاملة.

---

(١) العزب : سبق ذكره ، ص ١٧، ١٨.

وبمزيد من البحث والتدقيق، نجد فى وثائق الأدب المصرى، وفى قصة (سنوحى) تحديداً، وهى قصة أدبية مشهورة، دليلاً قاطعاً على أن (حائط الحاكم) قد أقيم زمن (أمنمحات الأول)، أو أنه كان موجوداً فى آخر أيام هذا الملك، وبعد القضاء التام على آثر (للعامو حريشع) بمصر، فيحكى (سنوحى) بعد أن بلغه نبأ محاولة أغتيال الملك (آمنمحات الأول)، ودون أسباب واضحة لم تزل شاغلة للمهتمين من الباحثين، يشعر المحارب (سنوحى) بالذعر الشديد، ونظن السبب واضحاً مع رؤيتنا التى قدمناها، وموقف سنوحى يشير إلى كونه كان أحد القيادات الشعبية المتآمرة على الملك، بل وكان شريكاً مخططاً على الأقل، لذلك نجد سنوحى يهرب فوراً إلى آسيا بعد أن غافل حراس (حائط الحاكم) أو بالنص فى قوله : «وأعطيت الطريق لقدمى ـ وهو يشبه تعبيرنا: وأسلمت قدمى للريح ـ ولما اقتربت من حائط الحاكم المقامة لرد الآسيويين والقضاء على عابرى الرمال، قعدت القرفصاء تحت أجمة خشبية، خشية أن يرانى حراس الأسوار أثناء تأديتهم لخدمتهم اليومية » [1] .

فالحائط قد أقيم إذن فى عهد (آمنمحات)، وقبل (أمنحتب) بستة قرون، وبه تسقط حجة (فليكوفسكى) المؤسسة على بردية (نفررحو)

---

(١) بريتشارد : سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٦.

لإعادة صياغة تاريخ العالم، مع زيادة يقين القارئ الآن، أن غزو الهكسوس كان أمراً يختلف تماماً، ومتأخراً تماماً، بالنسبة للتسلل الآسيوى الأول فى العصر المتوسط الأول، وأن غزو الهكسوس كان حدثاً، وغزو أولئك الذين انتهزوا فرصة الثورة للتسلل كان حدثاً آخر، وهم من أطلق عليهم المصريون (العاموحريشع).

٤ ـ تزييف دلالات نبوءة الخزاف :

فى عملية التأريخ التى قام بها العلماء لتاريخ مصر القديمة، كان ثمة خطأ بالفعل، لكنه ليس من نوع الخطأ الذى يسقط بموجبه ستة قرون كاملة من التاريخ كما يريد (فليكوفسكى)، إنه خطأ لا يسقط شيئاً إنما يؤدى إلى التباس فى حسابات سنى الملوك والأسر، ومدى دقة ضبطها مع توقيت محدد فى عام بذاته. وللتوضيح نقول: إن الخطأ لم يكن ناتج نقص أو تشويه للمستند التاريخى، لكنه كان عيباً فى التقويم المصرى ذاته، إذ أنه فى زمن بالغ القدم، كان المصريون قد وضعوا حساباتهم الفلكية التى بموجبها تزيد ربع يوم، أو مع زيادة يوم كامل إذا قارناه بالنسبة الفلكية، وعندما نسقط تلك الزيادة ـ كما نفعل اليوم فيما نسميه بالسنة الكبيسة ـ فإننا سنجد فارقاً فى حسابات السنة المصرية القديمة، بشهر زائد كل ١٢٠ سنة عن السنة الفلكية. ومع تراكم هذا الشهر كل ١٢٠ سنة يبدأ التناقص

بالظهور، مع أناس يعملون في مواسم للزرع ومواسم للحصاد، وهو ما عبرت عنه بردية عصر الرعامسة التي تقول : « إن الشتاء يأتي في الصيف، والشهور تنعكس، والساعات تضطرب...». ويبدو أن المصريين لم يحاولوا تلافي الخطأ لما يحوطه من قدسية تحريمية تقليدية، حتى جاء (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ق.م ليصدر مرسوماً بإدخال يوم إضافي للسنة، حتى يمنع أعياد مصر الوطنية من المجئ في غير مناسباتها الزراعية، وحتى لا يأتي الشتاء في الصيف [1]، لكن (فليكوفسكي) لا يجد مانعاً من الإتيان بنص البردية «ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعي» ليوحي أن الشمس كانت قد خرجت عن مدارها نتيجة الخلل الكوني ألذى اصاب كوكب الأرض وسبب كوارث الخروج. ثم يستمر «وتهدأ الرياح بعد أن كانت الشمس محجرية بسبب العاصفة »، بعد أن يكون قد مزج بين نص البردية المنسوبة لعصر الرعامسة بالأسرة التاسعة عشرة، وبين مرسوم كانوب المكتوب بثلاث لغات منها اليونانية، والذي أمر به (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م.

---

(١) جاردنر (ىألن هنرى) مصر الفراعنة، سبق ذكره، ص ٨٢ : ٨٤.

وبعد ذلك يسرب فصلاً تحت عنوان (استفسارات) يقول فيه «**لا توجد معلومات قاطعة عن أى غزو آسيوى (عامو) أو (آمو) حدث** في العصر المتوسط الأول الذى يقع بين الدولة القديمة والدولة الوسطى »، حتى لا يكون ثمة إمكان لغزو سوى غزو الهكسوس الذى حدث بعد الأسرة الثانية عشرة وهى مخالفة صريحة لكل ما تعارف عليه علم المصريات بكشوف أركيولوجية واضحة غير ملتبسة. وهذا التغافل عن تلك الحقيقة كان عموده العظيم الذى أسس عليه بنيان إعادة صياغة التاريخ، وبحيث انتهى إلى عدم صحة أو جواز نسبة بردية ليدن وبردية الأرميتاج إلى ما قبل الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم تكون كل روايتهما والأحداث التى وردت بهما تتفق تماماً مع لحظة دخول الهكسوس ولحظة خروج الإسرائيليين، تلك اللحظة التى صاحبتها كوارث فلكية نادرة، أشرف على تنظيمها، ورتب الإخلال بنظام الكون خلالها، الرب (يهوه) بذاته، من أجل عيون شعبه الذى فضله على العالمين!!

لكن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تتعرض دوماً وبشكل شبه دورى للغزوات الرعوية، والتسلل إلى البلاد، وخاصة مع أى لحظة ضعف أو خلل فى المركزية، وهو ما تشهد به الوثائق التاريخية، نضرب منه أمثلة سريعة: ففى عهد (بيومى الأول) بالدولة القديمة

(عصر بناة الأهرام) يحكي قائد الجيوش «وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، جمع جلالته جيشاً من عشرات الألوف .. وأرسلني جلالته على رأس ذلك الجيش.. عاد هذا الجيش في سلام.. بعد أن حمل معه جيوشاً كثيرة العدد كأسرى »[1].

وهناك تسلل آخر قوبل بردع سريع فى الأسرة الحادية عشرة، أو بالأحرى فى بدايتها، فى عهد (منتوحتب الأول) الذى سجل نصاً يقول أنه «أستولى على الأرض كلها، وأقدم على ذبح آسيوى دجاتى»[2]، كما علمنا بطرد (آمنمحات) لطرد بقايا العامو حريشع عندما كان قائداً على جيوش (منتوحتب الرابع)، ثم تبعه أبنه (سنوسرت الثالث) الذى طاردهم إلى مواطنهم خارج الحدود المصرية، وهو ما تسجله لوحة نسمونت «ارتحل الملك بنفسه للقضاء على الآسيويين ووصل إلى إقليم سكمم» وهو منطقة (ششم) السامرية الجبلية بشمال فلسطين[3]، وهو امر ما كان ممكن التحقق لو كان أولئك الآسيويين هم الهكسوس الذين احتلوا المنطقة كلها بـ فيها فلسطين ومصر. أما الملك (خيتى) فيسجل قبل ذلك بزمان، فى العصر المتوسط الأول « عامو التعساء إن سوء الطالع يحل حيث

(١) المصدر السابق ص ١١٤٤، ١١٥.

(٢) نفسه ص ١٤٢.

(٣) نفسه ص ١٥٣.

يحلون، .. إنهم يقومون بالمعارك منذ عهد حورس (يعني منذ فجر التاريخ)، ومع ذلك فإنهم لا ينتصرون مطلقاً، وهم كذلك لا يغلبون »[1]، ثم يوجه النصح لولده (مري كارع)، قائلاً : « الأسيوى التعس لا تزعج نفسك به، إن هو إلا آسيوى »[2]، وهى بالطبع صورة لا تلتقى أبداً مع الهكسوس المحتلين أصحاب الإمبراطورية.

٥ ـ تزييف دلالات مقياس سمنة :

فيما وراء الجندل الثاني فى أقصى الجنوب، وفى وقت ما من التاريخ المصرى القديم، أرسى المصريون حدودهم الجنوبية عند قلعتين منيعتين تواجه كل منهما الأخرى على القمم الصخرية على ضفتي النيل، واحدة اسمها (قمة) والأخرى اسمها (سمنة)، ومن هنالك نحو الجنوب، ومع بدء الصخور، تبدأ أرض (كوش) بلاد الزنج، وعلى الصخور المقام عليها قلعة سمنة حفروا مقياساً لمياه النيل، ليتمكنوا من التنبؤ بالفيضان المرتفع أو المنخفض، قياساً على الأثر الذى يتركه ماء الأعوام الماضية من أثر، دون حاجة لفرعون حلوم، كما قصت علينا التوراة، وبناء على ملاحظة (ليبسوس) لأثار المياه التى تركها على المقياس، ربما يسجل ارتفاعاً يزيد عن اثنين

---

(١) نفسه ص ٥٤.

(٢) ولسن : سبق ذكره، ص ١٥٢.

قدماً على القياسات المعاصرة، يقدم (فليكوفسكى) وثيقته السادسة الدالة على الكارثة، حيث يزعم أن ذلك يعنى هبوطاً فى التكوين الصخرى وطبقات الأرض في مصر آنذاك بمقدار اثنين وعشرين قدماً، لأنه لو كانت الأرض هى الثابتة، وأن التغير حدث فى كمية الماء المتدفق بالنيل، فذلك لا شك يعنى أن عدداً من المعابد والمساكن كان من المفروض أن تغطى بالمياه بانتظام كل عام زمن الفيضان.

ولا مشاحة أن الرجل هنا يمتلك قدرة التقاط عظيمة، وصبر على التفتيش وراء كل ما يدعم مذهبه، لكنه ربما لم يلتفت إلى النتائج التى تترتب على هبوط الصخور المقياس، والتى لابد أن تؤدى إلى هبوط المقياس بدوره بذات القدر، حيث إنه تم تسجيله حفراً فى شكل خطوط عرضية على خط رأسي على الجرف الصخرى عند (سمنة). وحجته هنا كما هو واضح واهية تماماً، لكنه على أية حال يسوقها ضمن مجموعة قرائن متضافرة، بحيث لا يظهر هذا الضعف إلا عند انهيار القرائن الأخرى، أما ما نعرفه نحن ابناء هذا الوادى يقيناً بالمعايشة والمعاينة، وفى طفولتنا قبل بناء السد العالى، أن الفيضان كان يأتى في بعض المواسم مرتفعاً إلى حد نتحول فيه جميعاً إلى طوارئ من لون خاص بمصر، طوارئ الريف المصرى الذى

يتحرك ابناؤه فوراً، وكلٌ يعرف دوره تماماً دون تنظيم رسمي، للردم حول القرى لحماية البيوت المتطرفة، التي ستتعرض بحكم الدراية — خلال أسابيع للغرق الكامل. وكان الماء يرتفع إلى حدود هائلة، ولم يكن ذلك ليبهرنا نحن ابناء النيل كما أبهر الروسي (فليكوفسكي)، حيث كنا معتادين – في غير فصل الفيضان – على التطلع من فوق أسطح منازلنا، على الأطراف العليا البعيدة لأشرعة المراكب النيلية تحتنا، وكنا معتادين أيضاً – في فصل الفيضان – على الصعود إلى أسطح تلك المراكب واللعب فوقها عندما ترسو عند أبواب بيوتنا، أما المساعدة في حمل (قفف) الأتربة والأحجار للبالغين وهم يقيمون الردم حول البيوت المتطرفة، فكانت مجالاً لسعادة طفولتنا وهذرها ومرحها، كانت لوناً من اللهو الدوري الجميل الذي — لا شك — لا يعرف (فليكوفسكي) طعمه، ولا علاقته بحميمية أبناء هذا الوادي وبعضهم، وبينهم وبين نيلهم الذي كان يتجرأ عليهم إلى إلى حد التدمير، لكنهم كانوا دوماً أسعد الناس به، وأشد من في الكون فرحاً بجبروت فيضانه. أما أجدادنا فكانوا يحكون لنا في طفولتنا عن ارتفاع أشد قسوة للماء لم نحظ نحن بمعايشته، وكان يحدث قبل إقامة سد أسوان الذي يبعد عن السد العالي إلى الشمال بمقدار سبعة كيلومترات. وكان الاجداد يشيرون إلى مواقع بيوتنا ويقولون: ما كان ممكناً أن تقام هذه البيوت هنا قبل إقامة سد اسوان، حيث كان الماء

يغطى هذه الأرض وقت الفيضان. أما أهل بعض المناطق وخاصة في وسط الدلتا فقد أقاموا قراهم بكاملها فوق ردم مرتفع، جعل لتلك القرى الآن لوناً غريباً لكنه بديع، وعلى الردم أقام الأهلون السلالم الحجرية التى كانت تسمح للفلاحات بحمل أوانى الطهو والملابس لغسلها أمام أبواب البيوت مباشرة في مياة النيل وقت فيضانه، بدلاً من جهد حملها الطويل أيام التحاريق الصيفية إلى مجرى النهر البعيد.

٦ ـ تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجرى :

يسوق (فليكوفسكى) نص هذا النقش كالآتى " إن مقر ربة كيس قد تحول إلى أنقاض، وابتعلت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزلت عنه ما تراكم وأعدت بناءه، واستعدت ما كان أنقاضاً، وأكملت ما كان قد ترك بلا بناء، فقد كان هناك آمو في وسط الدلتا، وفى حواريس، وكانوا هم من دمرت قبائلهم كل المبانى القديمة، وقد حكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع ".

وعندما يورد (فليكوفسكى) ذلك النص مباشرة، بعد حديثه عن مقياس سمنة الذى يقع أقصى الجنوب ودون أن يحدد أين يقع المعبد

المهدم، معتمداً على أنـه مكـان يسـمى (كيس)، حيث إن المعبد كـان معبد (ربة كيس)، إنما يقوم بـتزييف آخر يذهـب بالقـارئ إلـى مكـان اسمه (كيس) قرب (سمنة)، وهنا لا شك سيراود القـارئ وهـو يبنـي تصوراته أن الهكسوس قد حكموا مصر بكاملها حتى وصلوا حدودهـا الجنوبيـة قـرب (سـمنة)، حتـى يلائـم ذلـك أربعـة قـرون حكمـوا فيهـا مصـر. ولن يكون مستساغاً أن يحكموا أربعة قرون دون احتلال لكـل شبر فيها، لكن الحقيقة أن الهكسوس لم يصلوا إلى ابعد من (أشمون) الحالية في أبعد التقديرات، بل ربما لـم يصلوهـا إطلاقـاً، إنمـا رضـوا من حكامها بالجزية التـي ستسـمح لهـم بـالمرور شـمالاً إزاء إغلاقهـم للحدود الشمالية على البحر المتوسط والشرقية بسيناء. كما أن التعبـير (ربة كيس) فيه تلاعب واضح، لأنه (مقـر الربـة كيـس) وليـس (مقـر ربة كيس)، والنص عبارة عن نقش أمرت بكتابتـه الملكـة حتشبسـوت على واجهة معبد إقليمي، يوعز لنا (فليكوفسكى) إنـه كـان فـي سـيناء ليتيسر له الزعم بهبوطه تحت الأرض أثناء الكارثة. رغم المعلوم أن المعبد المذكور في منطقة اسطبل عنتر الحالية بمصـر القديمـة، وهـو الذي أطلق عليه اليونـان اسـم «سـيبيوس أرتميـدس» ويبـدو أن معبـد الإلـهة (كيس) أهمل زمناً أتاح للرمال أن تتراكم عليه «أزلت ما تراكم عليه»، وهي ظاهرة نعرفها في بلادنا. أما التعبير الوحيد الذي اسـتند إليه صاحبنا في انخفاض الأرض المتزلزلـة بفعل رب التـوراة وقـت

الكارثة، وهو تعبير مجازى واضح يشير إلى تراكم الرمال على المعبد، يقول « ابتعلت الأرض حرمها المقدس »، وليس هناك أية إشارة لانخفاض الأرض وإلا أشارت (حتشبسوت) للأمر بوضوح، أما كوننا نذهب إلى عدم تجاوز الهكسوس لسيناء وشرقى الدلتا، فهو واضح فى قول حتشبسوت «كان الآسيويون فى حواريس فى شمال البلاد، وكانت من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع » [1]. ولعل القول بحشود تهدم ما سبق بناؤه لا تحتاج إلى تعليق.

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثانى من نظرية (فليكوفسكى) نجدنا بحاجة إلى الإجابة عن تساؤلات مشروعة إزاء ما قدمه حتى الآن، فإذا كان بنو إسرائيل فى مصر منذ زمن طويل سبق نهاية الأسرة الثانية عشرة حين خرجوا ودخل الهكسوس، فهل لم يوجد فى مصر شخص واحد أمكنه أن يسجل لنا ولو إشارة عن بنى إسرائيل باسم إسرائيل أو باسم أى فرد من أعلامهم؟ وإذا كان الهكسوس قد حكموا مصر أربعة قرون متصلة لم يوجد بينهم من يعرف الكتابة ليسجل لنا شيئاً واضحاً عن إمبراطورية عربية عظمى قامت على الجهل والبربرية؟ أو لم يوجد مصرى فى عهدهم يدون لنا خلال أربعة

---

(١) انظر على سبيل المثال فقط حاردنر : سبق ذكره ، ص ١١٢.

قرون شيئا عنهم؟ إن عدم وجود مثل تلك المدونات إطلاقاً، كفيل وحده بهدم كل ما ذهب إليه (فليكوفسكى)، لكن وقفتنا معه كانت أمراً لازماً إزاء براعته القصوى التى تحسب له، والتى كانت تكفل له أن يهمل أى قارئ مثل تلك التساؤلات.

تزوير التاريخ

أقام (فليكوفسكى) رؤيته فى جنس الهكسوس وموطنهم على إشارة عابرة للمؤرخ المصرى (مانيتون)، والتى ساقها (مانيتون) فى صيغة عدم اليقين بقوله: «والبعض قالوا : إنهم كانوا عرباً » لكن (فليكوفسكى) يهمل تماماً إشارة (مانيتون) التأكيدية فى كون الملوك الستة الأوائل من الهكسوس، أصحاب الأسرة الخامسة عشرة ــ فيما يزعم ــ كانوا فينيقيين بالتأكيد [1]وهو ما أخذ به بعض المؤرخين وإن ذهب الأكثرية إلى قدومهم من مناطق بحر قزوين.

والمعلوم أيضا أن العامل الأخطر والذى ساهم بقدر فاعل فى غزوهم لمصر، ليس فقط حالة التفكك والفوضى التى صاحبت العصر المتوسط الثانى، بل أيضاً تفوقهم العسكرى الذى تمثل فى أمرين غاية فى الدلالة: الأول هو اكتشافهم لمعدن الحديد وتصنيعه، بحيث امتلكوا أسلحة مصنوعة من الحديد، أما الأمر الثانى فهو أنهم كانوا السابقين إلى ترويض حيوان لم يكن معروفاً فى منطقة الشرق الأدنى أصلاً هو الحصان، بل واختراع العجلات التى يجرها ذلك الحصان

---

(١) د. لويس عوض : مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٠.

واستخدامها في النقل، وكـأداة حربية متطورة للغايـة، تعـادل دبابات اليـوم وطائراتـه، والثـابت تاريخيـاً وحفريـاً أن منطقتنـا لـم تعـرف الحصان بالمرة قبل قدوم الهكسوس إليهـا، وإن جـاءت إشـارات إليـه من نصـوص الرافديـن المسمارية، مـن عهـد سـلالة أور الثالثـة (٢١١٢ ــ ٢٠٠٤ ق.م) باسم (أنشوكرا) أى (حمار الجبل) أو (حمـار البلد الأجنبـي)، ولـم يعـرف فـي الرافديـن إلا مـع الغـزو الكاسـي لهـا [1] حوالى عـام ١٦٠٠ق.م، ولنلحظ أن غـزو الهكسـوس لمصـر جـاء حسب التاريخ المعروف حوالى عام ١٦٨٠ق.م.

وقد ظهر سلاح العجلات التي يجرها الحصـان لأول مـرة فـي مصـر، بعد اكتسابها تلك المعرفة مـن الهكسوس، وإبـان حـروب التحرير، وكـان أول ظهور للحصـان والعجلـة الحربية فـي حـروب أحمس ضد الهكسوس مع بداية الأسرة الثامنـة عشـرة، وكـان سـلاحاً ابتدائياً، بحيث أن كبير ضباط الفرعون (أحمس)، والمعـروف بـدوره باسم (أحمس بن أبانا)، الذي عرفناه مدوناً لقصـة حصـار المصريين لحواريس عاصمة الهكسوس، كان يسير على قدميه إلى جـوار عجلـة الفرعون، فإلى هذا الوقت كان المصريون يستخدمون السفن كوسيلة

---

(١) طه باقر : الوجيز في تاريخ حضارة وادى الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامـة، بغـداد ١٩٨٦، ج١، ص٤٥٦.

نقل رئيسية، وكترسانة عسكرية متحركة، وهو ما وضح في قصة التحرير، حيث « أبحر المصريون لقتال الهكسوس » ولأول مرة تظهر رتبة قائد سلاح العجلات مع نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، وتحديداً في عصر (آمنحتب الثالث) الذى أصدر قراراً ـ لأول مرة ـ بتعيين حميه (يويا) قائداً لسلاح العجلات، بلقب «وكيل الملك في سلاح العجلات» .

وهذا الأمر وحده كفيل بهدم السند الأساسي لفروض (فليكوفسكى) ، إضافة لفقدان الكتاب المقدس صفته كمعيار تام السلامة للتزمين، حيث أن الكتاب المقدس يشير إلى العجلات كسلاح معلوم، وكوسيلة انتقال إعتيادية عند دخول (يوسف) إلى مصر، والمفترض ـ حسب نظرية فليكوفسكي ـ أن هذا الدخول قد حدث منذ زمن سبق الأسرة الثانية عشرة، وجاء ذلك في عدة نصوص توارتية، جاء في تصرف الفرعون بعد إدراكه لقيمة يوسف التنبوية «وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا أمامه : إركعوا، وجعله على كل أرض مصر ـ تكوين ٤١ : ٤٣ »، ثم جاء عند وصول يعقوب إلى مصر «شد يوسف مركبته وصعد لاستقبال يعقوب أبيه ـ تكوين ٤٦ : ٤٩ » ، ثم عند موت يعقوب وخروج يوسف ليدفن أباه.. وصعد

معه مركبات وفرسان، فكان الجيش كثيراً جداً ـــ تكوين ٥ : ٧ ـــ ٩ "، وغير ذلك كثير من النصوص التي تؤكد وجود العجلات كشئ اعتيادي في مصر عند دخول الإسرائيليين إليها، وهو بالوثائق أمر باطل تماماً، إذا احتسبناهم قد دخلوا مصر قبل الهكسوس كما ذهب (فليكوفسكي)، لأن العجلات لم تعرف في مصر إلا مع مقدم الهكسوس إليها، بل ظلت العجلات بعد طردهم زماناً شيئاً ابتدائياً، لم يكتمل ليمكن أن يكون نواة لسلاح مستقل بالجيش، إلا بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان، وهو الفارق بين زمن (يويا) أو وكيل الملك لسلاح العجلات، وبين زمن (أحمس) محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

وعليه لا يمكن أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر في زمن سابق لزمن الهكسوس، بل المرجح أن يكونوا، قد دخلوها زمن الهكسوس وكحلفاء لهم، وقد سبق لنا أن وصلنا إلى تحديد المنطقة التي قدم منها الهكسوس إلى المنطقة، ونشرناه في كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)[1]، وسجلنا مجموعة من القرائن كافية، تشير إلى أنهم يعودون بأصولهم إلى المنطقة الكاسية شمالي بلاد الشام والرافدين، في أراضي (أرمينيا) جنوب بحر قزوين، وتحديداً

---

(١) سيد محمود القمني: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، القاهرة ١٩٩٠.

حول بحيرة (فان)، ومن هذه المنطقة قدمت موجات ذات كثافة عالية في شكل موجات متتابعة، وكان أكبر هذه الهجرات وأخطرها الموجة الكاسية التي دونت أخبارها نصوص الرافدين بعد أن هبط الكاسيون في غزو كاسح على دولة بابل الأولى حوالي ١٦٠٠ق.م، وقد ذهبنا إلى أنه ضمن تلك الموجات جاءت موجة الهكسوس التي تعد جناحاً من أجنحة الهجرة الكاسية أتجه إلى مصر حوالي ١٦٨٠ق.م.

وقد سبق أن علمنا أن (يوسفيوس) فصّل كلمة هكسوس إلى مقطعين: (هك) بمعنى ملك و(سوس) بمعنى راعي، أي ملوك الرعاة، وفي كتابنا (النبي إبراهيم...) رفضنا ذلك التخريج، لأن كلمة (هكسوس) إذا احتسبناها كلمة واحدة لا تتركب من شقين فسوف تكون واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى تخريجات وتقسيمات، و(برستد) يذهب إلى أن الهكسوس آراميون [1]، وقد رأينا ــ بالأدلة ــ أن الأراميين من أرمينيا الكاسية، ومع حذف التصريف الأسمي في آخر كلمة هكسوس (حرف السين الأخير) لا تحتاج التسمية إلى إثارة إشكاليات، حيث تصبح (الكاسو) أو (الكاسي)، وهو ما يلتقي مع مذهبنا في كونهم فرعاً أصلياً للهكسوس، أما موسوعة تاريخ العالم فتقول في حديثها عن أحداث تاريخ الرافدين عام ١٦٠٠ ق.م، قولها :

---

(١) برستد كتاب تاريخ مصر... سبق ذكره، ص ١٤١.

«عام ١٦٠٠ق.م، غزا الكاشيون بابل، ... حكموها لمدة ٤٥٠ عاماً، أصبح الحصان معروفاً في مصر وغرب آسيا »[١]، ومع ذلك لم تربط الموسوعة ولو بالإشارة بين الغزو الكاسي للرافدين، وبين الغزو الهكسوسي لمصر، وبين الأراميين وأرمينيا.

ولعل أهم ما يبطل تقسيم كلمة هكسوس إلى مقطعين (هك)، (سوس)، أنه لا يوجد في اللغة المصرية القديمة لفظة بنطق (سوس) أو ما تفيده معناها، على وجه الإطلاق [٢]، وهو ما يبطل أيضاً أى تخريج بقسم الكلمة إلى مقاطع، ولا تبقى سوى (هـ ـ كاسي ـ س) أى الكاسيين، لكن (فليكوفسكى) كافح كفاحاً مستميتاً ليجد بالكتاب المقدس أى إشارة تتوافق مع معنى المقطعين (الملوك الرعاة) حسب التخريج الخاطئ، وهو ما يشير إلى تكلُف وتلفيق واضح العمد، فيلجأ إلى سفر المزامير المتأخر بقرون طويلة عن زمن الخروج، ليجد فيه النص «قد أنزل عليهم الرب أشد غضبه وعقابه سخطاً وزجراً وضيقاً، **جيش ملائكة أشرار** ـ ٤٨ : ٤٩ »، ثم يعقب متغابياً فيما يبدو «فما الذى يعنيه ملائكة الشر؟ »، بينما هو يعلم جيداً تواتر

---

(١) وليم لانجر وسبعة عشر عالماً موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة مع سبعة مترجمين، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص٥٦.

(٢) العزب سبق ذكره، ص٤٥.

(ملائكة الشر) بالكتاب المقدس، واصطلاح ملاك الشر يشير إلى الملك الموكل من قبل (يهوه) مع جنوده لإنزال الدمار بأعداء إسرائيل، وهو اصطلاح اعتيادى تماماً لدى العارف بالكتاب المقدس، ثم يقوم (فليكوفسكى) بتفسير الاصطلاح (ملائكة أشرار) بحيث تلتقى مع (ملوك رعاة) بقوله إن الناسخ القديم للكتاب المقدس باللغة العبرية القديمة قد أضاف حرف ألف لكلمة (شرر) لتتحول عن معناها الأصلى (رعاة) إلى (أشرار)، بينما الشق الأول (ملائكة) يلتقى مع كلمة (ملوك) بلا فرق يذكر، وعليه فالأصل فى المقدس القديم، كان «جيش ملوك رعاة»، وليس «جيش ملائكة أشرار»، والواضح أن الرجل قد بذل جهداً لا طائل من ورائه، حيث لا تعنى كلمة هكسوس بالمرة (ملوك رعاة)، لعدم وجود كلمة (سوس) بمعنى (رعاة) ولا بأى معنى آخر ولاحتى بلفظها ضمن معجم ألفاظ المصرية القديمة، لأن الأصل فى اللسان المصرى كان (حقاوكاسوه) والتى ببساطة ـ لدينا ـ (الحكام الكاسيين) أو (الكاشيين).

ولو كان (فليكوفسكى) قد اقتصر على تزييف دلالات النصوص لهان الخطب، لكنه ـ كما رأينا فى أكثر موضع ـ عمد إلى تزييف النصوص ذاتها، ومن ذلك التزوير ما فعله مع (بردية ساليه)، وهى عبارة عن تمرين مدرسى كتبه التلميذ (بيتاعور) كتدريب على

النسخ، وإن نسخها يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، بعد طرد الهكسوس بمئات السنين، والأصل مفقود. لكن المصرولوجيين استخرجوا من ملابساتها أنها كانت تحكي قصة شعبية متواترة، من ألوان قصص الفخر الوطني وأشعار البطولة القومية، والقصة تتناول بداية حروب التحرير، وتحديداً بداية ما يمكن تسميته بالنزاع بين (سقننرع) الملك المصرى الطيبى، وبين (أبوب) الملك الهكسوسى، وتبدأ البردية بوصف حال الفاقة والبؤس، وكيف بعث (أبوب) رسالة تحدى (لسقننرع) فى طيبة مع رسول، تقول : « إخل البركة الواقعة شرقى المدينة من أفراس النهر، لأنها تحول بيننا وبين النوم ليلاً، ولأن ضوضاءها تملأ آذان سكان حواريس » .

ورغم أن (فليكوفسكى) يرى فى تلك الرسالة كثيراً من الازدراء والاحتقار من قبل (أبوب) للحكام المصريين الذين يحكمون فى طيبة (الأقصر)، فإن آخرين ذهبوا إلى أن الرسالة لوناً من (جر الشكل)، والاستفزاز، وهو استفزاز لامعنى له لو كانت الأمور مستقرة للهكوس فى الجنوب، لذلك ذهب آخرون إلى أنها نوع من الألغاز القديمة التى كان الملوك يخاطبون بعضهم البعض بها، وأن الأمر يشير إلى لون من الضجيج الثورى بدأ يتعالى فى طيبة، وأن الأمر (أزعج) أبوب مما دفعه لإرسال تلك الرسالة المتحدية، التى

تكاد تقول : إن المشاعر الوطنية التي ظهرت في الجنوب تقض مضاجعنا وعليك ايها الحاكم إخمادها فوراً.

ثم يأتي (فليكوفسكي) بما يوحي أنه نص يقول : « وظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكي لوقت طويل ولم يدر بما يجيب على رسالة الملك أبو فيس » ومن ثم « قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك أبوب الثاني إلى حواريس »، ونهاية البردية مفقود، (والتعقيب الأخير لفليكوفسكي)، أما الغريب فعلاً أن بردية (ساليا تقطع عند مشاورة الملك (سقننرع) لحاشيته وجنوده بشأن الرسالة وإن الاستكمال جاء من عند فليكوفسكي في حديثه عن القبض على (سقننرع) وأخذه إلى حواريس، وهنا الأمر الخطير في عمل ملفق كالذى بين أيدينا، والذى حاز شهرة عالمية لا تضارع، وربما عمد (فليكوفسكي) إلى عدم ذكر ظروف كتابة البردية، حتى لا يتساءل القارئ: كيف يمكن لتلميذ في مدرسة، وكيف يمكن لمدرسة وطنية في ظل حكومة إمبراطورية تفاخر العالم آنذاك، أن يتناول موضوعاً شعبياً يحكى كيف تم إهانة ملك يفخر به المصريون، وكيف سيق أسيراً لعاصمة الهكسوس، بينما الثابت من وصف (إليرت سميث) ومن واقع الجراح التي وجدت في مومياء الملك (سقننرع)، أن الرجل مات بعدة ضربات نافذة بالخناجر والبلط. وكان

ممكناً القول مع (فليكوفسكي) أن الملك المصرى أخذ إلى حواريس أسيراً، ولو بافتراء على وثيقة لم تقله، وأنه أعدم هناك، لولا أن جثمانه كان محفوظاً بوادى الملوك فى طيبة عاصمة الجنوب، والتى انطلقت منها عزمات التحرير، وهو مايشير إلى موت الرجل فى معركة شرسة، وقع فيها شهيداً وسط جنوده، الذين حملوا جثمانه من ساحة المعركة إلى مرقده الأخير فى مقر حكمه (طيبة ـ الأقصر)، ولن نفهم سر كل هذا التسفيه من شأن قواد التحرير المصريين إلا فى ضوء تزمين التاريخ الفليكوفسكي، الذى يصب فى النهاية كل البطولة والنجدة والشهامة والمروءة فى يد بنى إسرائيل الكرام، حيث يتزامن الخروج الإسرائيلى مع الدخول الهكسوسى، ويتزامن الملك الإسرائيلى (شاول) مع زمن تحرير مصر من الهكسوس، الذى قام به (شاول) ورجاله بعد ماثبت له أنه إزاء جبروت إمبراطورية عربية، وبنص (فليكوفسكي) « إن الإسرائيليين كانوا هم الشعب الوحيد الذى قام وقاتل ودخل حروباً وبإصرار شديد، كى يظلوا مستقلين وغير خاضعين لسيطرة العماليق .. **لقد كان زمناً بطولياً لإسرائيل أنفردت به دون سائر الأمم، فى الوقت الذى لم تقم فيه أية ثورة أو أى تمرد من أى نوع كان، لا فى مصر ولا فى غيرها**، ضد العماليق، فى تلك الإمبراطورية الواسعة، خلال القرون التى حكموا فيها تلك البلاد » .

ونفهم من ذلك أن الإمبراطورية العربية المتبربرة التى تحدث عنها كإمبراطورية عالمية تحكم جزيرة العرب ومصر وجزر البحر المتوسط وبلاد الشام بما فيها فلسطين، تغلب على سطوتها حفنة من الآبقين الخارجين من مصر هاربين ، بحيث كانوا الشعب الوحيد فى المنطقة الذى امتلك كرامة قومية دعته للمحافظة على استقلاله فى بقعة صغيرة بفلسطين، ضمن الإمبراطورية العربية العظمى. وهو مبرر واه تماماً لتفسير قيام حكم القضاة اليهود لأربعة قرون ف فلسطين فى ظل إمبراطورية عاتية وهمجية كالتى صورها ا (فليكوفسكى) ذاته، ثم سحب زمن الهكسوس ليتزامن مع عصد (شاول) مع تحرير مصر، لأن (شاول) ـ فى رأيه ـ هو الذى ا ألوف الإسرائيليين إلى حواريس، وضرب عليها الحصار وهزمها ش هزيمة، وشتت العماليق الهكسوس الذين انسحبوا إلى شاروهين وترك الأرض المحررة لأصحابها المصريين (منتهى العدل؟! ومنتهى المروءة)، دون أن يفكر فى الاستيلاء على تلك الأرض، ولو من باب انتقام واجب من عبودية بنى إسرائيل بمصر قروناً، و يحاول بقواته العظمى التى هزمت أعظم الإمبراطوريات فى زمان أن يحتل مصر، كان همه الاوحد الانتقام من عماليق، لأنهم آذو الإسرائيليين عند الخروج، منذ أربعة قرون مضت، وظل الاسرائيليون يحتفظون بذلك الحقد حتى انتقموا بتدمير حواريس وتشتيت الهكسوس العماليق، هذا رغم (جيشان) الكتاب المقدس فى

كل إصحاح وكل سفر بحقد على مصر والمصريين، وكل ما كانت تملكه تلك الأسفار هو استنزال اللعنات المرتجاه من رب العالمين على رؤوس المصريين. لذلك من حقنا أن نبدى الدهشة والعجب من امتلاك إسرائيل تلك القوة الهائلة التي تهزم الهكسوس المحتلين أصحاب إمبراطورية الاحتلال الاستيطاني، ولا تنتقم من المصريين، في وقت كانت فيه مصر أمام تلك القدرات الإسرائيلية مجرد ثمرة ناضجة تقع دون جهد يذكر في يد (شاول) وجيوشه الجرارة.

ومن جهة أخرى، فإن مزاعم (فليكوفسكي) لا بد تفترض ـ ضمناً ـ أن بني إسرائيل قد قضوا تماماً على كل أعدائهم الصغار مقارنة بالعماليق، وهو الأمر الذي يحتاج توضيحاً، لكن ليس قبل أن نقف مع النص المصري الذي علم منه (فليكوفسكي) بقصة التحرير على يدل (شاول)، وهو المدون في مقبرة الضابط (أحمس بن أبانا)، إضافة إلى نص آخر استشهد به هو حكاية العراف (بلعام) بالتورة.

ولنبدأ بنص التوراة، الذي يحكي لوناً فجاً من الخرافة، عن كيف استدعى (بالاق) ملك الموآبيين العراف (بلعام) المدياني، ليصب له اللعنات على بني إسرائيل فيبيدهم، " فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق: ولو أعطاني ملئ بيته فضة، ولا ذهب ، لا أقدر أن أتجاوز قول الرب.. فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له : أتى الرجال ليدعوك فقم أذهب معهم .. فقام بلعام صباحاً وشد على أتانه وانطلق مع

رؤساء موآب، فحمى غضب الله لأنه منطلق معهم (؟!) ووقف ملاك الرب في الطريق ليقاومه وهو راكب على أتانه وغلامه معه، فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفا فى الطريق وسيفه مسلول فى يده (؟) فمالت الأتان عن الطريق.. فحمى غضب بلعام وضرب الأتان بالقضيب، ففتح الرب فم الاتان فقالت لبلعام : ماذا صنعت بك كى تضربنى؟ .. فقال بلعام للأتان : لأنك ازدريت بى، لو كان فى يدى سيف لكنت قتلتك الآن، .. ثم كشف الرب عن عينى بلعام فأبصر ملاك الرب واقفاً فى الطريق وسيفه مسلول فى يده، فخر ساجداً على وجهه..إلخ ـ العدد ٢٢ : ١٩ ـ ٣١ » .

والمعتاد على قراءة ذلك الكتاب لن يجد آية غرابة في تناقض الرب، ولن يعجب من حمار يتحدث مع صاحبه حديثاً وديّاً فيعاتبه، وصاحبه يلومه، لأن القارئ لن يجد صفحة بالكتاب تخلو من تلك العجائب، لكن المهم أن (بلعام) بدلاً من أن يلعن بنى إسرائيل مدحهم وأعطاهم بركاته، وتنبأ بأن مُلك إسرائيل سيتسامى على ملك (أجاج)، وأن آخرة عماليق إلى هلاك (أنظر سفر العدد ٢٤ : ٣٠ـ٧). وهنا يقفز (فليكوفسكى) ليمسك (أجاج) بكلتا يديه منادياً : فلتشهدوا أن هذا هو (أبوب الثانى) ملك الهكسوس، ولا بد بالتالى أن يكون الهكسوس هم العماليق، وأن هلاك العماليق قد جاء على يد بنى إسرائيل، حسبما

تنبأ بلعام، وذلك في الحملة التي قادها أول ملك لأول مملكة يتم فيها توحيد شراذم إسرائيل.

ولإثبات صدق بلعام والحمار والرب، يكتشف (فليكوفسكى) الدليل على ما حدث في مقبرة الضابط المصرى (أحمس بن أبانا)، ولنقرأ كيف صاغ (فليكوفسكى) ذلك النقش الهام، الذى يقول فيه الضابط : « تابعت الملك سيراً على أقدامى حين ركب عجلته الحربية فى طريقه إلى خارج الولاية، وكانوا هم يحاصرون مدينة حواريس »، والإشارة (كانوا هم) لا تعنى سوى أن قوماً آخرين هم أصحاب الفضل الحقيقى فى التحرير، « كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه حواريس..استولوا هم على حواريس.. هم حاصروا شاروهين »، الرجل بهذا الشكل محق تماماً، لكن عندما نقرأ النص الأصلى سنكتشف إلى أى حد بلغت بالرجل الجرأة والقدرة على التزوير.

يقول الضابط (أحمس بن أبانا) فى النص الصادق : « تبعت الملك على قدمى عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس »، ولنقف هنا مع أمرين : الأول زمن الفعل فى النص الصادق (حاصر) وزمنه فى النص المزور (يحاصرون)، والذى

ضبطه مع تزوير آخر، وبدلاً من الصيغة المصرية للفعل الماضي (إنه حاصر) تحولت (إنه) في صيغة الإشارة المفخمة للغائب (الملك) إلى (كانوا هم)، ولأن استكمال العبارة جميعاً في صيغة الماضي ستصبح غير ملتئمة (كانوا هم حاصر مدينة حواريس)، فكان لابد من تزوير الكلمتين لتتحول العبارة من (إنه حاصر) إلى (كانوا هم يحاصرون).

ولنقرأ النص كاملاً : «تبعت الملك سيراً على قدمي عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس، وقد أظهرت في قناة مياه بازدكو في حورايس، ثم حاربت ملتحماً يداً بيد واستوليت على أحد الأسرى، ولما بلغ ذلك المسامع الملكية منحني الملك ذهب الشجاعة، ثم تجدد القتال مرة أخرى في ذلك المكان، وحاربت ثانية هناك يداً بيد، وحصلت على أسرى آخرين، ومنحني الملك ذهب الشجاعة ثانية » .

وأثناء أنشغال الملك (أحمس) في محاربة الهكسوس، حدثت قلاقل في جنوبي البلاد، على بعد ما يزيد عن ألف كليومتر عند (الكاب)، فسارع الملك مع بعض جنود، وبضمنهم الضابط (أحمس)، الذي يروي تلك الواقعة أيضاً، ويقول «لقد حاربت في مصر جنوبي مدينة الكاب، واستوليت على أسير حي حملته معي على صفحة

الماء، ولما بلغ هذا الأمر المسامع الملكية، منحنى هو الذهب بالمعيار المزدوج »، والسؤال الآن: هل كانت (هو) المفخمة هنا ــ بدورها ــ تشير إلى الإسرائيليين فهي تترجم حرفيا (منحونى)، وأنهم ذهبوا إلى أسوان مع (أحمس) الملك للقضاء على قلاقل منطقة النوبة، ومنحوا الضابط (أحمس) الأنواط الذهبية المزدوجة لشجاعته؟

وذات الأمر يكرره في قصة انسحاب الهكسوس من حواريس إلى شاروهين بفلسطين، حيث حاصرها الملك ثلاث سنوات حتى استسلمت ورحلوا عنها بموجب اتفاقية أبرمت بهذا الخصوص، « لقد حاصر شاروهين ثلاث سنوات ثم استولى عليها، وأسرت هناك رجلاً وامرأتين »، لكن النص هنا لا يحمل اسم الإشارة المعتاد، بل الفعل (حاصر) فقط، مما يشير إلى الملك كقائد لجيش الحصار، وهي إشارة لمفرد متضمن داخل الفعل الماضي بالتقدير، ولا يشير إلى جيوش يمكن أن تكون عند (فليكوفسكي) جيوش أجداده الأفاضل، وهنا لايجد الرجل ما يناسب النص بالتوراة، فلجأ إلى أسطورة متداولة بين بني جلدته تحكي عن القوة البدينة الخارقة في أساطير منوعة عن (يوآب) قائد جند (داود) الذى خلف (شاول)، وضمنها أسطورة تقول أنه اخترق بمفرده أسوار مدينة عماليق، وعليه فإن (فليكوفسكي) يعلم أن (يوآب) هو صاحب الفضل الحقيقي في هزيمة آلوف المحاربين

العماليق بمفرده، وأنه وفق العادة الكريمة لبنى إسرائيل، قد تركها هدية لأحمس المصرى، رغم أنها تقع داخل أرض فلسطين ذاتها، وفى عمقها، وجزء من مملكة إسرائيل؟!!!

وتبقى هنا عدة مسائل، تثيرها استفسارات بدهية، إزاء كل ما قدم (فليكوفسكى)، لإثبات سقوط ستة قرون كاملة من التاريخ المصرى وتاريخ العالم بالتالى، وإزاء ركونه الكامل إلى مصداقية مطلقة تتسم بها نصوص التوراة، وهو غرض آخر يتضمن فى ثنايا الغرض الأول، من أجل تحقيق عدة أهداف أهمها إيجاد موطئ قدم لبنى إسرائيل فى تاريخ المنطقة، وإثبات البراءة الكاملة والطهارة المطلقة لهذا الشعب من كل ما التبس بتاريخه من اتهامات، مع تأكيد العلاقات الحميمة بين بنى إسرائيل والمصريين إزاء العرب منذ التاريخ القديم، والتى أهدرها المصريون جانب واحد، مع إعاد تأسيس تاريخ العالم بحيث يتزامن مع الأساس المتين بالكتاب الإسرائيلى المقدس، وبحيث يكون العمل فى مجمله تنظيراً تاريخياً للقومية الصهيونية.

وهذه المسائل التى تنتج عن استفسارات، يمكن تحديدها فى العناصر التالية :

ــ إزاء المصداقية الكاملة التي يريد (فليكوفسكي) إثباتها لنصوص المقدس الإسرائيلي، والتي عمد وهو بسبيل ذلك الإثبات إلى الانتقاء من وثائق التاريخ القديم ما يراه أهلاً لتحقيق غرضه، مع تزوير دلالات تلك الوثائق، وإزاء حدث الخروج العظيم الذي انبنت عليه الكرامة القومية الإسرائيلية، وعليه أسس (فليكوفسكي) العلم كله، أقول : إذا كان الأمر كذلك فلا ريب أن الدهشة تأخذ المدقق مع استفسار بسيط تماماً يتساءل : لماذا لم تذكر النصوص المقدسة بالكتاب المقدس اسم ذلك الفرعون الذي سام شعب الرب العذاب، رغم كل تلك الدقة في سرد المعجزات، ورغم خطورة الحدث وأهميته واحتسابه حجر الأساس في التاريخ الإسرائيلي؟

ـ ثم إذا كانت الكوارث التي أنزلها (يهوه) بالمصريين ليست من باب الأساطير، إنما تسجيل لوقائع حدثت بالفعل، وكان حدث انشقاق البحر هو قمة تلك الأحداث الكونية، وبعدها دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، فإن المدقق في التوراة سيجد أن هناك أحداثاً أخرى تمت في فلسطين بعد الخروج، تدخل في عداد المبالغات الأسطورية وتهويلاتها، وغض (فليكوفسكي) الطرف عنها تماماً. لأن الكارثة التي يتحدث عنها كانت قد انتهت، فهذا مثلاً (يشوع بن نون) الذي خلف (موسى) على قيادة الإسرائيلين، وعند عبور نهر الأردن البعيد عن أحداث كارثة الخروج مكاناً وزماناً، تحدث له نفس المعجزة

« ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكى يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد (هو تابوت ينام فيه الرب ليحملوه معهم) أمام الشعب، فعند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن، وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفة المياه، والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً بعيداً جداً.. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا، فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن ــ سفر يشوع ٣ : ١٤ـ١٧ »، وبعد ذلك بخمسة قرون يأتى الرب ليقابل النبى (إيليا التشبى) « فقال أخرج وأقف على الجبل أمام الرب، وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد **شقت الجبال وكسرت الصخور** أمام الرب ــ ملوك أول ١٩ : ١١» فهل كانت تلك كارثة أخرى، وخاصة أن (إيليا) قام بمعجزة فلق الأردن هو بدوره « فأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الما فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس ـ ملوك ثانى ٢ : ٨ ». وبعدها ظل رداء (إيليا) يقوم بالوظيفة التى كانت تقوم بها عصى (موسى)، « فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر

أليشع ــ ملوك ثاني ٣ : ١٤» ومثل تلك الروايات تغص به كل صفحات الكتاب المقدس من بدئه إلى منتهاه.

ــ أما الاستفسار الأهم، فهو إذا كان الإسرائيليون مع أول ملوكهم (شاول) قد امتلكوا تلك القوة الحربية العظمى بألوف العربات ومئات الألوف من الجنود المدربين، بحيث تمكنوا بها من استئصال شأفة الهكسوس العرب وتحرير مصر، فإن ذلك يعني وجود نظام مركزي متماسك وقوى، بينما المطالع للكتاب المقدس لن يجد لأى من الفرضين أى تحقيق بالمرة :

«وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون. مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى اليوم ــ يشوع ١٥ : ٦٣ ».

وكذلك سبط إفرايم لم يستطيعوا أن يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، «فسكن الكنعانيون وسط إفرايم إلى اليوم ــ يشوع ١٦ : ١٠ ».

وكذلك أبناء منسى أخى إفرايم «ولم يقدر بنو منسى أن يملكوا هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن فى تلك الأرض ـ يشوع ١٧ : ١٢».

كذلك سبط أشير لم يستطع الاستيلاء لا على «صيدون العظيمة». ولا على «المدينة المحصنة صورة ـ يشوع ١٩ : ٢٨ ـ ٢٩».

«وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات من حديد ـ قضاة ١ : ١٩».

كذلك «زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلون فسكن الكنعانيون فى وسطه ـ قضاة : ١ ـ ٣٣».

«وحصر الأموريون بنى دآن فى الجبل .. فعزم الأموريون على السكن فى جبل حارس فى إيلون وفى شعلبيم ـ قضاة : ١ : ٣٥».

والأمثلة غير ذلك كثيرة يمكن للقارئ الرجوع إليها بالكتاب المقدس. وتشير بوضوح إلى أمرين هامين : الأول أن الخارجين من

مصر ظلوا على انقسامهم قبائل وبطوناً وأفخاذاً، والثاني هو أنهم رغم البشاعة التي استخدموها في حروبهم ضد سكان الأرض، فإن هؤلاء ظلوا في أماكنهم ولم يتمكن بنو إسرائيل رغم المجازر الهائلة التي ارتكبوها ــ وسنأتي على ذكرها ـ أن يزحزحوا هؤلاء من بلادهم، فسكن الإسرائيليون بينهم.

أما الفرض الثاني، وهو قيام كيان متماسك، فمن الواضح أنه لم يتحقق طوال العصر الممتد من زمن الخروج إلى زمن (شاول)، وفي رواية المقدس التوراتي تفاصيل تؤكد أن بني إسرائيل لم ينعموا بالاستقرار طول ذلك الزمن الذي امتد حوالي أربعة قرون كاملة، وإليك نماذج من تلك الروايات التي وردت في سفر القضاة « فعمل بنو إسرائيل الشرفي عيني الرب ونسوا إلههم وعبدوا البعليم والسواري، فحمي غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين، فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين ــ ٣ : ٧ ، ٨، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب.. فشدد الرب عجلون ملك موآب.. وضرب إسرائيل، فبعد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة ــ ٣ : ١٢ ــ ١٤، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب.. فباعهم بيديا بين ملك كنعان.. فصرخ بنوا إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد، وهو ضايق بني إسرائيل بشدة عشرين سنة

ـ ٤ : ١ ـ ٣ وعمل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين.. بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التى في الجبال.. وإذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون العمالقة وبنو المشرق.. ويجيئون كالجراد فى الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد، ودخلوا الارض لكن يخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين، وصرخ بنو إسرائيل للرب ـ ٦ : ١ ـ ٦، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرفى عينى الرب، وعبدوا البعليم والعشتاروث وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه، فحمى غضب الرب جداً على إسرائيل وباعهم بيد بنى الفلسطينيين وبيد بنى عمون فحطموا ورضضوا إسرائيل.. ثمانى عشرة سنة.. فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب قائلين أخطأنا إليك ـ ١٠ : ٦ ـ ١٠، ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فدفعهم إلى يد الفلسطينيين وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأُخذ تابوت الله ـ صموئيل أول : ٤ : ١٠ ـ ١١ »، وبعدها اجتمع الاسباط وطلبوا من الكاهن القاضى (صموئيل) أن يجعل لهم ملكاً فاختار (شاول)، الذى نجح فى استرداد التابوت من الفلسطينيين، فى غزو ما أسماه الكتاب المقدس مدينة عماليق، والتى افترض (فليكوفسكى) أنها كانت حواريس

عاصمة امبراطورية الهكسوس العربية، تلك الإمبراطورية التى كانت تحكم على منطقة حوض المتوسط الشرقى، بينما كان داخلها كل تلك الممالك وتلك الحروب، والتى لم يأت لها (فليكوفسكى)، على ذكر، إن معنى وجود ممالك متعددة فى المنطقة، وحروب إقليمية متتالية، بينها حروب شعب مثل بقية تلك الشعوب بالمنطقة والمعروف باسم العمالقة، يهدم الفرض الأساسى فى كتابه حول تلك المملكة العظمى المسيطرة خلال عصر القضاة الملئ بالأحداث.

ـ ومسألة أخرى مازالت تطلب المناقشة، وتتأسس على مدى مصداقية الصفات البربرية التى نسبها (فليكوفسكى) للهكسوس العرب حسب فروضه، وفى هذه الحال لن يكون أمامنا مقياساً للفضائل ومعياراً للنبل سوى الشعب المقابل، الشعب التقى الورع الذى فدى الإنسانية جمعاً، وقضى على شر الهكسوس، وظلمته الإنسانية جمعاء، شعب اسرائيل، ولا شك أنه لا توجد شهادة للإسرائيليين أفضل من كتابهم المقدس.

تقول شريعة الكتاب المقدس العطرة والسمحاء لشعبها أثناء رحلة التيه، قبل دخول فلسطين: « أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار ـ عدد ٣١ : ١٠، اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة ـ عدد ٣١ : ١٧، احرقوا حتى بينهم وبناتهم بالنار ـ تثنية

١٢ : ٣١، فضرباً تضرب سكانهم المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها.. وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ـ تثنية ١٣ : ١٥ ، ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما ـ تثنية ١٠ : ١٠ ـ ١٦ ».

ولن تجد سفراً واحداً يخلو من صورة (يهوه) وهو ينفث أوامره المتكررة بالحرق والذبح وتقطيع الأوصال، رجال أو نساء أو حتى الاطفال بل والبهائم أيضاً، وعندما كانت تحدث أى مخالفة لتلك الأوامر، حين يطمع الإسرائيليون فى الإبقاء على بعض النساء كسبايا، أو على المتاع والبهائم كغنائم، فإن الرب كان يصب نقمته على الاسرائيليين أنفسهم. والأمثلة كثيرة بالكتاب نستشهد منها بمثال واحد فقط اختصاراً للأمر، «وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين... فكلم موسى الشعب قائلاً: جردوا منكم رجالاً للجند فيكونون على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان، ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون الحرب.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.. فخرج موسى.. لاستقبالهم .. فسخط موسى.. وقال لهم

موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة ـ عدد ٣١ : ١ ـ ١٧ » . فلماذا تجاوز (فليكوفسكى) عن هذه المدونات التى لا شك كانت مصداق كل كلمة استشهد بها من قبل واعتبرها تقول ما تعنيه فعلاً؟ بينما حمل على الهكسوس تلك الحملة القاسية بعد أن احتسبهم عرباً من العمالقة، بينما فى مصر ذاتها لا توجد شهادة قديمة واحدة على قسوة الهكسوس بشكل يقترب من تلك البشاعة فى شرائع الحرب التوراتية؟ اللهم إلا فى نص (حتشبسوت)، وما جاء فى حديث (مانيتون) فى القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا ما كان عن تزوير التاريخ لصالح التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، ويبقى أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ونكشف عن هوية الهكسوس بوضوح وعلاقتهم بالعرب وبالمصريين وببنى إسرائيل، وموقعهم الصحيح من التاريخ القديم! وهذا وعد نعمل حالياً ـ وربما لبعض الوقت ـ من أجل الوفاء به.

مصادر استشهادات البحث

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

١- د. أحمد سوسة: **العرب واليهود في التاريخ**، دار العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق ، د.ت.

٢- د. أحمد شلبي : **مقارنة الأديان، اليهودية**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

٣- إرمان (أدولف) : **ديانة مصر القديمة**، ترجمة محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

٤- اسبينوزا : **رسالة في اللاهوت والسياسة** ترجمة د. حسن حنفي، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٥- أنطون ذكري : **مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع وأهم إشاراته**، د.ت.

٦- د. أنيس فريحة : **دراسات في التاريخ**، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.

٧- إيمار وإبواية: **الشرق واليونان القديم**، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، د.ت.

٨- باقر (طه): **الوجيز في تاريخ حضارة الرافدين**، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ١٩٨٦.

٩- برستد (جيمس هنرى) : **كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى**، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩.

١٠- بريتشارد (جيمس): **نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم**، ترجمة وتعليق د. عبد الحميد زايد، هيئة الآثار المصرية، القديمة، القاهرة، ١٩٨٧.

١١- جاردنر (آلن هنرى) : **مصر الفراعنة، ترجمة د: نجيب ميخائيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٧.

١٢- حتى (فيليب : **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، الدار المتحدة ، القاهرة، ١٩٩٠.

١٤- روبنسون (تيودور). **إسرائيل فى ضوء التاريخ**، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

١٥- الشهرستانى : **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ، ١٩٦١.

١٦- صالح (د. عبد العزيز) : **الشرق الأدنى القديم**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٢.

١٧- طعيمة (د. صابر) : **التاريخ اليهودى العام**، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

١٨- على (د. جواد) : **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت.

١٩- على (د. فؤاد حسنين) : **التوراة الهيروغليفية**، دار الكاتب العربى، القاهرة، د.ت.

٢٠- عوض (د. لويس) : **مقدمة فى فقه اللغة العربية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.

٢١- الفرح (محمد حسين) : **الحضارات العربية الكبرى في العصور القديمة**، مجلة المنابر، بيروت، الأعداد من ٣٢ : ٤٠.

٢٢- فليكوفسكي (إيمانويل): عصور في فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سيناء الطبعة الأولى، القاهرة.

٢٣- القمني (سيد محمود) : **الأسطورة والتراث**، دار سيناء القاهرة، ١٩٩٢.

٢٤- القمني (سيد محمود) : **النبي إبراهيم والتاريخ المجهول** ، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.

٢٥- القمني (سيد محمود) : **أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة**، دار فكر، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٦- لانجر (وليم) : مع سبعة عشر عالماً: **موسوعة تاريخ العالم**، ترجمة د. مصطفى زيادة وسبعة مترجمين، دار النهضة المصرية، د.ت.

٢٧- ماكلستر (راس) : **الأقوام الجدد**، ترجمة عبد الحميد يونس، مجلدات تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثاني.

٢٨- موسكاتي (سبتينو) : **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة، د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧.

٢٩- موسى (محمد العزب) : **أول ثورة على الإقطاع**، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٦.

٣٠- هومل (فرتز) : **التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية**، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم بإشراف (نيلسن)، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، د.ت.

٣١- ولسن (جون) : ضمن كتاب : **ما قبل الفلسفة، بمشاركة آخرين**، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة، بغداد، د.ت.

المحتوى

الباب الثالث

من أعمال المؤلف

الكتب المنشورة :

- الموجز الفلسفي ، دار السياسة ، الكويت (نفذد).
- مشكلات فلسفية، التربية الكويتية، الكويت (بمشاركة آخرين).
- أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
- الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية.
- النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
- الأسطورة والتراث.
- إسرائيل : التوراة ، التاريخ، التضليل.
- حروب دولة الرسول.
- قصة الخلق.
- رب الزمان.
- السؤال الآخر.
- النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

هـذا الكتاب

ضمن مشروعه الكبير يتناول مفكرنا (سيد القمنى) فـى هذا العمل نقطة مفصلية وعلامـة فارقـة فـى تـاريخ المنطقـة، هى لحظة التماس بين القبيلة الإسرائيلية وبين مصر القديمـة. يناقش فيها على خطوات

أولا: الكتاب المقدس/ العهد القديم/ التوراة علـى محك العلمية وحدها ليخرج بصورة بانورامية متكاملة لهذا الكتـاب وكيف تم تأليفه؟ ومن قام بتحريره؟ وبأى لغة؟ وبأى أدوات كتابية؟ ولأى أهداف؟ .. الخ.

ثانيا: يتوقف مـع إشارة التوراة لدخول بنـى إسرائيل مصر وخروجهم منهـا، ليناقشها علـى محك معطيات، علوم التاريخ القديم للكشف عن الوجه الأقرب لحقيقـة الأحداث فـى حقلها الموضوعى آنذاك.

ثالثا: ثم يقف مفكرنا مع المنظومة العلمية التى تؤسس لإسرائيل موطئ قدم فى تاريخ المنطقة، وتتمثل تلك المنظومة فى أخطر تنظيرة تاريخيـة للقبيلـة الإسـرائيلية، فـى كتـاب فليكوفسكى (عصور فى فوضى).

نضع هذا الجهد بين يدى القارئ ليستكمل بـه قـراءة سيد القمنى لتاريخ المنطقة، بعين على المـاضى، وعين علـى همـوم الحـاضر. مقدريـن لـه دوره فـى إعـادة قـراءة التاريخ معنا.

عبده غريب

12/00